أبيـض النـاب

روايـــــة

تأليف:

جــاك لنـدن

ترجمة:

عبد الهادي الإدريسي



أبيض الناب

رواية

EDITORIAL HISPANO-EGIPCIA
SANABEL
الإسبانية المصرية للكتاب

الإشراف العام
د. طلعت شاهين

مكتب القاهرة:
ص.ب. 22
الحي المتميز. مدينة 6 أكتوبر
مصر

Tel.:
(+20) 2 835 40 69
Mob.:
(+20) 12 410 20 08
e-mail:
sanabook@maktoob.com
sanabook@hotmail.com



أبيض الناب

المؤلف :
جاك لندن
ترجمة:
عبد الهادي الإدريسي

الطبعة الاولى:
مايو 2006

رقم الإيداع:
١٨٧١٥/ ٢٠٠٦
الترقيم الدولي: I.S.B.N.
84-9313-725-19

تصميم وتنفيذ الغلاف:
كامل جرافيك

الفصل الأول

في أثر الطرائد

كانت غابة أشجار الأرز تمتد على ضفتي النهر المتجمد، مظلمةً وصامتة، كأنها تنطوي على تهديد خفي، وقد عرَّت هباتُ الريح الأخيرةُ الأشجارَ من معطفها الثلجي، فبدت في ضوء النهار الشاحب أشباحاً سوداء تقف متكئة بعضها على بعض، بينما خيم صمت مطبق على تلك الأرض الباردة القفراء الخالية من الحركة والحياة، المنعزلة انعزالاً يذهب بالوجدان إلى ما أبعد من الحزن نفسه.. كان ثمة شيءٌ مَّا يخلق لدى المرء رغبةً في أن يُطلق ضحكة مدوية، ضحكة هي باليأس أشبه أو أشد مرارة؛ ضحكةً جامدةً مشلولة لا بهجة فيها، مُحَمَّلةً- كابتسامة أبي الهول- بمرارة سرمدية... وبدا وكأن الزمن يقف بحكمته وجبروته اللامتناهيين، هازئاً من تفاهة الوجود...

كانت تِلكَ أرض الشمال المتوحشة القاسية المتجمدة حتى النخاع..

بيد أن الحياة كانت، رغم كل شيء، تواصل نضالها من أجل الاستمرار والبقاء..

غير بعيد عن هناك، وفوق مياه النهر المتجمدة، كانت تزحف زلاقةٌ يجرها قطيع من كلاب منهكة، قد رَسَمَ الجليدُ أخاديدَ على صفحات فروها، وأحال البردُ القارس بخارَ الماء الخارج مع الزفير من أفواهها نُدَفًا دقيقة من الثلج تراكَمَت بعضها فوق بعض حتى غطت كماماتِها الجلدية.. كانت الأحزمةُ التي تشدها إلى الزلاقة

طويلةً، فراحت المركبة تنزلق متأرجحةً فوق صفحة النهر الملساء.. ولم تكن في الواقع زلاقةً بالمعنى الصحيح، بل كانت عبارة عن أوراق من لحاء الشجر القاسي قد شُد بعضُها إلى بعض بإحكام، ووُضِعَت إلى الأرض مباشرةً دون قوائم ولا مزالق، فكان أنْ راحت المقدمَة المعقوفة تدفع أمامها موجةً من الثلج الرخو الذي كان أسفلُها يكشطه، مما جعل جرَّها من الصعوبة بمكان. وكان على متنها صندوقٌ طويل شُد إليها بسيور من الجلد، وتكومت بجانبه بضعُ أدوات، منها مقلاة وإبريق قهوة وكذا بعض الأغطية. على أن الصندوق كان يحتل مجمل مساحة الزلاقة وحده أو يكاد..

كان هناك رجلان يسيران بصعوبة فوق البساط الأبيض المترامي، أحدهما أمام الكلاب والآخر خلف الصندوق، وقد ربطا على أحذيتهما نعالاً عريضة تشبه مضرب كرة التنس. أما داخل الصندوق المربوط على العربة، فرَقَد رجلٌ ثالث كانت رحلةُ شقائه قد انتهت إلى الأبد.. لقد هزمه صقيع الشمال وأجهز عليه، فلن يقاوم بعد اليوم ولن يتحرك.. فالشمال لا يحب الحركة، وبردُ الشمال لا يفتأ بالحركة حتى يحيلَها جموداً.. فهو يجمِّد مياه الأنهار كي يمنعها من الانسياب نحو البحر، ويجمد الرحيق حتى في قلب أعتى الأشجار؛ لكنه أشدَّ ما يكون ضراوةً حين يهاجم الإنسان، ذلك أن الإنسان هو أكثر الكائنات الحية جميعها حركةً وأشدُّها اندفاعاً، تحدوه في اندفاعه فكرةُ أنْ لا حركةَ إلا ومآلَها إلى سكون...

لكن الرجلين السائرين أحدَهما أمامَ الزلاقة والآخرَ خلفَها، كانا لا يزالان على قيد الحياة، متمسكين بها، مثابرين على الصراع من أجلها باستماتة وشجاعة لا تقلان عنفاً عن ضراوة الشمال نفسه وشراسته... كانا متلفعين بمعاطف من الفرو السميك المدبوغ، أما رموشهما ووجنتاهما وشفاههما فقد اختفت وراء القناع الأبيض الذي

غطاها به الصقيع وهو يحوّل بخار زفيرهما جليداً، حاجباً معالم وجهيهما حتى لتكاد لا تظهر للعيان... كانا يبدوان بهيئتهما تلك وكأنهما حفارا قبورٍ ينجزان في العالم الآخر مراسم دفنِ أحد الأشباح وهما يعتمران قناعين مشوهين... لكن القناعين كانا يخفيان ملامح رجلين يمشيان بصعوبة متناهية وسط تلك الأصقاع الصامتة الباردة، الناطقة بما يشبه السخرية من كائنين ضعيفين، رمت بهما أقدارُهما إلى ركوب المغامرة المجنونة بتحدي عالم الشمال الذي لا يقل قسوة ورهبة عن الفضاء الخارجي نفسه...

كانا يمشيان في سكون تام، مقتصدَين في تصريف طاقتهما، متجنبين كل مجهود لا ضرورة قصوى تبرره، مستشعرين للصمت المحيط بهما، مطبقاً وثقيلاً حتى يكاد يُلمس، مفعولاً أشبه ما يكون بمفعول الماء على جسد الغواص الموغل في غوصه، إذ يسحق الجسد تحت ضغط لا نهاية ولا حدود لقوته... كان السكون الشاملِ يعصرهما حتى أعمق حنايا روحيهما، فيفرغ الروحين– كما تُفَرَّغُ من الليمونة عصارتُها– من كل أثر للكبرياء والغرور، ولا يدعهما حتى ترى كل منهما نفسها كما هي، ذرة لا وزن لها ولا قيمة، تمضي متعثرة في طريقها بين أدغال كثيفة تحكمها قُوى عمياءُ لا عقل لها ولا عقال...

مضت ساعة ثم أخرى، وراح ضوء النهار الشاحب القصير الذي لا شمس فيه يتراجع أمام جحافل الظلام الزاحف، عندما علت بغتة صرخةٌ بدأت– حين شقت جدار الصمت الكئيب– بعيدةً ضعيفة، ثم راحت ترتفع حتى استقرت عند نبرة عالية، فَرَسَتْ عليها برهةً تصمُّ الآذان، ثم أنشأت تخفت رويداً حتى خَبَتْ، وعاد السكون يجثم مطبقاً... كانت صرخةً ناطقة بما يشبه الألم، وكأنها أنينُ روحٍ ضالة، لولا ما كانت تحمله في طياتها من شراسةٍ حزينة ومن جوعٍ نَهِمٍ مُستَعِرٍ...

استدار الرجل الذي كان يمشي أمام الزلاقة حتى التقــت عينـــاه عيني رفيقه السائر خلفه، فتبادل الرجلان نظرةً ذات مغزى من فوق الصندوق الصامت ...

وعلت صرخة أخرى فمزقت السكون مدوية. وحــدد الرفيقـــان مصدرها.. كان الصوت قادماً من الخلف، من مكان ما في الــسهوب الجليدية الفسيحة التي قطعاها لتوهما.. ودوت صرخة ثالثـــة مـــرددة صدى الأوليين، فحددا مصدرها كذلك. كانت آتية هـــي أيـــضاً مـــن الخلف، من على يسار المكان الذي أتت منه سابقتيها...

تكلم "بيل"– وهو الذي كان يمشي أمام القافلة الصغيرة– فجـــاء صوته محشرجاً، كأنه آت من العالم الآخر، وهو يقول:

–إنها تَتَعَقَّبُنا..

فأجابه رفيقه بصوت أشبه بفحيحِ أفع :

–إن الطرائد نادرة في هذا الفصل، ومنذ عدة أيام لـــم أر أثـــراً لأرنبٍ بري واحد...

أمسك الرجلان عن الكلام، لكنهما بقيا مصغيين يصيخان السمع، مُرَكِّزَين اهتمامهما على تحديد مصدرِ مَا بدأ يعلو خلفهما من أصوات الذئاب المنطلقة إلى الصيد...

حين صار الظلام مطبقاً، جمعا الكلاب في منفرج مـــن الغابـــة على ضفة النهر، ونصبا مخيمهما متخذين صندوق الميـــت مجلـــساً وطاولةَ طعام، على حين راحت الكلاب تتصايح قرب النار وتتعارك، لكن دون أن تبدوَ على أيٍّ منها أدنى رغبة في الابتعاد عن القطيـــع والإيغالِ في الظلام المحيط. ولاحظ "بيل" ذلك فهتف برفيقه:

– ألا ترى يا "هنري" أن الكلاب تبدي رغبة بالبقاء قرب النـــار أكثر من المعتاد؟

فأومأ إليه رفيقه بإشارة من رأسه. كان منشغلاً بإذابة بعض الجليد ليصنع قهوة، حتى إذا اتخذ مجلسه على الصندوق وبدأ يأكل، قال مُؤَمِّنا:

– أجل. إنها تعرف أنَّ في ذلك سلامتَها، وأنه خير لها أن تبقى هنا وتأكل من أن تبتعد فتؤكل... إنها كلاب ذكية...

– ذلك ما أجدني مرغماً على التسليم به..

فحدجه صاحبه بنظرة نطقت بالدهشة وهو يقول:

– أوَ تراك تشك في كون الكلاب ذكية؟

استطرد الآخر قائلاً وهو يمضغ بأناة طعامه المتكون من فاصولياء مسلوقة:

– قل لي يا "هنري"، ألم تلاحظ كيف كانت تبدو مهتاجة حين قدمت لها الطعام؟

قال "هنري":

– بلى، لقد تعاركت أكثر مما اعتادت أن تفعل.

عاد صاحبه يسأل:

– قل لي يا "هنري"، كم كلباً لدينا؟

– ستة.

تريث "بيل" برهة كأنما يزن كل حرف سيتفوه به، ثم قال:

– لدينا إذن ستة كلاب. ولقد أخذتُ من الكيس ست سمكات، فأعطيت كل كلب واحدة منها. وحين انتهيت، كانت السمكات قد نفدت، على حين كان لا يزال لدي كلب لم يحصل على شيء...

– لعلك قد أخطأت الحساب؟

فعاد الآخر يكرر بإصرار:

– لدينا ستة كلاب... واستخرجت من الكيس ست سمكات، وفي النهاية بقي "وحيد الأذن" دون سمكة، واضطررت إلى أن أعود إلـى الكيس فأستخرجَ له منه واحدة إضافية..

قال "هنري" بصوت وشي بالشك الذي بدأ يتسرب إلى نفسه:

– دعك من هذا الهراء، ليس لدينا سوى ستة كلاب؛ ستة، لـيس غير..

– لست أدعي أنه لم يكن هناك سوى الكلاب. ولكنني على يقين من كوني أطعمت سبعة من الحيوانات لا ستة...

توقف "هنري" عن الأكل وراح يعُدُّ الكلاب المقعية حول النـار، ثم قال:

– لست أرى منها الساعة سوى ستة لا أكثر..

– لقد كانت سبعة. وقد رأيت الدخيلَ بعيني يفر عبر الثلوج..

رمق "هنري" صاحبه بإشفاق واضح وقال:

– لشد ما أتمنى أن تنتهي هذه الرحلة سريعاً يا "بيل"...

– ماذا تعني؟

– أعني يا صديقي أن هولَ ما مر بنا من شأنه أن يهز أعصاب أشد الناس احتمالاً وأقواهم شكيمة.. وها أنت قد بدأت ترى أشـياء لا وجود لها...

قال "بيل":

– فكرتُ في الشيء نفسه حين رأيتُ الحيوان يمرق هارباً، لكني تأكدت من وُجودَه بالفعل بتفحصي آثارَه على الجليد، وهي لا تـزال بادية وباستطاعتي أن أدلك عليها إن شئت...

تابع "هنري" الأكل صامتاً. وأتم طعامه، وشرب فنجاناً أخيراً من القهوة قبل أن يستدير نحو صاحبه قائلاً:

– هل تعتقد أنه؟...

قاطعته صرخة مدوية علت فجأة، خارجة من حنايا الظلام، فتوقف ريثما يعود الصمت، ثم أكمل سؤاله متابعاً:

– ... أنه أحد تلك الكائنات ؟...

– هو ما أظن.. وأؤكد لك أني أتمنى أن أكون على خطإ.. على أنك قد لاحظت أنت أيضاً حالة الهيجان غير العادية التي انتابت الكلاب فجأة...

كانت الصرخات الآن تتوالى يردد بعضها صدى بعض، مُحَوِّلَةً سكون المكان إلى ما يشبه سوق مجانين... كانت تنبعث من كل الجهات، مضاعفَةً من خوف الكلاب التي لاذت ببعضها وراحت تقترب من النارِ حتى لعقت ألسنةُ اللهب فروَها، فأذابت ما كان عليه من جليد وأحرقت شعيرات منه...

أَلْقَمَ "بيل" النارَ بضعَ قِطَعٍ من الحطب، ثم أشعل غليونه وراح في تفكير عميق. ورمقه "هنري" برهة ثم قال ملاحظاً:

– لمَ أراك حزيناً متذمراً..

اجتذب رفيقه بضعة أنفاس من الدخان قبل أن يجيب وهو يشير بيده إلى الصندوق الطويل الأسود:

– كنت أحدث نفسي بأن الرجل المسجى داخل هذا الصندوق أسعد حظاً مني ومنك... فلو متنا نحن الآن ما وجدنا من يستر أجسادنا ببضعة أحجار تقيها أنياب الوحوش البرية...

– لكننا لا نملك ما كان يملك هو من ثروة وأُسرة وجاه. وليس لنا من يؤدي عنا نفقات نقل جثامينا في توابيتها إلى مسافة كهاته...

– ما لا أفهمه أنا هو الباعث الذي حدا برجل كهذا، له في موطنه ما له من وفرة رزقٍ ورَغد، ولا تتنازعه مثلما تتنازعنا مطالبُ العيش وهمومه، إلى ارتياد هذا المكان القفْر من الحياة ومباهجها...

– أجل... وربما كُتب له أن يموت شيخاً فانياً لو أنه بقي في وطنه...

فتح "بيل" فمه ليتكلم، لكنه سرعان ما أغلقه.. فقد لاحت له من خارج الهالة المضيئة المحيطة بالنار عينان تلمعان دون أن تظهر خلفهما أية هيئة محددة في الظلام المطبق الذي كان يكتنف المكان.. وأشار إلى صديقه ينبهه إلى وجودهما فأومأ له "هنري" برأسه إلى زوج آخر من الأعين ثم إلى ثالث... كانت هناك دائرة من الحَدَقات اللامعة قد تكونت حول مخيمهما.. ومن حين لآخر، كان زوجٌ منها يتحرك أو يختفي فجأة من مكانه ليعاودَ الظهور في مكان آخر.. أما الكلاب فقد بلغ بها الخوف حدا يفوق التصور، فراحت تتقافز حول النار في جنون أو تتمسح، جاثيةً على قوائمها، بأرجل الرفيقين الجالسين... وتدحرج أحد الجراء قرب النار وسط الزحام فطفق يعوي ألماً فيما ملأت رائحةُ فروه المحترق جوَّ المكان.. وانفرط عقدُ الأعينِ المضيئة حين بلغ الهيجانُ بالكلاب أوجَه، لكنها ما لبثت أن عادت تُكَون دائرتها المرعبة حول المخيم الصغير حالَمَا عاد إليه بعض هدوئه. وقال "بيل" قاطعاً الصمت:

– إنه لمن سوء الحظ أن يعاني الإنسان وهو في وضع كوضعنا هذا من نفاد الذخيرة...

كان "هنري" منشغلاً بإلقاء بعض قطــع الفــرو علــى فــراش الأغصان الذي كان صديقه قد أعده قبل العشاء. حتى إذا انتهى بــدأ يفك سيور حذائه وهو يقول:

– كم رصاصةً تَبَقَّى لنا؟

– ليس أكثر من ثلاث.. وكَمْ وددْتُ لــو كانــت ثلاثمائــة، إذن لَعَرف هؤلاء الأوغاد كيف تكون عاقبةُ مَــن تحدثــه نفــسُه بأكــل لحمي...

قال ذلك وهو يلوح بقبضته باتجاه دائرة الأعين اللامعة. ووضع نعليه بعناية قرب النار قبل أن يضيف:

– كم أود أيضاً لو يتوقف هذا البرد القارس... لقد مضى علينــا أسبوعان لم تجاوز خلالهما الحرارةُ الدرجةَ الخمسين تحت الصفر... أتدري يا "هنري"... لقد ندمت على تورطي في هذه المغامرة... فها أنت ترى المجرى الذي بدأت الأحداث تتخذه... هناك شيء مًا لــيس على ما يرام... آه، كمْ تتوق نفسي إلى لعبة ورقٍ ألعبها معك قــرب النار في حصن "ماك كوري" عند وصولنا إليه... لست أطلب أكثــر من ذلك...

غمغم "هنري" مؤمِّناً، ثم انزلق تحت الأغطية.. وجاءه صــوت صديقه طارداً عن عينيه النوم الذي بدأ يساورهما:

– قل لي يا "هنري"؛ لماذا لم تثب الكلاب على الحيوان الــدخيل الذي اندس بينها وحصل على حصته من طعامها ثم انصرف آمناً؟.. إنه لأمرٌ يحيرني...

فأجابه "هنري" بصوت وشي بقرب استسلامه للنوم:

– إنك فريسةُ مخاوفَ لا مُبرِّرَ لها يا "بيل"، وليس هذا عهــدي

بك.. فدع عنك الهواجس ونم كي ترتاح قليلاً، وغداً ستكون في أحسن حال... لا شك أن معدتك هي السبب في توتر أعصابك. فنمْ ترتحْ وتُرحْ جسدك...

نام الرجلان جنباً إلى جنب، متلفعين معاً بالغطاء نفسه ليتبادلا الدفء، وراحا يتنفسان بعمق- شأن المنهك المكدود ظَفَرَ بلحظة راحة- على حين بدأت تخفت النار رويداً ودائرة الأعين اللامعة تزداد ضيقاً... أما الكلاب، فقد التحمت ببعضها خائفة مرتعبة.. وعلت من حين لآخر زمجرةٌ يطلقها كلبٌ مهدّداً وقد رأى زوجاً من تلك الأعين يقترب أكثر مما ينبغي.. وراحت الضوضاء تعلو حتى بلغت حداً انتزع "بيل" من نومه العميق، فانسل من تحت الغطاء بحذر، حتى لا يُزعجَ صديقَه النائم، ورمى ببعض الأخشاب إلى النار التي سرعان ما اتقدت جَذْوَتُها، دافعةً بدائرة الأعين النهمة إلى الوراء... وبدت الكلاب في ضوء اللهب ملتحمة قد ألصقها الخوف ببعضها، فجال نظر "بيل" بينها في سهوم، لكن الرجل سرعان ما عاد يحدق النظر فيها وهو يفرك عينيه...

وعاد بعد لحظة فاندس تحت الغطاء وهو ينادي رفيقه:

- "هنري".. يا "هنري"..

غمغم الآخر وهو لا يزال تحت سلطان السبات:

- ماذا جد لديك؟

- لا شيء... كنت أود فقط أن أقول لك إنها الآن سبعة.. لقد انتهيت لتوي من عدّها...

بيد أن هذا الكلام لم يُحدث في الرجل الأَثَرَ الذي كان ينتظره رفيقه، فقد اكتفى بأن غمغم بكلماتٍ غيرَ مفهومة، ثم عاد يغط في نومه...

كان "هنري" أول من استيقظ في الصباح التالي، فراح يعد القهوة بعد أن أيقظ رفيقه الذي أخذ يطوي الأغطية ويهيئ الزلاقة للمسير.

وفجأة صاح "بيل":

– قل لي يا "هنري".. كم كلبا لدينا؟

– لدينا ستة..

– خطأ..

– إذن، فهي من جديد سبعة؟

– لا هذه ولا تلك.. لدينا الآن خمسة كلاب لا غير..

فصاح "هنري" مستنكراً:

– يا إلهي..

توقف عن إعداد قهوته واتجه صوب الكلاب حيث راح يعدها قبل أن يقول باستسلام:

– أجل.. أنت على صواب.. اختفى "كرة الدهن"..

فقال "بيل":

– لاشك أنه انتهز فرصةً سنحت ثم انطلق كالسهم في الظلام..

– المسكين... ما أرى الوحوش المسعورة إلا متخاطفةً إياه حياً... وكأني به نازل في جوف أحدها ولَمَّا تصمُتْ صرخاتُ الرعب والهلع في حلقه...

– لقد كان كلباً أخرقاً. ولست أعجبُ لما وقع له..

– قد تكون على صواب، لكن.. أيُّ كلبٍ هذا الذي يسعى إلى حتفه بظلفه؟

راح "هنري" يجول بعينيه بين الكلاب وكأنه يزن بناظره خصال كل منها ومساوئه، ثم قال مضيفاً:

– لن يفعل أحد من كلابنا الخمسة المتبقية ما فعل "كرة الدهن".. أنا واثق من ذلك كل الثقة..

– أجل. لن تستطيع إبعادها عن النار حتى ولو توسلت إلى ذلك بالعصا الغليظة.. أما"كرة الدهن"، فلم أكن على حالٍ أنتظر منه خيراً...

كان ذاك كل ما قيل من كلماتٍ لتأبين كلبٍ لقي حتفه على أحد مسالك الشمال البارد...

وهي كلماتٌ– مهما تكن قليلة مقتضبة– لم يحظ بمثلها الكثيرُ من الكلاب، لا بل والكثيرِ من الرجال الذين قتلتهم الأصقاع الشمالية الصامتة...

الفصل الثاني

الذئبـــة

انتهى الرجلان من تناول فطورهما فشدا متاعَهما إلـــى ظهـــر الزلاقة وربطا إليها الكلاب، ثم أدارا ظهريهما لدفء النار وأمانهـــا، وارتميا في لُجُج الظلمة المطبقة.. وما لبثت الصرخات المخيفـــة أن عادت تدوي ملعلعةً في الفضاء البارد، يردد بعضها صـــدى بعـــض وسط سكون الليل في تلاحقٍ مرعب.. وسار الرجلان حول الزلاقـــة كما فعلا بالأمس، صامتين... وأشرقت شمس الصباح الشاحبة عنـــد التاسعة، ثم راح الأفق نحو الجنوب البعيد يصطبغ بحمرة اســـتحالت عند الزوال أرجواناً يرسم الحدود بين بلاد الـــشمال البـــارد وبـــين الجنوب حيث مملكة الضياء... على أن الأرجوان ما لبث أن شـــرع يشحب رويداً، مفسحاً لضوء رمادي باهت صمد حتى حدود العـــصر ثم انهزم بدوره أمام جحافل الظلام التي عادت تلف الكون بـــسكونها البارد المخيف...

بعودة الظلام عادت الصرخاتُ الجائعة التـــي أصْـــمَتَها ضـــوءُ النهار، عادت تدوي في الفضاء، لكنها كانت هذه المرة أقرب إلـــيهم منها بالأمس.. كانت تنبعث من اليمين واليسار والخلف، قريبةً إلـــى درجةٍ أصبحت معها الكلاب المنهكة تزيغ في عدْوِها فيختلُّ تـــوازنُ الحبالِ وتنحرفُ الزلاقة، فيضطر الرجلان إلى إرجاعها إلى منتصف مجرى النهر حيث تتيح صفحةُ الماء المتجمدة بعضَ الرؤية...

وقال "بيل" وهو يعيد الكلاب كَرَّةً إلى الطريق:

– ليتها تقعُ بطريدة أخرى فتدعَنا وشأننا...

– أجل.. فأعصابنا لم تعد تحتمل المزيد...

عاد الرجلان إلى صمتهما حتى توقفا للاستراحة والمبيت، فأشعلا النار، وطفق "هنري" يطهو بعض حبوب الفاصوليا للعشاء، بينما اهتم "بيل" بتقديم الطعام للكلاب. وفجأة سمع "هنري" صوت صديقه يطلق صيحة غيظ تلتها صرخة ألم ندَّت عن حيوان غاضب، فأطل برأسه ليرى شبحاً يمرق فوق الثلج بسرعة ويبتلعه الظلام... أما "بيل"، كان يقف منتصباً وبإحدى يديه هراوة ضخمة، بينما أمسكت اليد الأخرى بذيل سمكة سلمون مجففة، فبادر صاحبَه قائلاً:

– لقد انتزع جزءَ السمكة الأكبرَ من يدي، ولكني جعلته يؤدي الثمن من جلده.. هل سمعت صرخته؟

– كيف كان شكله؟

– لم أتبينه جيداً. لكن لا شك في أنه كان ذا فروٍ وقوائمَ أربع، وأن له هيئةً أشبه ما تكون بهيئة الكلب.

– لعله ذئب مستأنَس؟

– أعتقد ذلك. وإلا، فمن أين لحيوانٍ متوحش أن يعرفَ كيف يندسُّ بين الكلاب لينتظر نصيبه من الأكل كما فعل هذا؟..

لما انتهى الرجلان من تناول طعامهما وراحا يدخنان غليونهما جالسين فوق الصندوق الخشبي الأسود، عادت دائرة الأعين اللامعة لتحيط بهما من جديد، لكنها كانت اليوم أضيق من دائرة الأمس بكثير، فأطلق "بيل" تنهيدة مسموعة وهو يقول مكرراً:

– ليتها تعثر بقطيعِ أيائلَ أو أيِّ شيء آخرَ وتَدَعَنا بسلام..

غمغم "هنري" جواباً غير مفهوم، وقد وشت نبرة صوته بضيق صدره.. وساد الصمت دقائق طويلة استسلم خلالها كلا الرجلين لتيار

هواجسه وهما يجيلان ناظريهما بين النار المتقدة وبين دائرة الأعين المحدقة بهما..

عاد "بيل" يقول، قاطعاً الصمت فجأة:

– أوَدُّ لو كنا بين أسوار حصن "ماك كوري" في هذه اللحظة...

فانفجر "هنري" قائلاً بصوت غاضب:

– هلا كففت عن تمنياتك الخرقاء تلك؟.. لا شك أن ما بك هو المعدة التي تفسد مزاجك، فتناولْ ملعقة من الصودا كي تستريحْ معدتُك وتَحْسُنْ عِشرَتُك..

استيقظ "هنري" صباح الغد على ضوضاءَ وقرقعة فهب من مكانه ليجد صديقه واقفاً قرب الموقد، وهو في حالة يرثى لها من الحزن والغضب، فناداه قائلاً:

– صباح الخير يا "بيل". ماذا هناك؟

– لقد اختفى "الضفدع"...

– غير معقول...

– بلى...

اتجه "هنري" صوب الكلاب متفقداً، وما لبث أن ضم صوته إلى صوت صاحبه في الجأر بالشكوى من تلك الأرض اللعينة التي لا تفتأ قواها العمياء تنتزع منهما كلابهما– وهي حياتهما– انتزاعاً... وقال "بيل" معلقاً بمرارة:

– لقد كان "الضفدع" خير الكلاب جميعها...

– أجل... ولم تكن به ذرةٌ من حماقةٍ ولا خرَق...

تِلك كانت ثاني كلمةِ تأبينٍ تُقال على مدى يومين...

تناول الرجلان إفطارهما يلفهما صمت كئيب، ثم قاما وربطا الكلابَ الأربعة الباقية إلى الزلاقة، واستقبلا يوماً مضى كسابقه بين

مشقة السير وسط البرية المتجمدة، والرعب يستولي على الكلاب كلما علت صرخةٌ من الصرخات التي كانت تطاردهم بدأب لا يعرف الكلل.. وزحف الظلام عند العصر كعادته في ذلك الفصلِ من السنة، فازدادت الصرخات بحلوله اقتراباً، وزاد باقترابها رعب الكلاب التي جعلها الهلع تنحرف عن الطريق المرة تلو الأخرى، مضاعِفَةً بذلك من تعب الرجلين وقنوطهما...

توقفوا للمبيت، فأوقد "هنري" النار ونصب فوقها قدراً للطبخ. وبينما هو كذلك سمع صوت صاحبه يكلم الكلاب قائلاً:

– هذا أأمنّ لك من هرب فيه حتفك أيتها الكائنات البائسة...

ترك ما كان بيده واتجه إلى حيث كان يقف رفيقه، فوجده قد أوثِق الكلاب على الطريقة المعروفة لدى الهنود الحمر، ربَطَ عنقَ كلٍّ منها بحزام جلدي قد ضُيِّقت فتحته حتى لا يطالَه الحيوان بأنيابه، ثم شدت إليه عصا طويلة رُبط طرفُها الآخر إلى وتد قد سُمِّر في الأرض– وهي طريقةٌ تضمن ألاّ يستطيع الكلب قضمَ قيده الجلدي بأنيابه ولا التحررَ منه– فقال معلقاً:

– أحسنت فعلاً... هذه هي الطريقة الوحيدة الكفيلة بإبقاء "وحيد الأذن" قيد الوثاق... فلهذا الكلب أنيابٌ لو وضعها على الجلد لقَطَعَته بأسرع مما تفعل سكينٌ جيدةُ الشحذ... ولنا أن نأملَ بأن تكون كلابنا كلها على قيد الحياة غداً صباحاً...

حدجه الآخر بنظرة مُنكرة وهو يقول:

– هل تَشُكُّ في ذلك؟ إنَ ضاع أحدها فأنا آلي على نفسي ألاّ أشرب قهوة الصباح...

جاء وقت النوم، فاضطجع الرجلان. وقال "هنري" وهو يومئ إلى دائرة الأعين المتحلقة من حولهما:

– لا شك أن هذه الوحوشُ أدركَتْ أننا عُزل من السلاح.. فلو

استطعنا أن نُسمعها بضعَ طلقات نارية لأورَثَها ذلك خوفاً منا وحذَراً... ألا تلاحظ أنها تقترب كل يوم عنها في سابقه؟.. حدِّقْ في الظلام... أترى هذا الزوج من الأعين ؟ وذاك، والآخر...

قضى الرجلان بضع لحظات على هذا المنوال، يحصيان أزواج الأعين المُحْدِقة بهما ويحاولان استشفاف ما وراءها... واستطاعا مرة أو مرتين، وهما يمعنان النظر، تحديدَ هيئة ذئب، بل ورؤيتَه وهو يتحرك..

ند عن أحد الكلاب صوت فالتفت الرجلان صوبها، فإذا "وحيد الأذن" يتمطى في قيده محاولا قضمه وهو يُصدر أنيناً ذا نبرة خاصة، مولياً نظره صوب الغابة. ونظر "هنري" حيث ينظر الكلب وإذا به يلكز رفيقه بكوعه هامساً:

– أنظر يا "بيل"...

نظر الرجل إلى حيث أشار صديقه، فرأى حيواناً أشبه ما يكون بكلب، لكنه كان يتحرك بطريقة غريبة، فيها خوف وخبث... وبدا حذراً من الرجلين، لكن اهتمامه كان منصباً على الكلاب لا عليهما.. أما "وحيد الأذن"، فشرع يشد قيده بكل ما استطاع من قوة، محاولاً الاقتراب من الحيوان الغريب.. وقال "بيل" معلقاً بصوت هامس:

– لم تعد تبدو على هذا الأحمق أيٌّ من علامات الخوف...

فأجابه رفيقه بصوت لا يكاد يُسمع:

– إنها ذئبة.. ذاك ما يفسر اختفاء "كرة الدهن" ورفيقه "الضفدع"، فهي تضطلع بدور الطعم فتستدرج الكلب بعيداً لينقض عليه قطيع الذئاب ويلتهمه...

فرقعت قطعةُ حطب في النار فجأة، فقفز الحيوان الغريب إلى الوراء وابتلعه الظلام.. وقال "بيل":

– "هنري".. لقد خطرت لي فكرة الآن..

– ما هي يا ترى؟..

– هذا الحيوان هو نفسه الذي تلقَّى ضربات من هراوتي بالأمس...

– ما في ذلك من شك...

– وإليك أخرى: إن وجوده بين الذئاب لَهُوَ في حد ذاته أمرٌ غريب، بل وشاذ...

– الحق ما تقول.. فهو يعرف عن عادات البشر ما لا يتأتى لذئبٍ متوحش أن يعرفه. وإلاّ، فمن أين لذئب لا تجربة له أن يعرف كيفَ يأخذ مكانه بين الكلاب في الوقت المناسب كي يحصل على حصةٍ من أكلها؟

– أعرف شخصاً كان يُدعى " العجوز الشرير"، فرَّ أحدُ كلابه من عنده وذهب ليعيش بين الذئاب. وأنا على يقين تام مما أقوله، فأنا من كُتب له أن يقتل يوماً ذلك الكلب، في جملة ما قَتَلْتُ من ذئاب أحد القطعان. وأذكر أن "الشرير" بكى حزناً على كلبه الذي كان قد مضى على اختفائه ما يقرب من ثلاث سنوات، قضاها الكلب كاملة بين الذئاب...

– أنا متفق معك يا "بيل". فهذا الذئب كلبٌ تلقى طعامه مرات عديدةً من يد إنسان...

فقال "بيل":

– ليكن ذئباً أو كلباً أو ما شاء. أما أنا، فإن رأيته فسأقتله... لست مستعداً لفقد المزيد من الكلاب بسببه..!

– لا تنس أننا لم نعد نملك سوى ثلاث طلقات...

– أجل.. لكن لا تخف.. لن أطلق النار إلا وأنا على يقين من إصابة الهدف..

استيقظ "هنري" عند الفجر فألْقَمَ النار ما بقي حوله من حطب، ثم شرع يعد طعام الفطور بينما رفيقه لا يزال يغط في نومه. وأفاق النائم أخيراً فقال يخاطبه:

– لقد كان نومك من العمق بحيث لم أجرؤ على إيقاظك...

بدأ "بيل" يتناول إفطاره وهو ما زال لمَّا يتحررْ من سلطان السبات. ومد يده نحو إبريق القهوة، بيد أن الإبريق كان بعيداً عن متناوله، قريباً من صاحبه، فأومأ إليه بناظريه يسأله أن يمده به، وإذا به يجد في عينيه نظرة عتاب باسمة، فتوقف متسائلاً، فقال له صديقه:

– ألم تنس شيئا؟

فدار "بيل" بعينيه من حوله متسائلاً، ثم أجاب:

– لا أعتقد... لماذا؟

قال ذلك ثم مد يده نحو الإبريق ثانية، فقال "هنري":

- لن تنال نصيباً من القهوة اليوم...

– لماذا؟ هل نفد مخزوننا من البن؟

– كلا...

– إذن، فأنت تخشى على معدتي؟

– ولا هذه...

فاصطبغ وجه "بيل" بحمرة الغضب وهو يقول:

– ماذا إذن؟ أفصحْ، فالقهوة ستبرد...

– لقد ذهب "شامبيون"...

قام "بيل" من مكانه واتجه باستسلام حزين صوب الكلاب الرابضة لدى أرسانها، فراح ينظر إليها وهو يقول:

– كيف استطاع الإفلات من قيده؟

هز الآخر كتفيه قائلاً:

– لست أدري... ربما ساعده "وحيد الأذن". المؤكد أنه ما كان بإمكانه الفكاك وحده من قيده المُركّب...

غمغم "بيل" بصوت وشي بما يبذله من جهد لكظم الغيظ المعتمل في نفسه:

– الغبي البائس...

– حرَّرَ صديقَه حيث لم يستطع هو الانطلاق...

– أما "شامبيون" المسكين، أنهى رحلة شقائه موزعاً بين بطـون عشرين من الذئاب أو أكثر...

كان ذاك تأبينُ ثالث كلب يذهب فريسة الذئاب الجائعة الماكرة...

استدار "هنري" صوب صديقه قائلاً:

– هيا.. تناول قهوتك..

لكن "بيل" رفض بهزة من رأسه، فعاد الآخر يقول:

– لا بأس عليك، هيا تناولْ قهوتك..

– لا... لقد نذرت أن أبقى بلا قهوة إن استطاع أحـد الكـلاب الإفلات من قيده، فلا أقَلَّ من أن أبقى عند وعد قطعته على نفسي...

عاد رفيقه يقول بإغراء:

– إنها قهوة ممتازة..

لكن "بيل" بقي على إصراره، فتناول إفطاراً جافاً بلالُه السـبابُ الذي لم يتوقف لحظة عن كيله للكلب "وحيد الأذن"، المسؤول بنظـره عما حدث.. وقال أخيراً وهو يومئ برأسه صوب الكلاب:

– سأحتال في ربطها الليلة بطريقةٍ لن يتمكن معها أي منها مـن قضم قيد الآخر...

أنهى الرجلان طعامهما وربطا الكلاب الباقية إلى الزلاقة، وبـــدأ الموكبُ من جديد سيرَه الوئيد. وما إن مضت بضع مئات من الأمتار حتى أبصر "هنري"– السائر في الأمام– العصا التـــي كانـــت تـــشد "شامبيون" إلى وتده، ملقاة على الجليد، فعرفها رغم العتمة، والتقطها ورمى بها إلى صاحبه خلفه وهو يقول:

– إليك يا "بيل" شيئ قد يفيدك...

التقط "بيل" العصا التي سقطت عند قدميه، فتأملها لحظة ثم قـــال وهو يهزها في يده:

– لقد التهمته الذئاب اللعينة ولم تترك منه شيئاً... أكلَـــتْ حتـــى أحزمة الجلد التي كانت تربط العصا بالكلب والوتد... إنها تكاد تجن جوعاً يا "هنري"، وويل لنا منها لو استطاعت إلينا سبيلاً...

أطلق "هنري" ضحكة تحدٍّ رنت في السكون وقال:

– إنها أول مرة أجد نفسي فيها طريدةَ قطيعٍ من الذئاب... لكـــن الوحوش البائسة أساءت الاختيار هذه المرة.. فليس صـــديقُك ممَّـــن يؤكل لحمُه مريئاً يا صاح!...

قال "بيل" بوجوم:

– من يدري...

– سترى بعينيك إن دعت الظروف إلى ذلك، وستقتنع بـــصدق قولي متى جاوزنا باب حصن "ماك كوري" بسلام...

– هذا إن وصلنا...

– أنت لست على ما يرام يا "بيل". وحالما نصل الحصن سأملأ بطنك بالكينين، فما أحوجك إليه...

غمغم "بيل" بشيئ غير مفهوم، ثم لزم الصمت...

مر اليوم كسابقه، فسَطَعَ الضياءُ باهتاً بُعَيْد التاسعة، واصطبغت السماء بالأحمر القاني نحو الجنوب، ثم ما لبثت العتمة الرماديـــة أن

لفّت الكون لتنقلب عند العصر ليلاً معتماً.. ولما اختفى آخر شعاع من أشعة الشمس وراء الأفق البعيد، أخرج "بيل" البندقية من تحت أحزمة الزلاقة، وأعلن لرفيقه:

– واصل تقدمك يا "هنري"، وسأحاول أن أرى ما أستطيع فعله..

– دعك من التهور غير المجدي وابق قريباً، أنت لا تملك أكثر من ثلاث طلقات لن تفيدك بشيء فيما لو هاجمك القطيع مجتمعاً وأنت وحدك..

قال "بيل" ضاحكاً:

– من المتشائم منا الآن إذن؟

لم يجب "هنري" بشيء، بل واصل سيره صامتاً، وراح من حين لآخر يُلقي من فوق كتفه نظرات قَلِقَة إلى الخلاء الأبيض المترامي خلفه، حيث اختفى صديقه.. ومرّت ساعة كاملة قبل أن يعود "بيل" عبر الغابة وهو يقول:

– لقد تفرقت الذئاب. لعلها وقعت بطريدة أخرى. لكن لا يغُرَّنَّك ذلك، فهي في أثرنا، ولن تلبث أن تراها خلفنا من جديد...

– لن تفيدها ملاحقتُنا بشيء..

تابع "بيل" كأنّه لم يسمع تعقيب صاحبه:

– لقد لمحت بعضاً منها.. إنها هزيلة بدرجة لا تُصَدَّق، وليس من شك في أنها لم تحظ بأكلٍ منذ أسابيع عدا كلابنا الثلاثة.. فأضلعها بارزة وبطونها ضامرة قد التصقت بأظهرها أو كادت، ولن يطول بها الأمر أن تجن جوعاً، فلنكن على حذر..

مضت لحظات سار خلالها الرجلان صامتين. وفجأة أطلق "هنري"– وكان يمشي إلى الخلف– صفيراً خافتاً. والتفت رفيقه إليه وأوقف الكلاب وراح يحدق إلى المنعرج خلفهم حيث بدا حيوان وحيد يجري بطريقةٍ أصبحت الآن معهودة لدى الرجلين، ويتشمم الأرض

أمامه من حين لآخر... وانتبهت الذئبة إلى توقف الزلاقة عن المسير، فتوقفت بدورها وراحت تحملق في الرجلين... كانت خياشيمها تنفتح وتنغلق باستمرار، وكأنها تحاول استقراء رائحتهما...

همس "بيل" بصوت يكاد لا يُسمع:

– إنها هي.. الذئبة..

قال ذلك وعاد أدراجه إلى حيث صاحبه، ووقف الاثنان يتأملان الحيوان الذي كان سبباً في هلاك نصف كلابهما...

أما الذئبة، فقد بقيت في مكانها تراقب الرجلين، ثم تقدمت بضع خطوات إلى الأمام قبل أن تتوقف ثانية، وأعادت ذلك كَرَّةً ثم أخرى حتى غدت على نحو ثمانين أو تسعين متراً منهما، وأقعت وبقيت دون حراك..

كان في إقعائها ما يُذَكِّر بالكلب لولا أن في منظر الكلب مقعياً ما يُوحي بحبه صاحبَه وخضوعه له. أما تلك الذئبة، فقد كان الجوعُ وحدَه وازعَها...جوعٌ له أنيابُ وحشٍ ضارٍ وقسوةٌ لا تقل عنفاً عن قسوة الشمال نفسه وضراوته...

راح الرجلان يتأملانها... كانت أكبر حجماً من المتوسط المعهود لدى أبناء جلدتها، وبدت تقاطيع جسدها الضامر قوية رغم الهزال... وقال "هنري" ملاحظاً:

– حيوان ضخم...لا أقلَّ من خمسة وسبعين سنتيمتراً عند الكتف، وقُلْ ضعف ذلك في ما بين الرأس والذيل...

– ولونُها... أرأيتَ لونَها ؟...لم أر ذئباً بهذا اللون من قبل...إن فراءها بلون القرفة..

الحق أن لون الذئبة كان رمادياً كلون باقي بنات جنسها، غير أنه كانت لفروها تموجاتٌ حمراء تلمع هنا وهناك كلما تحركَت، فتعطي للبصر انطباعاً بحمرة لا تكاد العين تتحققها حتى تختفي..

أضاف "بيل" مستطرداً:

– تبدو ككلب من كلاب الجر. ولن أعجب لو رأيتها تحرك ذيلها..

قال ذلك وصاح منادياً:

– تعال أيها الكلب الضخم.. تعال إلى هنا..

ندت عن "هنري" ضحكة عصبية وهو يقول معلقاً:

– لن يكون لكلامك كبيرُ أثر فيها على ما يبدو..

أعاد"بيل" الكَرَّة ثم لوح بيده مهدداً، فلم تزد الذئبة غير أنها غيرت من وضعها، متخذة وضعاً أكثر حذراً، لكنها بقيت مكانها، تحدج الرجلين بنظراتها الجائعة.. والحق أنها لم تكن ترى في كل منهما أكثرَ من طريدة لو استطاعت لالتهمتها..

قال "بيل" لرفيقه هامساً، وكأنه يخشى أن تسمعه الذئبة فتَطَّلِعَ على نواياه:

– اسمع يا "هنري" .. إنها فرصةٌ لا تعوض لاستغلال إحدى طلقاتنا الثلاث الباقية استغلالاً مفيداً.. فهذه الذئبة لن تتوقف–ما دامت على قيد الحياة– عن انتزاع كلابنا الواحد تلو الآخر، حتى تفنيها عن بكرة أبيها فيأتي دورنا.. ما رأيك؟..

أمَّن الآخر بهزة من رأسه، فعاد "بيل" بخطوات حذرة نحو الزلاقة، واستخرج بندقيته من تحت الأغطية. لكنه ما كاد يسند عقبها إلى كتفه حتى رأى الذئبة تقفز فجأة إلى جانب الطريق لتختفي بين أشجار الأرز الكثيفة..

تبادل الرجلان نظرة قصيرة ثم أطلق "هنري" من بين أسنانه صفيراً نَمَّ عن الإعجاب. وقال "بيل" بوجوم وهو يعيد البندقية إلى مكانها:

– إن ذئباً له من التجربة ما يكفيه لكي يعرف كيف يندس بين الكلاب في الوقت المناسب للحصول على حصة من أكلها، لَقَمينٌ بأن

يعرف الأسلحة النارية أيضاً.. إن هذا المخلوقَ هو أساسُ كلِّ متاعبنا يا "هنري"، بسببه فقدْنا نصف قطيعنا من الكلاب، وإن لم أقتله سيكون سبباً في مقتلنا.. قد يكون ماكراً لا يؤخذُ مُجَابَهَةً، لكني سأكمن له وأصطاده.. ولْتُشَلَّ يدي هذه إن لم أفعل..

– أنصحك ألاَّ تبتعد عن الركب، فهذه الوحوش تتضور جوعاً، ولن تفيدك طلقاتك الثلاث بشيء فيما لو وجدت نفسك محاطاً بقطيع منها. فلا تكن متهوراً..

اضطر الرفيقان إلى التوقف مبكراً هذا اليوم، فالكلاب الثلاثة لم يكن بوسعها إنجازُ ما كانت تقوم به ستة، ولم يمض وقت طويل حتى بدأت تظهر عليها علامات الإعياء. وما لبث الرجلان أن استغرقا في النوم بعد أن ربطاها بحيث لا يستطيع أحدها قضم قيود الآخر..

أما الذئاب، فقد باتت اليوم أكثر جرأة منها بالأمس، وزادت دائرةُ الأعين اللامعة ضيقاً، وبلغ الرعب بالكلاب مبلغاً اضطر الرجلين إلى القيام لإذكاء النار أكثر من مرة. وعاد "بيل" في إحدى هذه المرات إلى مكانه بعد أن ألقم النار بضعة عيدان من الحطب، مبعداً بذلك دائرة الأعين بضعة أشبار إلى الخلف. وقال وهو يندس تحت الغطاء:

– لقد سمعت بعض البحارة يروون كيف تتعقب أسماك القرش السفن في أعالي البحار.. وها هي أسماك القرش الأرضية تتعقبنا نحن.. وهي تعرف بيئتها خير منا، ولن ننجو من أنيابها مهما فعلنا ونفعل..

عقب "هنري" معنفاً:

–إن في كلامك ما يوحي بقرب استسلامك، وفي هذا الموت الزؤام..

قال "بيل" بصوت ضعيف:

– لقد قهرت ذئاب الجليد من هم أقــوى شــكيمة منــي ومنــك وأصعب مراساً..

انفجر "هنري" صائحاً في غضب:

– أسكت يا نذير الشؤم، لقد تجاوزتَ كل الحدود..!

قال ذلك واستدار في مكانه مولياً صديقه ظهره..

لم يقع شئ.. لم يرد "بيل" الصاعَ صاعين كعادته حين يُستَفَز.. لم ينطق بكلمة.. فقال"هنري" لنفسه إن أعصاب صــديقه علــى حافــة الانهيار، وأن عليه أن يبادر منذ الغد بعمل شيء مًّا لإنقاذه...

الفصل الثالث

صرخة الجوع

كانت بداية النهار باعثة على التفاؤل، إذ لم يفقد الرفيقان أياً من كلابهما، فانطلقا جذلين وسط السكون البارد المظلم.. وبدا "بيل" أقل تشاؤماً منه بالأمس، حتى إنه راح يتندر ساخراً من الكلاب حين انقلبت الزلاقة خلفها عند أحد المنعرجات. لكنه ما لبث أن كف عن الهزل حين رأى العربة وقد انحشرت، منقلبة رأساً على عقب، بين جذع دوحة عظيمة وإحدى الصخور الناتئة السوداء..

لم يكن هناك مفر من البدء بفك الكلاب عن العربة، فأطلقها الرجلان. وبينما هما يحاولان استخراج الصندوق من محشره، إذ بهما يلاحظان أن "وحيد الأذن" يحاول الانفلات هارباً. فاستدار "بيل" ناحيته وصاح به وهو يعترضه محاولاً سد المنفذ عليه:

– لا تفعلها أيها الشقي وابق هنا، ففي فرارك حتفك..!.

لكن الكلب قفز جانباً وجرى مبتعداً فوق الثلج، ساحباً خلفه الحزام الجلدي الذي كان يشده إلى الزلاقة...

وهناك، على الطريق خلفهم، كانت الذئبة واقفة تنتظر...

حين اقترب الكلب منها خفف من عدْوِه وسار باحتراس حتى لم تعد تفصله عنها سوى خطوات. لكنه كان لا يزال على حذره، فبدت أذناه وذيله مشدودة جميعها إلى أعلى، عنوانَ التوتر الشديد عند الكلاب، غير أن نظراته كانت تشي بأمل يكاد يتغلب لديه على الحذر... وبدا وكأن الذئبة تبتسم.. كانت نواجذها تبدو مغرية أكثر

منها مخيفة.. وسارت نحو الكلب بضع خطـوات وكأنهـا تلعـب، فاقترب الكلب منها وحاول أن يحك ذبابة أنفها بأنفه، لكنها تراجعـت مرغمة إياه على التقدم إلى الأمام. وأعاد الكـرَّة فكـان رد الذئبـة كالسابق... كانت تجتهد في إبعاده عـن رفيقيـه الآدميـين وعمَّـا باستطاعتهما توفيره له من حماية...

استدار الكلب لحظة وكأن بقيَّةً باقيةً من حكمة لا تزال به، وبقي ينظر إلى الخلف حيث أقعى رفيقاه جنـب الزلاقـة وحيـث وقـف الرجلان يناديانه.. لكن الذئبة عادت إليه تداعبه وحكت أنفها بأنفه، فلم يعد له شاغل عن محاولة الاقتراب منها كما كان يفعل، وعادت هـي إلى لعبة الإقدام والإحجام...

فكر "بيل" بالبندقية، لكنها كانت محـشورة تحـت الـصندوق. وسارع الرجلان يعدّلان من وضع الزلاقة ليستخرجاها من تحتهـا، لكنهما ما كادا يفعلان حتى كانت الذئبة والكلب قد أصبحا على مسافة يستحيل معها أن يضمن الرامي إصابةَ هدفه..

أدرك "وحيد الأذن" خطأه القاتل، لكن بعـد فـوات الأوان. ورآه الرجلان يقفل راجعاً قبل أن يدركا ما بـه. وفجـأة ظهـرت لهمـا مجموعة كبيرة من الذئاب الرمادية الـضامرة، خارجـة مـن بـين الأشجار حيث راحت تعدو، قاطعة على الكلب طريق العـودة. أمـا الذئبة، فقد توقفت فجأة عن دعابتها وانقضت عليه، لكنه تخلص منها بهزة من كتفه. ورأى أن الذئاب قاطعةٌ عليه طريقه، فغير من خطته، وحاول الوصول إلى الزلاقة عبر مسار دائري.. وراحت الذئبة تعدو على بعد خطوة واحدة منه، تتبعها جماعة من الذئاب تزداد عند كـل شجرة عدداً..

ولاحظ "هنري" أن صاحبه يوشك أن يتحرك، فوضع يده علـى منكبه صائحاً:

– إلى أين؟..

تخلص الآخر من يده بحركة عنيفة ومضى وهو يقول:

– دعني وشأني، فلا يُعقل أن أدعها تفترس كلباً آخر من كلابنا!..

قال ذلك واختفى وسط الأدغال حاملاً بندقيته في يده...

كانت خطته واضحة المعالم، فقد كان يعتزم قطع الطريق في نقطة مَّا من الدائرة التي كان الكلب يرسمها بعَدْوِه هارباً من الذئاب. وقد يستطيع، بمساعدة ضوء النهار والبندقية التي بيده، أن يرد الذئاب على أعقابها وينقذ الكلب..

وصاح به صديقه متوسلاً:

– أرجوك يا "بيل"، لا تكن متهورا..!

لكن "بيل" كان قد اختفى عن ناظريه، فجلس مكانه وراح يرقب الغابة الكثيفة.. ولمح مرة أو مرتين، من فرجة خلال الأشجار، "وحيد الأذن" يعدو تتعقبه الذئاب. وبدا جلياً أنْ لا حظَّ للكلب في النجاة. فرغم ما كان يبذله الحيوان المسكين من جهد مُضنٍ، لم يكن له– وهو المليء البطن نسبيا– أن يسبق ذئاباً ضامرة تكاد تجن جوعاً.. كانت النهاية المأساوية على وشك الأزوف... وأدرك "هنري" فجأة أن "بيل" والكلب والذئاب التي في أثره سيصلون جميعاً إلى النقطة نفسها في الوقت ذاته تقريباً.. ومر كل شيء بسرعة كبيرة، أسرع بكثير مما توقع الرجل، إذ سمع صوت طلقة نارية تلتها اثنتان أخريان، فأدرك أن صاحبه أصبح أعزلاً، ثم تعالت أصواتٌ وصرخات ميز بينها صوت "وحيد الأذن" وهو يعوي رعباً وألماً. وطرقت سمعه صرخة ذئب جريح، ثم ساد الصمت إلا من همهمات ودمدمات انخلع لها قلب الرجل خوفاً، إذ كان يعرف ما تعنيه تلك الأصوات الرهيبة...

تسمر لحظات في مكانه لا يبدي حراكاً، ثم قام فجأة مهدداً والفأس في يده. لكنه ما لبث أن عاد فجلس واضعاً رأسه بين كفيه وراح يجتَرُّ هواجسه.

أما الكلبان فأقعيا عند قدميه ويكاد الرعب يقتلهما..

قام آخر الأمر إلى الزلاقة، وربط إليها الكلبين، ثم ربط نفسه إليها، وراح الثلاثة يكدُّون في سحب الحمل الثقيل. على أنه لم يمض وقت طويل حتى بدأ الضياء يخفت، فتوقف "هنري" وأشعل النار، ثم بدأ يجمع ما استطاع من الحطب بعد أن ربط الكلبين جيداً. وأخيراً أعطى رفيقيه حصتهما من الأكل، وطهى بعض الطعام لنفسه، ثم وضع فراشه قرب النار وأغفى..

لكنه لم يستمتع بنوم. فما إن أغمض عينيه حتى جاءت الذئاب تتحلق من حوله...

كانت هذه المرة قريبة لدرجة جعلت منها تهديداً مستمراً للرجل وكلبيه.. ودار بعينيه من حوله، فإذا هي تحيطه من كل جانب.. كان يراها بكل وضوح لأنها لم تعد تقنع بالبقاء مختبئة تحت جنح الظلام لا تظهر منها سوى حدقاتها اللامعة، بل دخلت الهالة المحيطة بالموقد، وبدأت تروح وتجيء.. وتمدَّدَ بعضُها كما تفعل الكلاب، مستمتعاً بالدفء المنبعث من النار، مستسلماً لإغفاءةٍ حُرِمَها الرجلُ المحاصَر...

قضى "هنري" ليلَتهُ في إذكاء النار ليقينه أنها الحاجزُ الوحيد الصالح للوقوف منيعاً دون الأنياب الجائعة ودون لحمه ولحم كلبيه.. أما الكلبان، فقد التصقا به طلباً لحمايته وهما يئنان جزعاً. وتارة تارة، كان أحدها يطلق زمجرةً يائسة تجاه ذئبٍ اقترب أكثر مما ينبغي، فتجيبه الذئاب بصوت واحد بعواء كالعويل مديدٍ ينطق بجوعها الشرس، ثم تعود إلى انتظارها...

لكن الدائرة كانت تضيق باستمرار، والذئاب تتقدم ببطء.. ووصل بعضها إلى مسافة أصبح معها على وشك الانقضاض على الرجل، فلم يجد سوى قطع الحطب المشتعلة يضربها بها، فأصاب بعضها وأوجعه، لكنه لم يفلح في إبعادها في كل مرة إلا هنيهةً تعود بعدها إلى الاقتراب...

قضى ليله على ذلك المنوال، وأصبح وقد أخذ السهر والإعياء منه كل مأخذ.. وأعد طعامه على ضوء النار، فما إن لاح أول خيط من الفجر وفكت الذئاب حصارها عنه مرغمة، حتى قام ينفذ الخطة التي استقر عليها عزمه بعد ليلة من التفكير، فقطع بفأسه بضعةً من أشجار الأرز الصغيرة، وربَط أجذُعَها ببعض، صانعا منها فُرشَةً كالعوامة قام بتثبيتها فوق أغصان شجرتين كبيرتين تقفان متقاربتين، رابطاً إياها بالأحزمة الجلدية التي كانت تشد الكلاب إلى الزلاقة، ثم اجتهد حتى نجح– وهو يتصبب عرقا– في رفع الصندوق الذي به الجثة، ووضعه فوقها. وقال وهو ينتهي من شد آخر حزام جلدي، موجهاً كلامه إلى الرجل المسجى داخل الصندوق:

– لقد التهمت الذئاب صديقي "بيل"، وقد تلتهمني أنا أيضاً.. لكنها لن تجد إلى جسدك سبيلاً أيها الفتى...

انطلق الرجل متابعاً طريقه.. كانت الزلاقة–وقد أزيح عنها الصندوق الثقيل– أخفَّ من ذي قبلُ بكثير، فجرت بها الكلاب مسرعة، يحدوها في العَدْوِ شعورُها بأنها لن تكون في مأمن إلا إذا اجتازت أبواب الحصن. أما الذئاب، فمضت تلاحق الموكب دون كلل، وبجرأة تزيد مع مرور الوقت، فكان الرجل يجدها كلما التفت على خطوات منه، تجري الواحد تلو الآخر. وهاله هزالها المريع وعظامها البارزة وعضلاتها التي دقت حتى أصبحت تبدو من تحت

جلدها أشبه بأسلاك معدنية... ووجد نفسه يستشعر على الرغم منـــه إعجاباً بإصرار تلك الحيوانات الجائعة وتمسكها بالحياة...

توقف "هنري" قبيل هبوط الظلام. كانت الشمس قد سطعت اليوم مشرقة فعمّ ضياؤها الأفق لسويعات، إعلاناً باقتراب فصل الـــدفء، حيث يصبح النهار أطول فأطول. غير أن الحكمة كانت تقتــضي أن يتوقف عن المسير مبكراً كي يستطيع جمع كفايته من الحطب، فأشعل النار وربط الكلبين، ثم قضى ما بقي له من وقت قبل نزول الظـــلام في جمع الحطب حتى اجتمع لديه منه شيء كثير..

عاد الظلام فعاد بعودته الرعب والهلع، وأمست الـــذئاب أكثـــر جسارةً من ذي قبل، فلم يجرؤ الرجل على الاضطجاع، بل بقي جالساً قرب النار، واضعاً الفأس بين فخذيه والغطاء على منكبيه، بينما أقعى الكلبان إلى جواره.. وأخذ النوم منه مأخذه، فجعل يغفو في مجلسه ثم لا يلبث أن ينتبه إلى نفسه فينتفض مرتاعاً... وفتح عينيه مرة فوجـــد ذئباً ضخماً واقفاً يحدق به.. كان الذئب يتمطى متثائباً وهو ينظر إلى الرجل كما ينظر الكلب الأليف إلى عظم يعلم أنه له، وإن لم يدْرِ متى سوف يُرمَى إليه.. والحق أنه لم يكن الوحيد الذي كان يحدج "هنري" بتلك النظرات، فرفاقه جميعها كانت تحذو حذوه. وبدت وكأنها جَمـــعٌ من الأطفال قد تأهبوا للأكل فلم يعودوا ينتظرون سوى إشارة البـــدء به، سوى أن الطبق كان في هذه المرة رجلاً وحيداً جلس بين كلبيـــه يتساءل بدوره متى ستصدر الإشارة المحتومة... وشرع يرمي بعضَ قطعِ الحطب إلى النار لإذكائها، وإذا به يجد نفسه يتأمل يديه بانتبـــاه غير معهود لديه... جعل يفرج ما بين أصابعه ثـــم يعيـــد إطباقهـــا بسرعة، معجباً بهذا الجسد القوي مُتْقَنِ الصنع الطائعِ لــــه المنـــصاعِ لإرادته بكل خضوع ودقة وسرعة... وراعه أن يذكر – وهو يجـــول بناظريه في حلقة الذئاب المحدقة به – أن ذلك الجسد البديع لا يساوي

بنظرها أكثر من وزنه طعاماً، إذ لا يختلف عندها في شـــيء عـــن مئات الأيائل والأرانب البرية التي استمدت من لحمها غِذاءها حتـــى اليوم...

غفا برهة ثم انتبه ليجد الذئبة جالسة على مترين منه تُحَدِّق فيـــه بعينين ساهمتين... كان الكلبان يزمجران مرة ويئنان أخـــرى عنـــد قدمي الرجل؛ أما هي، فلم تأبه بهما، بل بقيت مثبتة ناظريها عليه... ووجد نفسه للَحظة يتأمل النظرة الغريبة التي كانت تنطق بها عيناها.. كانت نظرة تَحملُ رغبة محمومة لم يخطئ الرجل تفسيرها... كانت مقلتاها اللامعتان تنطقان بالجوع الذي يعضها.. لم تكن تـــرى فـــي الإنسان الجالس وكلبيه أمامها أكثر من طبق شهي قد يكون وقته لـــم يحنْ بعد، لكنَّ مجردَ النظر إليه كان يُسيل لعابَها فتلعقُـــه فـــي تلـــذذٍ واضحٍ جُنَّ له جنون الرجل واجتاحته موجةُ رعبٍ مفاجئة، فمد يـــده يلتقط قطعة حطب مشتعلة ليرميها بها؛ لكنه ما كادَ يضع يـــده علـــى طرف الغصن حتى نطت الذئبة جانباً واختفت عن ناظريـــه، مطلقـــة زمجرة غاضبة اهتز لها قلب الرجل واقشعر منه الجسد...

عادت عيناه لتحُطَّا على اليد الموضوعة فوق قطعـــة الخـــشب الملتهبة، فراح يتأمل أصابعه وينظر إلى إبهامه التي لم تحتمل حيـــث هي الحرارةَ المفرطة فانزلقت إلى الخلف بحركة عكسية بحثـــاً عـــن موضعٍ أقلَّ سخونة... وفكر بأن تلك الإصبع التي تكاد تتمتع بالذكاء قد تصبح عما قليل مضغة في فم أحد هذه الوحوش.. وأحس أنه لـــم يحب قط جسده كما أحبه في تلك اللحظة، إذ دَقَّت حظوظُه في النجاة حتى كادت تنعدم...

قضى "هنري" ليلته بين حربٍ ســـلاحُها الأغـــصانُ المـــشتعلة، وإغفاءاتٍ قصيرة تعْمُرُها الكوابيس وتقطَعُها عليه الزمجراتُ التـــي تطلقها الكِلاب المرتعبة كلما اقترب منها أحد الذئاب...

وطلع الضوء أخيراً، لكن الذئاب لم تبارح مكانها هذه المرة، بل بقيت محدقةً بالرجل وكلبيه.. وانتظر "هنري" ذهابها طويلاً، لكنها لزمت مكانها متحلقة حوله، تنظر إليه نظرة المالك إلى ملكه.. وهز ذلك اليقينُ الهادئ أعصابَ الرجل الذي كان ينتظر من الصباح مُتَنَفَّساً.. وحاول أن يبرح مكانه، فما كاد يهم بذلك حتى انقض عليه أحد الذئاب، فما أنجاه منه إلا أن تراجع مسرعاً، لتنطبق فكاً الوحش على الهواء، على بعد شبر واحد من فخذه.. أما باقي الذئاب فوقفت متأهبة للانقضاض، وكادت تفعل لولا أن أمطرَها الرجلُ بوابلٍ من القذائف النارية..

لم يستطع "هنري" الابتعادَ عن النار ليأتيَ بالمزيد من الحطب. وكانت هناك شجرةُ أرزٍ ميتةٌ تقف على بعد عشرة أمتار منه، فصَرَفَ سحابةَ نهاره في محاولة الاقتراب منها شيئاً فشيئاً، زاحفاً بموقده، حريصاً على البقاء وكلبيه جنب النار طيلة الزحف الوئيد.. وبلغ جذعَ الشجرة فراح يدرس محيطَها المباشرَ كي يُسقطها في اتجاه يسمح له بالوصول إلى غيرها حين نفاد ذخيرته من خشبها.

وحل الظلام، فقضى الرجل ليلةً كسابقتها، لا تختلف عنها سوى في كون الحاجة إلى النوم قد أصبحت أكثر إلحاحاً.. وفقدت زمجراتُ الكلبين ما كان لها من مفعولٍ منبه، فقد أضحيا يزمجران بلا انقطاع، في حين بلغ منه هو التعب مبلغاً لم يعد معه قادراً على تمييز ما قد يتخلل نبرتَهما من تغييرٍ منذرٍ بدُنُوِّ الخطر... وفتح عينيه فجأة ليجدَ الذئبةَ واقفةً على أقلَّ من متر واحد منه، وهي تحملق فيه بعينيها ذاتِ النظرة الغريبة والمخيفة في آن.. وأطبق "هنري" يده على قطعة حطبٍ مشتعلة، فحشا طرفَها المتأجج في فم الحيوان المُفْغَر..

نطت الذئبة إلى الخلف متراجعةً وهي تعوي. واستشعر الرجل نشوةً كنشوة النصر وهو يستنشق رائحةَ فرو الحيوان وجلده

المحترقَين.. وشاهَدَ الذئبةَ وهي تواصل تراجعها نافضةً رأسَها في غيظ وألم، فأحس لذلك بما يشبه لذةَ الانتقام. ثم ربط إلى يده قطعة حطبٍ مشتعلة قبل أن يستسلم لغفوة. وما هي إلا لحظات حتى لسعته ألسنة اللهب، فانتبه من نومه واستبدل بها أخرى. واستمر على ذلك المنوال حتى غلبه الإعياء، فنام دون أن يُحسن ربْطَ الغصن إلى يده، فسقط الغصنُ وراح الرجلُ في سباتٍ عميق.. ورأى نفسه في ما يشبه الحلم جالساً في قاعة الاستقبال في حصن "ماك كوري" يلعب الورق قرب المدفأة مع صاحب البريد.. كانت الذئاب تحاصر الحصن والرجلان يسمعان صوت عوائها من وراء الأسوار. ومن حين لآخر كانا يتوقفان عن اللعب كي يصيخا السمع، هازئَين من محاولاتها العقيمة اقتحامَ الحصن المنيع.. لكن الحلم لم يلبث أن بدأ يكتسي غرابةً متزايدة، فعَلا صوتُ قرقعة وضجة صاخبة، وبدا وكأن الذئاب قد اقتحمت المكان.. ورآها الرجلان فجأة وقد دخلت بالفعل باحة الحصن، ثم اتجهت صوبهما وهي تطلق عواءً مخيفاً.. عواءً أصبح أكثر وضوحاً وقُرباً.. ما هذا؟.. إن الحلم يستحيل حقيقة.. حقيقةً مخيفةً مرعبة...

كانت الذئاب تحيط "بهنري" من كل جانب، هادرة مزمجرة.. وانطبقت فكّا أحدها على عضد الرجل، فتخلص منه وقفز بدافع الغريزة إلى وسط الموقد المشتعل. وانغرزت أنيابُ وحشٍ في ساقه، وبدأت المعركة، معركةٌ سلاحُها قِطَعُ الخشب المشتعلةُ التي كان الرجل يحملها بيديه كالحجارة، غيرَ عابئ بسخونتها، ويرمي بها في كل الاتجاهات، حتى بدا الموقد بركاناً يقذف حمَماً.. ولم يكن من الممكن استمرار الحال طويلاً على هذا المنوال، إذ سرعان ما اضطرت الحرارةُ الرجلَ إلى القفز خارج الموقد، فقفز وهو يحمل غصناً مشتعلاً في يده. وبدا مخيفاً بشعر رأسه المحترق وحاجبيه

وأشفاره المتفحمة.. وكانت الذئاب قد تراجعت بعض الشيء، فاغتنمها فرصة ليطفئ النار المشتعلة في قفازيه بتمريغهما في الثلج. ودار بعينيه باحثاً عن الكلبين فلم يجد لهما أثراً، فأدرك أنهما قد لحقا برفاقهما وبصاحبه، أطباقاً متتالية قد يكون هو آخرها.. وصاح بالذئاب وهو يلوح بقبضته مهدداً:

– ما زلتُ لم أنهزم بعد أيتها الوحوش الضارية..!

فماجت الذئاب لصوته وهمهم بعضها مزمجراً. وانفصلت الذئبة فجأة عن باقي القطيع واقتربت من الرجل وأقعت على خطوات منه وراحت تحدجه بنظراتها الغريبة التي يختلط فيها الجوع النهم بما يشبه الاستسلام الحزين..

قرَّ عزمُ "هنري" على خطة جديدة، فرَسَمَ حول موقده دائرةً من قطع الحطب المشتعلة، ووضع فراشه فوق الزلاقة ليقيَه ماءَ الثلج الذائب، ثم جلس القرفصاء فوقه. وعادت الذئاب حين أكمل الرجل رسم دائرته، فتحلقت حول النار– النار التي كانت حتى اليوم مخيفة بنظرها محرمة عليها، فإذا بها تجد لها دفئاً لذيذاً لم تعهده– فأقعى بعضها وتمدد بعضها، متمطياً في استمتاع ظاهر. واتخذت الذئبة مكاناً وسطاً بين رفاقها ثم وجهت بصرها صوب نجم غير مرئي ورفعت عقيرتها بعواءٍ طويل ما لبثت الذئاب الأخرى أن ضمت أصواتها إليه، فما هي إلا لحظة حتى ضج المكان بالصراخ والعويل..

حل الفجر ثم الصباح، وراح مخزون الحطب ينفد، فلم يجد الرجل بداً من محاولة الخروج من دائرته النارية التي انطفأت قرابة نصف قناديلها الخشبية. غير أنه ما كاد يفعل حتى انقضت عليه الذئاب، فعاد أدراجه مسرعاً وهو يدفعها عن نفسه بالأغصان المشتعلة التي أفلحت في إيقافها وإن لم تجعلها تتراجع. وانقض داخل

الدائرة ذئبٌ متهور أخطأ الرجلَ وأنهى قفزته وسط الموقـد، فـشرع يعوي ألما وهو يتلوى ويتمرغ على الثلج ليطفئ النار المتقـدة فـي فروه. وعاد "هنري" إلى مكانه فجلس على فراشه وقد خـارت قُـواه وبدأ اليأس يدب إلى نفـسه.. وبـدا– بجـسمه المـنكمش وكتفيـه المتهدلتين–على وشك الاستسلام. وراح يرفع رأسه من حين لآخـر، فَيُجيل عينيه في حصنه الناري المتداعي ثم يغمضهما. وأخيرا قـال باستسلام:

– أحسبها النهايةَ أيتها الوحوش. فافعلي ما بدا لـك؛ أمـا أنـا، فسأخلد إلى النوم...

قال ذلك ثم راح في سبات عميق. ورأى– قبل أن يُغـرِق فـي نومه– الذئبةَ جالسةً أمامه تنظر إليه من خلال إحدى فتحات حـصنه الناري المهترئ...

نام "هنري" زمناً لم يدرِ مقداره، فلما أفاق كان أولُ ما اسـترعى انتباهه أن ثمة تغييراً قد حدث... تغييرٌ هو من الأهمية بحيث عـاد إلى الرجل في لحظةٍ وعيُه بمكانه وموقفه..

لكن، ما الذي تغير؟..

جال بناظريه حوله، وفجأة أدرك ما حدث.. لقد ذهبت الـذئاب.. أجل، ذهبت جميعها ولم يبق منها سوى آثارٍ على الثلج تشهد علـى ضيق الحصار الذي كانت تضربه من حوله..

عادت رأس "هنري" لتسقط على ركبتيـه، وكـاد يعـود إلـى الاستغراق في نومه اللامبالي لولا أن اجتذبته جلبـةٌ أعادتـه إلـى اليقظة.. كانت هناك أصوات آدميين.. ووصل إلى سـمعه صـوت انزلاقِ وأصواتُ لهاث كلابٍ وقرقعةٌ مألوفة، فرفع رأسه ليرى أربع زلاقاتٍ تغادر المجرى المتجمدَ لتتجه صوبه. وأغفى من جديد حتـى

أيقظته يدٌ راحت تهز كتفه بعنف، فرفع رأسه ثانية ليجد نفسه محاطاً بستة رجال راحوا يهزونه ليعيدونه إلى وعيه، فجال بينهم بعينين غائبتين، وغمغم بصوت يكاد لا يُفهم:

– الذئبة الحمراء.. لقد جاءت فاندست بين الكلاب وقت الأكل... بدأَتْ بمشاطرتها أكلها، ثم افترسَتْها واحداً واحداً، وفي الختام التهمَتْ "بيل"...

فجاءه صوت رجل يصرخ في أذنه سائلاً وهو يهزه بعنف:

– أين "لورد ألفريد"؟

فقال وهو يهز رأسه بالنفي، مجيباً عن سؤال لم يُسأله:

– لا.. لم تأكله الذئاب.. لقد علّقتُه على جذع شجرة عند آخر مكان توقفتُ به...

– هل هو ميت؟

– أجل، ومسجى في صندوق...

قال ذلك ثم خلّص نفسه بعنف من اليد الممسكة به وهو يضيف:

– والآن دعوني وشأني، فأنا أريد أن أنام.. أسعدتم مساءً .!

ثم انقلبت مقلتاه وسقطت ذقنه على صدره، وتعالى غطيطه حتى قبل أن ينتهي رفاقه الجدد من وضع جسده المنهك على فراش جاف...

تعالى في البعيد صوت آخر.. صوت قطيع الذئاب الجائعة وهي تنطلق باحثة عن طريدة جديدة تعوضها عن الطريدة الآدمية التي استطاعت النجاة من أنيابها بمعجزة...

الفصل الرابع

صراع الأنياب

كانت الذئبة أولَ مَن سمع أصوات القافلة القادمة على الطريق، ففرت لا تلوي على شيء، تاركة وراءهـا الرجـل المحتمـي وراء حصنه الناري؛ أما الذئاب الأخرى فبقيت في مكانها، متـرددة فـي التخلي عن طريدة وقعت أخيراً بين أنيابها أو كادت.. على أنها مـا لبثت، لدى اقترابِ الركب وتَعَرُّفِها أصواتَ الإنـسان وروائحَـه، أن غادرت المكان...

كان على رأس القطيع ذكر رمادي ضخم، هو الذي سار في أثر الذئبة، تتبعه باقي الذكور. وكان من تارة لأخرى يكشر مشفره كاشفاً عن نواجذه، محذراً صغار السن التي قد يغريهـا طيـشها بمحاولـة سبقه، غير متردد في كيل عضة مؤلمة لمن تجرَّأ منها على ذلك..

ولاحت الذئبة وهي تعدو أمامه فوق الثلج الرخـو، فـزاد مـن سرعته ليلحق بها. وأدركها فاقتربت منه وراحت تركض إزاءه كمـا لو أن ذاك كان مكانَها الطبيعي، وسار الاثنان جنباً إلى جنـب علـى رأس القطيع.. وكانت في عدوها تسبق رفيقها فلا يُبدي الذئبُ أدنـى رغبة في زجرها كما كان يفعل مع الذكور، بل بدا على العكس مـن ذلك متسامحاً تجاهها، راغباً في التقرب منها، ملحفاً في تقربه إلحافاً اضطرها أكثر من مرة إلى زجره بزمجرةٍ غاضبة أو عـضة فـي كتفه، فكان لا يبدي من ذلك تذمراً، بل يقفز جانباً، ثم يعود من جديد إلى محاولاته العقيمة. على أنه لم يكن يعاني– عدا ذلك– من مشاكل في قيادة قطيعه، عكس الذئبة التي كانت تواجه متاعب من نوع آخر.

فعلى يمينها كان يعدو ذكرٌ عجوز حائلُ اللون ضامرُ البدن تكسو جلده آثارٌ تشهد على ما خاض في ماضيه من معارك شرسة.. كانت عينه اليمنى غائرةً قد ذهبت بها إحدى تلك المعارك، وهو ما جعله يتخذ مكاناً عن يمين الذئبة، حيث راح يعدو محاولاً بين الفينة والأخرى لمس كتفها أو عنقها بأنفه، فكانت تصده كما كانت تصد منافسه الراكض إلى شمالها، مهددة إياه بأنيابها. لكن كان يحدث أن يأتيها الاثنان في وقتٍ واحد معاً، فلا تجد مناصاً من توزيع العضات ذات اليمين وذات اليسار، كل ذلك وهي تعدو ولا تني تراقب الطريق أمامها. أما الذئبان المتنافسان، فكانا يتبادلان التكشيرات والزمجرات المهددة. ولولا الجوع الذي لما ترددا في خوض معركة فاصلة، لكن غريزة حب البقاء كانت أقوى مما عداها من غرائز، والبحثُ عن الغذاء سابقاً على كل ما عداه...

كان العجوز– كلما صدته الذئبة ارتد عنها إلى اليمين– يصدم ذئباً من الذئاب الشابة كان يعدو على خطوة منه، راغباً بدوره في دخول المنافسة، تحدوه في ذلك دماء الشباب التي كانت سنواته الثلاث تضخها حارةً في عروقه، ويعقله عن الإصرار في طلبه خوفُه من نقمة جاره العجوز المحنك. فكان لا يتقدم عليه، حتى لا يستجلبَ نقمتَه. فإذا وقع ذلك– وقلّما يقع– فإن تكشيرة واحدة من الأعور كانت تكفي لتجعلَه يسارعُ بالعودة إلى مكانه صاغراً. غير أنه كان من تارة لأخرى يفلح في التغلب على خوفه، فيتخلف عن العجوز خطوة أو خطوتين، ثم يحاول الاندساس بينه وبين الذئبة، ساعياً إلى لمسها بأنفه، فكان عندها يلقى خطراً مزدوجاً، بل ثلاثياً ؛ إذ إن الأنثى كانت تستدير، ويستدير معها رفيقاها الآخران، فيعاجله كل من الثلاثة بعضة موجعة تجعله يُقعي مكانه صارخاً وقد انتفش شعر فروته ألماً وخوفاً. وكان ذلك التوقف يثير بلبلة في الصف بأكمله، فتقع الذئابُ المتعثرة في الفتى المشاكس عضاً يزيد من عنفه توترُ اعصابها بفعل

الجوع والتعب. غير أن ذلك ما كان ليثنيَ العاشقَ الشاب سوى لحظاتٍ قليلةٍ يعود بعدها إلى محاولة جديدة لا يناله منها إلا شديد العضّ...

كانت الذئاب تعاني من نقص حاد في الغذاء لولاه لكان الحب والحرب قد فعلا فعلهما في القطيع ففرقاه. لكن الجوع والضعف جمعاه، فراحت الوحوش تعدو وقد سار الأقوياء منها أماماً وزحف خلفهم الضعاف من صغار وعجائز. غير أنها جميعها – باستثناء العرجاء منها – كانت تركض دون توقف ودون مجهود ظاهر.. كانت عضلاتها تنقبض وترتخي بحركة آلية، وكأنها تستمد طاقتها من معين لا ينضب...

استمرت الوحوش في الجري المتواصل طيلة الليلة والنهار التاليين، قاطعة في عدْوِها عدداً من الفراسخ لا حصر له، مخترقة عالماً متجمداً لا حياة فيه عدا حياتها هي التي راحت تبحث، بدأب لا يعرف التعب، عن طريدة تتيح لها إطالةَ أمَدِها...

توالت السهولُ جرداءَ مقفرة، وقطعت الذئاب مجرى جداولٍ متجمدة لا تعد ولا تحصى، قبل أن تعثر بقطيع من الأيائل كان أولُ ما أبصرته منه ذكراً بالغاً ضخم الجثة، فانقضت من غير تردد على هذا اللحم الطري الذي لم تكن تقف دونه نيرانٌ ولا أعوادُ حطبٍ مشتعلة...

كانت المعركة غير متكافئة، فانتهت سريعا كما بدأت. فقد أُحيطَ بالوعل المسكين من كل جانب.. وضَرَب بقرنيه، فشقَّ رأسا هنا وبَقَرَ بطنا هناك، لكنه سرعان ما سقط وفكا الذئبة منطبقتان على وريديه، وعشرات الأنياب منغرزة في كل مكان من جسده. وكف عن المقاومة فتم التهامه ولَمَّا يُسلِمِ الروح..

كان الوعل ضخم الجسمِ يقارب وزنُه أربعةَ قناطير، مما جعل حصة كل من الذئاب الأربعين نحواً من عشر كيلو غرامات من

اللحم، كان فيها ما يكفي بل ويزيد، لولا الصومُ الطويل الذي عانته الذئاب. فالذئاب تتحمل الجوع الطويل، لكنها تبتلع كميات مذهلةً من الطعامِ متى وَجَدَت، فما هي إلا دقائق حتى لم يبق من الوَعل سوى بضعةِ عظامٍ متناثرة..

امتلأت البطون، فأخلدت الذئاب إلى الراحة والنوم. أما صغار الذكور، فما إن ملأَت معدتَها طعاماً حتى شرعت في العراك.. ودام الحال على هذا المنوال طوال الأيام التي سبقت تفَرُّق القطيع. وأصبحت الذئاب بمأمن من الجوع بدخولها تلك المنطقة الغنية بالأيائل، فعادت إلى حذرها الطبيعي، وأصبحت لا تهاجِم من بين طرائدها سوى الضعافَ منها من إناثٍ وعجائزَ ومرضى..

وجاء يومٌ انشق فيه القطيع قسمينِ اتخذ كلٌ منهما سبيلاً، فسارت الذئبة يحيط بها عشاقها الثلاثة– الزعيم والأعور والفتى المتهور– على رأس أحدهما شرقاً، باتجاه نهر "ماكنزي" ومنطقة البحيرات، بينما سار الآخر جنوباً، نحو أعالي جبال "روكي" الشمالية.

كان القطيع يتناقص عَدَدًا يوماً بعد آخر، حيث كانت الذئاب تفارقه أزواجاً من ذكر وأنثى، أو منفردة حين كان الأمر يتعلق بمنافسٍ مقهور يرغمه على الابتعاد غريمٌ أقوى منه شكيمةً وأشد مراساً. واستمر الأمر على هذا النحو حتى لم يبق في النهاية سوى الذئبة وعشاقها الثلاثة. وكان مزاج الأنثى يسوء كل يوم عن سابقه، فظهرت آثار عضاتها المتتالية واضحة على ظهور رفاقها الثلاثة وأعناقهم، دون أن تُبدي الذكور أدنى تبرمٍ من صدها العنيف، بل كانت تبدو كالراضية عن ذلك، إذ كلما تلقّى أحدُها عضةً على إثر محاولةِ تَقَرُّبٍ فاشلة، إلا ورأيته يكتفي بالتهرب متحاشياً الرد– بل وحتى الدفاع عن نفسه– ثم لا يلبث أن يعود وهو يخطو خطوات أشبه ما تكون برقصة الغزال..

على أن علاقات الذكور ببعضها لم تكن مطبوعة بالتسامح الذي كان يتحلى به كل منها تجاه الأنثى. بل إن الذئب ذا السنوات الثلاث أبدى عن جرأة غير منتظرة حين انتهز فرصةً سنحت، فانقض على منافسه الأعور منشباً أنيابه في الأذن التي تلي العين الغائرة، ممزقاً إياها..

كان الذئب الأعور عجوزاً لا حظَّ له من قوة خصمه وعنفوانه ولا من لين مفاصله. لكنه كان يملك سلاحاً آخر، يتمثل في حنكة وتجربة طويلة، تشهد له بها عينه الغائرة وجسُده المكسوُّ بالندوب... بدت المعركة متكافئة، ولم يكن من السهل التنبؤ بالفائز فيها لولا أن الذكر الثالث، بعد أن وقف لحظة يتفرج، قرر فجأة دخول المعركة إلى جانب الأعور. ووجد الذئب الفتى الخالي من التجربة نفسه مهاجَمًا من الجانبين في آن.. انتهت أيامُ الزمالة وعمليات القنص المشتركة.. تُنوسي ذلك كله لأن نداء الحب- متى كان البطن مليئاً- أقوى وأشدُّ شراسةً من نداء الجوع حالَ المسغبة. ولئن تخلت الذئاب الجائعة قبل أيامٍ مرغَمةً عن الرجل المحتمي وراء سياجِ النار، فإن ذئباً مليءَ البطن لا يتخلى عن مغامرة غرامية وفيه قدرةٌ على القتال.

أما الذئبة سبب الخصام فاقتعدت مكاناً تشرف منه على ميدان المعركة، وراحت ترقب ما يجري باستمتاع واضح.. كان هذا أحدَ أيامِ مجدها القلائل التي يُكَشِّرُ فيها عن الأنياب طمعاً في رضاها وتُقَطَّعُ في طلب وِصالها..

كانت تلك أولَ مغامرة غرامية يخوضها الذئبُ الفتى، لكنها كانت الأخيرةَ أيضاً، إذ سرعان ما تعاوَرَته أنيابُ خصميه، فسقط صريعا بعد ثوانٍ معدودات... واستدار الرفيقان ينظران صوب الأنثى التي بدت- بمشفريها المنفرجين عن نواجذها اللامعة- وكأنها تبتسم..

وفجأة، انتهز الأعورُ فرصةَ انشغال رفيقه بلعق جراحه موليّاً إياه عنقه، فانقض عليه، وأنشب أنيابه في اللحم الطري، فقطعت الأنيابُ الحادة الوريدين وأحدثت ثقباً واسعاً في القصبة الهوائية...

ندت عن الجريح حشرجةٌ رهيبة سرعان ما انقلبت سعالاً مختنقاً. واندفع والدماءُ تنزف منه غزيرةً يهاجم خصمَه، فما زاد على أن لطخه بدمه، ثم سقط صريعاً وأسلم الروح..

أما الذئبة فكانت لا تزال مقعية بمكانها، تعلو سحنتَها الابتسامةُ الغريبة ذاتها.. كان استمتاعها بالمعركة جارفاً وطبيعياً في الوقت ذاته؛ فمسائل الحب– كغيرها من الأمور في تلك الأصقاع الباردة– لا تجد لها حلاً إلاّ مكتوباً بحروف من دمّ.. أما المأساة، فمأساة الذين يموتون، إذ لا يتعلق الأمر لدى الأحياء بمأساة، بل بانتصار وتجدُّد...

استدار الأعور– ولْنَدْعُهُ من الآن "وحيد العين"– نحو الأنثى بعد أن هَمَدَ اختلاجُ ضحيته الثانية، واتجه صوبها بفخر واعتزاز يشوبهما بعض الحذر، إذ لم يكن يَستبعد أن يلقى صدوداً. لكن الذئبة لدهشته لم تبد أدنى رغبة في صده حين أصبح قربها، بل حكت أنفها بأنفه، وراحت تنط جذلة إلى جانبه، فبدأ– وهو الحيوان العجوز– يقفز بمرح وخفة، وكأن الشباب عاد فجأة ليندَفِقَ في شرايينه المتصلبة...

امّحت ذكرى الخصمين ضحيتي الحب الشرس، فلم يعد يبدو على "وحيد العين" ما يدل على أنه يذكرهما، اللهم إلاَّ ما كان منه حين توقف مرة يلعق جرحاً في كتفه، وإذا بقشعريرة تسري على طول فقراته، من العنق حتى طرف الذيل، فينتفش لها شعر فروته، وترتد الأذنان إلى الخلف، وتخدش الأظافرُ صفحةَ الثلج بعصبية، وكأنه يتأهب للانقضاض. على أنه سرعان ما عاد إلى استرخائه وركضه بين الأشجار حذاء الذئبة التي شاركته– وإن دون كبير حماس– لهوه ومرحه..

انطلق الزوجان الجديدان يعدوان معاً ويقنصان فيقتسمان ما اقتنصا.. ومضت فترة، ثم بدأت تظهر على الذئبة أعراضُ توترٍ من

نوع جديد، فبدت وكأنها تبحث عن شيء لا تجده.. أصبحت الحفر والمغارات تحت جذوع الأشجار وخلف الصخور الضخمة تسترعي انتباهها، فتحشر أنفها فيها متشممة متحسسة.. أما "وحيد العين"، فلم يكن يُبدي اهتماماً بما كانت تبحث عنه صاحبته ولا تبرّماً من بحثها الدائب، بل كان يتبعها حيث سارت، فإذا أطالت في استكشاف كهف أو مغارة، رأيتَه يستلقي أرضاً ويروح في غفوةٍ بانتظار أن تُقَرِّر أنثاهَ استئناف السير..

قطع الزوجان الأرض لا يطيلان التوقف بموضع حتى بلغا نهر "ماكنزي" فسارا على ضفته، منحرفين عنها بين الفينة والأخرى للقنص على ضفاف روافده. والتقيا في طريقهما ذئاباً أخرى، فرادى وزرافات، فتجاهل كل من الفريقين صاحبه وسار لحال سبيله. فالذئاب لا يجمعها قطعاناً سوى الجوع، فإذا توافر الغذاء عادت إلى طبيعتها المنعزلة. وربما حاول ذئبٌ وحيد التقرب من الذئبة، لكنها ورفيقها كانا يقفان جنباً إلى جنب، مكشرين عن نواجذهما، جبهةً واحدةً لا يملك الدخيل سوى أن يولي أمامها الأدبار، قانعاً من المغامرة بالسلامة..

وذات ليلة، بينما هما يلعبان جذلين، إذ "بوحيد العين" يتوقف فجأة وقد انتصبت أذناه وتَقَبَّضَت عضلات ظهره، رافعةً ذيله إلى أعلى، فتوقفت الذئبة بدورها وراحت تنظر إلى رفيقها الذي كان يتشمم الهواء وكأنه يحاول استقراء الرائحة التي أتاه بها..

تعرّفت الذئبة الرائحةَ الغريبةَ بمجرد ما داعبت خياشيمها، وحاولت إفهام رفيقها، لكنه بقي على حذره، فتركته مكانه وابتعدت نحو أكمة قريبة وهي تلتفت صوبه المرة تلو الأخرى وكأنها تدعوه للحاق بها. ومضت دقائق قبل أن يفارق الذئبَ حذرُه فيقرر أخيراً الصعود بدوره فوق الأكمة. هناك زحفت الذئبة باحتراس حتى القمة، يتبعها "وحيد العين"، وراح الاثنان ينظران خلال فرجة بين الأشجار إلى المخيم المنتصب أمامهما..

كان المكان يضج بصياح كلاب تتعارك، تتخلله أصواتٌ آدمية بعضُها غليظٌ أجش وبعضها دقيق كالصفير. ورنت وسط الجلبة صرخة طفل يجأر بالشكوى..

طفق الذئبان يتأملان الخيام الجلدية التي تضيئها بين الفينة والفينة ألسنةُ نار مشتعلة كانت بعض الأشباح تروح وتجيء أمامها. ودهم خياشيمهما مزيجُ الروائح المنبعثة من المخيم، فأنكرها "وحيد العين" في حين ميزت الذئبة كُلاً منها وتعرفت مصدرها. كانت بادية التوتر، وراحت تتشمم الهواء بنهم. وأبدى رفيقها الخائف رغبته في الرحيل، فشرعت تدور برأسها نحوه من حين لآخر، فتمسح أنفها بعنقه، ثم تعود بناظريها ناحية المخيم.. كانت عيناها تنطقان برغبة لا علاقة لها بالجوع ولا بالحب.. كانت تستشعر إحساساً غريباً يدْعوها بقوة إلى أن تقترب من النار فتُشاركَ الكلابَ عراكَها متفاديةً-مثلها- أرجلَ الآدميين...

لكن "وحيد العين" لم يكُفَّ عن إبداء اضطرابه بإلحاحٍ جَعَلَ الذئبة تذكر ما كانت تبحث عنه منذ زمن، فغادرت مكانها وتبعت رفيقها الذي راح يعدو أمامها جذلاً...

وبينما هما يركضان منزلقين فوق الثلج كالأشباح الصامتة، وَقَعَا بسبيلٍ مطروق، فسرعان ما أحنيا أنفيهما إلى الأرض وراحا يتشممان الجليدَ، فقد كانت على الطريق آثار أقدام آدمية حديثة لا تزال تبدو واضحة فوق الصفحة البيضاء الناعمة..

تقدم "وحيد العين" إلى الأمام وسار حذراً تتبعه الذئبة، ومضى الاثنان يعدوان، تساعدهما في عدوهما الصامت الأخفافُ الصغيرة التي زودت الطبيعة بها قوائمهما مما يلي المخالب. وفجأة نطَّ شيء صغير أبيض أمامهما، فانقض عليه الذئب بدافع من الغريزة. غير أن الطريدة قفزت بغتة إلى أعلى، وطفقت تتراقص في الفضاء تحت

إحدى أشجار الأرز الشابة التي كانت تحوط الطريق من جانبيه، فارتبك الذئب وانبطح أرضاً وهو يزمجر. أما الذئبة، فوقفت برهة تنظر إلى الأرنب المعلق بين السماء والأرض، ثم اندفعت تقفز في الهواء محاولة الإمساك بها. لكن قفزتها لم تكن بالعلو المطلوب، فانطبقت فكاها على بعضهما كفكّيْ كمّاشة معدنية. ورأى الذئب ما فَعَلَته فحذا حذوها وأفلح في الإمساك بالأرنب، لكنه- وهو يعود إلى الأرض والفريسة بين أسنانه- رأى شجرة الأرز تنحني فوقه، فأفلت الأرنب ليدفع عن نفسه هذا الخطر المباغت، وإذا بالشجرة تعود فتنتصب كما كانت، تاركة إياه مكشراً عن نواجذه وقد انتفش فروُه وتوتَّرَ جسدُه. ولم يعجب تصرفُه ذاك رفيقتَه التي عاجلته بعضة في كتفه لم يملك الذئب المَغيظُ نفسه عن ردها بأخرى ما لبث أن ندم عليها أشد الندم، إذ استشاطت الأنثى غضباً وبدأت تكيل له العضة تلو الأخرى وهو لا يملك أن يحمي منها نفسه إلا بإيلائها كفله وكتفيه، حتى إذا هدأت ثائرتُها أقعت على الثلج لاهثة. أما "وحيد العين" الذي كان الساعة خائفاً منها أكثر من خوفه من الفريسة الغريبة المتراقصة في الفضاء، فإنه عاد يحاول الإمساك بالأرنب. وأفلح في محاولته الثانية، لكن الشجرة عادت تنحني فوقه بينما هو يسقط أرضاً والفريسة في فمه. غير أنه في هذه الكرة لم يفلت الأرنب، بل ظل ممسكا به، منتظراً ما سيحدث. وشد عضلاته ترقباً للصدمة، لكن الشجرة اكتفت بأن ظلت منحنية فوقه، لا تتحرك إلا إذا تحرك هو؛ أما إن ظل ساكناً، فإنها كانت تبقى مكانها لا تبدي حراكاً... واقتنع الذئب بأن الأسلم له أن يظل بلا حراك، فبقي حيث هو، ممسكاً بضحيته، متلذذاً- على خوفه- بدمها الذي بدأ يتدفق في حلقومه حاراً نابضاً بالحياة.. وجاءت الذئبة ففرجت غمّته، إذ أمسكت برأس الأرنب وبدأت تقضمه بهدوء. وما لبثت الشجرة أن عادت فانتصبت مكانها كما كانت، أمام دهشة "وحيد العين" واستغرابه..

التهم الاثنان تلك الفريسة التي أمسكتها لهما الشجرة، فكان ذلك درساً للذئب العجوز في كيفية استخلاص الطرائد من الفخاخ التي كانت تلك المنطقة المأهولة تعج بها. وهو درسٌ كان الأولَ من سلسلة طويلة، سينتزع الذئبان خلالها عشرات الفرائس من مصائدها، فيكتسب "وحيد العين" بذلك خبرةً سوف يحتاجها فيما بعد..

الفصل الخامس

الجحـــر

بقي الذئبان أسبوعاً كاملاً في محيط مخيم الهنود، يفترسان مـــا تمسكه المصائد من طرائد. وكان "وحيدُ العين" فريسةً للقلـــق، غيـــرَ مطمئنٍّ إلى العيش في جوار الآدميين، لكن رفيقتـــه كانـــت تتمـــسك بالبقاء هناك، إلى أن كان يومٌ انطلقت فيه رصاصةٌ أصـــابت جـــذعَ شجرةٍ على شبر واحد من رأس الذئب، ففر الاثنان لا يلويـــان علـــى شيء، ولم يتوقفا حتى أصبحا أبعد ما استطاعا عن مصدر الخطر..

دام مسير الذئبين يومين آخرين. وأصبحت الأنثى أكثر حاجة إلى مغارة، فقد كبرت بطنها واندلحت حتى أصبحت تعوقها عن الجري؛ وقد جرت مرة في أثر أرنب بري، ما كانت في العادة تجـــد أدنـــى صعوبة في الإمساك به، لكنها اضطرت إلى التوقف لاهثة، وانبطحت أرضاً لتسترجع أنفاسها المتقطعة. واقترب منها "وحيد العين" يحـــك لأنفه بكفلها مواسياً، غير أنها عاجلته بعضة في كتفه، فتراجع عنهـــا متألماً.. كانت الذئبة تسوء معشراً يوما بعد يوم، لكن ذلك لم يكن يزيد رفيقها إلا تقرباً منها وتحبباً إليها...

وأخيرا وجدَتْ بُغيَتَها في مغارة تطل على مجرى جُدولٍ صغير ينساب من هناك خلال الفصل الدافئ ليرتمي في نهر "ماكنزي"، لـــم يكن وقتها سوى خيط أبيض من الماء الميت المتجمد من سطحه إلى قاعه ومن منبعه حتى مصبه.. كانت المغارة تقع على حافة منحـــدر نحتت الريح والماء جوانبه، فلم تترك إلا طريقاً رفيعاً ينتهـــي إلـــى

مدخلها الضيق كالشريط، فزحفت الذئبة حتى فتحة المدخل وراحت تراقب داخل المغارة باهتمام، حتى إذا اطمأنت إلى جحرها الجديد عادت حتى حافة الشريط وانحدرت نحو مجرى الجدول المتجمد وراحت تعدو هنا وهناك متفقدةً المكان.. و أخيرا عادت إلى فتحة المغارة وحشرت جسمها فيها حتى صارت إلى داخلها..

كانت المغارة بيضاوية الشكل، عريضة بقطر يقارب المترين، وسقف منحن يكاد يلامس ظهر الذئبة حين تستقيم واقفة. وكان المكان جافاً ومريحاص، وقضت وقت غير قصير تفتش أرجاءه بكل اهتمام، بينما بقي رفيقها في الخارج يراقبها من خلال الفتحة منتظراً ما سوف يقع، رآها تحني رأسها فجأة نحو قائمتيها الأماميتين، ثم تدور حول نفسها مرات عدة قبل أن تضطجع أرضاً وهي تطلق تنهيدة متعبة، مولية رأسها صوب مدخل المغارة، فطفق ينظر إليها وقد انتصبت أذناه باهتمام ورسم ذيله ظلاً راقصاً عبر فتحة المدخل. أما الذئبة، فقد بدت مرتاحة لمجلسها، وشرعت أذناها تروحان وتجيئان من الأمام إلى الخلف، عنوانَ فرحها بالعثور أخيراً على جحر مناسب.

أحس "وحيد العين" بعضة الجوع، فوضع بطنه الفارغة أرضاً واستسلم للنوم، لكنه كان نوماً متقطعاً، فقد بدأ الفصل الدافئ يعود وبدأت تعود مع تباشيره الحياةُ بأصواتها التي وجد لها الذئب– لطول الأمد– وَقْعاً غريباً. فكان ينتبه من نومه على خرير الجدول الصغير بدأ لتوه يتحرر من قبضة الجليد، أو صوت سقوط حجر كانت تحتجزه الثلوج الآخذة في الذوبان.. ورفع الذئب رأسه يصغي لأغنية الحياة المتجددة.. كان الربيع يقبل معلناً عن قدومه بنفثات من الحياة يبثها هنا وهناك، فدب الرحيق في جذوع الأشجار وشرعت البراعم تبحث لنفسها عن منفذ تأهُّبا للإزهار..

ألقى "وحيد العين" بنظرة إلى صاحبته، لكنها لم تأت بما ينبئ عن رغبتها في مغادرة مكانها.. ومر فوقهما سربٌ من الطيور القطبية،

فرفع الذئبُ جسمَه كأنه يتأهب للقيام، لكنه سرعان ما عاد يـضطجع حين رأى إصرار رفيقته على البقاء حيث هي.. وسمع طنيناً، ففـتح عينيه ليجد حشرة خارجة لتوها من سباتها الشتوي، فلم يعد يـستطيع على جوعه اصطباراً. وقام واقفاً، فألقى بنظرة أخيـرة إلـى أنثـاه يدعوها لمرافقته؛ ولما لم يجد منها استجابة تركهـا مكانهـا وسـار يجري وحيداً تحت الشمس الساطعة..

كان الثلج الرخو يبتلع قوائمه ويعيق سيره ويجعله مُتعباً، فغادره إلى مجرى النهر المتجمد حيث لا يزال الجليد الذي يخفيه عن الشمس موقعُه العميقُ نسبياً، أكثرَ صلابةً وأنسب للسير.. ودامت رحلة صيده ثمان ساعات عاد بعدها خاوي الوفاض وقد غدا أكثر جوعاً وتعباً من ذي قبل. وزاد من قنوطه أن الأرانب البرية كانت موجـودة بأعـداد وفيرة، لكنها كانت– بجسمها الخفيف المرن تنط فوق الـثلج الرخـو منتقلة بحذق وبراعة، في حين كانت قوائمه هو تغوص تحـت ثقـل جسمه، فيغدو كالخائض في الوحل..

عاد أدراجه نحو المغارة، لكنه ما كاد يقترب منها حتى توقـف حذراً، فقد طرقت سمعه أصوات غريبة ذات رنة تذكره بشيء مَّا لا يدري كنهه.. أصوات لا تنبعث– وهذا لا شك فيـه– مـن الذئبـة.. وحشر رأسه في المدخل فجاءته زمجرة تنذره أن تَراجَـعْ، وأطـاع وانتباهه مشدود كله إلى الأصوات الغريبة التي لم يعثر لهـا علـى مصدر.. وتابعت الذئبة زمجرتها منذرة إياه بالبقاء بعيداً، فتراجع إلى الخارج ونام عند مدخل الجحر..

انتبه مع أول خيط من الفجر، فعاد يحدق إلى الداخل بحثاً عـن مصدر الأصوات.. وكانت الذئبة لا تني تزمجر محذرة، فبقي علـى مسافة منها، لكنه راح يحُدُّ البصر بحثاً عَمَّن يطلق تلـك الأصـوات الغريبة.. واستطاع أخيراً أن يلمح تحت الذئبة خمسة أشياء صـغيرة حية تتحرك وتصدر أصواتاً كالصفير، محملقة في غير اتجاه بعيونها المغلقة العمياء...

كان "وحيد العين" قد رأى مناظر كذلك المنظر مرات عديدة خلال حياته الطويلة، لكنها كانت تورثه في كل مرة دهشة وعجباً متجددين...

طفقت الذئبة تنظر إلى رفيقها بقلق.. كانت تزمجر دونما انقطاع، فإذا بدا من الذئب ما ينم عن أدنى رغبة في الاقتراب، اكتست زمجرتها نبرة مهددة سرعان ما تجعله يتراجع حذراً.. لم يكن لها من سابق تجربة في ذلك المجال، لكن غريزتها المتوارثة كانت توحي إليها بأن تحترس من صاحبها الذي طالما أكل أمثاله من الذكور جراءهم الضعيفة.. كانت تلك الغريزة تجعلها تستشعر حيال رفيقها ما يشبه العداء. لكن ظنها كان في غير محله، إذ لم يكن "وحيد العين" من ذلك النوع من الذئاب، بل إنه على العكس من ذلك شعر فجأة برغبة غريبة تستولي عليه، دافعة إياه بإلحاح إلى المضي للبحث عن طعام لأسرته، فأطاعها دون أن يتساءل عن مصدرها ولا عن سببها، وانطلق يجري بحثاً عن طريدة يستمد منها وذويه ما يعين على البقاء..

على بعد نحوٍ من عشرة كيلومترات من الجحر، كان الجدول ينشق شقين يسعى كل منهما عبر طريق مختلف خلال النجود المجاورة.. وأبصر الذئب أثراً حديثاً على الثلج فوق مجرى أحد الجدولين الفرعيين، فانبطح على بطنه حذراً وراح يراقب المكان؛ ثم قام بعد برهة فسار متتبعا الجدول على مسافة نحو من مائتي متر، وإذا به يسمع صوت قضم التقطته أذنه المرهفة المتربصة، فاقترب بحذر من مصدره ليجد "شيهما"[1] واقفا إلى شجرة يحك أسنانه بلحائها..

كان "وحيد العين" يعرف ذلك الحيوان رغم ندرته في تلك الأصقاع.. كان يعرفه ويعلم جيدا أنه لم يفلح يوما– عبر ماضيه

[1] الشيهم نوع من القنافذ البرية، له شوك يطلقه على مهاجميه– (المترجم)

الطويل– في اقتناص أي من أبناء جنسه ولا تذوَّقَ لحمَه، على أنه واصل تقدُّمَه الحذر، إذ مَن يدري، فلعل الصدف أن تسعفه اليوم بما ضَنَّتْ عليه به بالأمس..

تحول الشيهم بغتة إلى كرة من الأشواك وجمد في موضعه، فاقترب "وحيد العين" منه ثم قبع ينتظر.. كان قد عثر ذات يوم بحيوان كهذا ما إن رآه حتى انقلب كرة شائكة، فاقترب الذئب– الفتى آنذاك– أكثر مما ينبغي، ليتلقى في أرنبة أنفه شوكةً بقيت مكانها أسابيع طويلة قبل أن تسقط من تلقاء ذاتها مُخَلِّفَةً له ذكرى أليمةً لا تُنسى.. لذلك انبطح اليوم أرضاً ليأمن شر الأشواك الطائرة وبقي ينتظر..

بعد حوالي نصف الساعة، غادر مكانه بعد أن ودع الكرة الشائكة بزمجرة غاضبة، وتابع طريقه بحثاً عن طريدة أقربَ مُتناوَلاً.. كانت تجاربه الطويلة السابقة قد علمته أنه من غير المجدي انتظار أن يفتح شيهمٌ خائف حصنَه الشائك، فاندفع يبحث دائباً وقد تَصَرَّم من النهار معظمُه دون أن يظفر بما يقيم الأود. بيد أن غريزة الأبوة كانت تأمره بالتقدم دون توقف.. بالبحث المستمر عن غذاء لذويه وله...

بينما هو سائر عثر فجأة بدجاجة برية. ورأى الطائرُ الذئبَ فحاول الإفلات محلقاً، لكن مهاجمه كان أسرع منه، فلطمه بقائمته ثم عاجله قبل أن يستعيد توازنه، فأطبق عليه فكّيه.. ورَنَق الطائر دون جدوى فوق الثلج الرخو، واختلج ثم سكن..

أنشب الذئب أنيابه في اللحم الطري، فسُمِعت للعظام الدقيقة تحت النواجذ طقطقة، وشرع يأكل، لكنه ما عتم أن أحجم وكأنه تذكر شيئاً، فقام واقفاً وحمل جثة الطائر بين أنيابه وسار بها يعدو صوب الجحر...

وبينما هو عائد يركض إذ عثر بآثار قوائم تشبه تلك التي رآهـا صباحاً عند مفترق الجدولين.. ولما كانت الآثار تسير في الاتجاه نفسه الذي كان الذئب يتبعه، فقد سار محترساً من المفاجآت. فالقوائم التي تركت تلك الآثار كانت أكبر من قوائمه هو، مما يعني أن صاحبها قد يكون أكبر منه حجماً..

عند المنعطف الذي لبث بجواره دقائق طويلة قبل ساعات يرقب غرةً من "الشيهم"، أبصر الحيوان صاحب الآثار.. كانت هناك أنثى "وَشَقٍ"[2] قد اتخذت مجلساً يشابه مجلسه هو ذاك الصباح، وراحت ترقب بدورها انفتاح الكرة الشائكة...

ارتمى الذئب منبطحاً على بطنه حال رأى "الوشق"، وبقي ساكناً يراقب المشهد أمامه.. ومضى وقت قبل أن يجرؤ على مغادرة مكانه، ففعل بكل حذر وسار راسماً دائرة حول الحيوانين الصامتين، مجتهداً كي يبقى باستمرار بحيث تهب الريح من جهتهما إلى جهته..

واجتاز إلى الجهة المقابلة، فوضع فريسته أرضاً وعاد أدراجه فاختبأ خلف جذع شجرة وراح يراقب يد الطبيعة وهي تخط سطراً جديداً من مأساة الحياة الأزلية...

كانت أنثى "الوشقِ" و"الشيهمُ" متسمرين في مكانهما، لا يأتي أحدهما حركة.. كانا معاً مصممين على البقاء، وهو بقاءٌ كانت قوانينُ الطبيعةِ الغريبةُ تطلب في تلك اللحظة الصمتَ المطبق والسكون التام ثمناً له.. وجمد الذئب في مكانه بدوره، فبدت الحيوانات الثلاثة وكأنها قُدَّت من حجر.. والحق أن ذلك لم يَعْدُ كونَه مظهراً خادعاً؛ فالحياة كانت تجري في عروقها فياضة، حياةً نفيسةً يسعى كلٌ إلى الحفاظ عليها بطريقته...

---

[2] الوَشَق: نوع من القطط البرية، يقال له أيضا الأَوْس- (المترجم)

مضت ساعة ثم أخرى، وفجأة دهم الذئبَ شعورٌ مفاجئ بأن ثمة شيئاً مّا على وشك أن يقع، فرفع رأسه وقد انتصبت أذنـــاه اهتمامـــاً. وبالفعل، بدأ "الشيهم" ينفتح رويداً وكأنه اطمأن أخيراً إلى انـــصراف عدوه.. وتقدم الذئب إلى الأمام وهو يكاد لا يتمالك نفسه فضولاً.. أما أنثى "الوشق"، فبقيت على جمودها وكأنها مُسخت حجراً..

استمر "الشيهم" في انفتاحه البطيء حتى بدا لحمُ بطنه الأحمـــر، فشعر الذئب بلعابه يسيل لمرأى اللحم الطري.. وفجأة لمح "الـــشيهمُ" "الوشقَ" فأسرع محاولاً العودة إلى انطباقه، لكـــن القطـــة الـــضخمة ضربته بمخلبها ضربةً شقت بطنه، فصرخ متوجعاً وأطلق من ذيلـــه سيلاً من الأشواك انغرز بعضها في قائمتها فتراجعت وهي تـــصرخ ألماً ودهشة.. أما الذئب، فقد بلغ منه الانفعال مبلغا جعله يتقدم– وهو لا يدري– خطوات عديدة إلى الأمام.. ولم تستطع القطـــة لغـــضبها كَظْمًا، فارتمت بوحشية على أنفها الذي كان يطلـــق صـــرخاتِ ألـــمٍ قصيرةً وهو يحاول اســـتجماع شـــتات بطنـــه الممزقـــة، وضـــرب مُهاجِمَتـــه بذيله في حركة دفاع لاإرادية، غارزاً إبراً أخـــرى فـــي أنفها، فتراجعت مولولة، وبدأت تنط في الهواء كالبهلوان ألماً وغيظاً، وهي لا تتوقف عن العطس.. و فجأة تسمرت في مكانها محملقة في عدوها المحتضر، ثم ولت هاربة وهي تولول متوجعة كلما وضـــعت قدمها المصابة على الأرض...

تريث الذئب في مكانه حتى خفَتَ صوت صراخ "الوشـــق" فـــي البعيد، ثم سار ببطء صوب الحيوان الجريح الذي مـــا إن رآه قادمـــاً حتى أطلق زمجرة غاضبة وأطبق فكيه على بعضهما بقوة طقطقـــت لها أسنانه بصوت مسموع.. كان قد أعاد تشكيل كرته الشائكة، لكـــن عضلات بطنه الممزقة لم تعد تسعفه في تكوين كرة مُحكَمة الإغلاق؛ فقد شقت ضربةُ مخلب "الوشق" جسمَه نصفين أو كادت.. كانت دماؤه تنزف بغزارة، مكونة فوق الثلج بقعة حمراء اقترب الذئب منها بهدوء

وراح يلعق السائل الدسم بشهية لم تُنْسه حذرَه، فلم يفارق بصرُه "الشيهمَ" الذي لم يكف عن زمجرته ولا عن طقطقة أسنانه، مُصدراً من حين لآخر أنيناً متوجعاً. وأخيراً رأى "وحيد العين" الأشواك المنتصبة وهي تنحني بهدوء، بينما استولت الرعشة على الجسد المحتضر.. ثم توقفت الرعشة، وانطبقت الأسنان على بعضها مرة أخيرة، وسقطت الأشواك، وارتخى جسد "الشيهم" ولم يعد يبدي حراكاً..

لبث الذئب مكانه بضع دقائق أخرى، ثم اقترب بحذر ومد قائمته وقَلَبَ الحيوان الميت بحركة سريعة على ظهره، فانقلب ولم تَندَّ عنه حركة، فتأكد الذئب من موتَه وحمله بين أسنانه، ثم راح يعدو قاصداً جحره. على أنه لم يلبث أن تذكر شيئاً، فوضع فريسته الشائكة أرضاً وعاد أدراجه إلى حيث ترك الدجاجة البرية. ولم يكن لديه من خيار، فالتَهَمَ الطائرَ وعاد وحمل "الشيهم" وسار به عدواً باتجاه الجحر...

تشممت الذئبة الطريدة التي أتى بها رفيقها، ثم استدارت صوبه وراحت تلعق فرو رقبته في عرفان وحنان سرعان ما انقلبا زمجرةً حين بدت على الذئب رغبة في الاقتراب من جرائها. بيد أنها لم تكن– كسابقاتها– زمجرةً غاضبة مهددة، بل كانت تنطلق وكأن الغريزةَ وحدَها باعثُها، فلا تلبث أن تليها بأخرى أخفَضَ منها وكأنها اعتذارٌ صامت... كان خوف الذئبة قد بدأ يتبخر، فرفيقها لم يكن من تلك الفصيلةَ من الذئاب التي تأكل صغارها...

الفصل السادس
الجرو الرمادي

كان مختلفاً عن أخوته.. فجميعُهـا كانـت لفروهـا التموجـاتُ الحمراء التي لفرو أمها. أما هو، فقد كان رمادياً كأبيه.. كان– بفضل نزوة من نزوات الوراثة– وحدَه الذي يحمل خصائص الذئب خالصةً؛ وباستثناء الفرق في الحجم وكون عينيه الاثنتين سليمتين، فإنه كـان نسخة مطابقة من "وحيد العين"..

كانت عيناه الحادتان– وقبل أن تتفتح عيناه، كانت حواسـه مـن سمعٍ ولمسٍ وشم– قد أنبأته بالكثير عمّا يحيطه. فكان يعرف أخويـه وأختيه جيداً، ويلاعبها جميعاً، مطلقاً بين الفينة والأخـرى زمجـرة ليست بعدُ من زمجرة الذئب البالغ في شيء، وإنْ تكن مقدمةً لهـا.. أما أمه، فقد عرفها منذ الساعات الأولى من حياته.. عرفها برائحتها وملمسها ومذاق شعر فروتها، وعرف منها الحضن الدافئ والغـذاء اللذيذ والحنان الذي لا ينضب، واللسان الضخم الـذي يلعـق جـسده الصغير فيبعث فيه السكينة ويدفع به إلى النوم لصق بطنهـا.. وقـد قضى الجروُ الشهرَ الأول من حياته بأكمله تقريباً في النوم.. أما الآن وقد أضحى باستطاعته تمييزُ الأشياء ببصره، فقد أصـبحت فتـراتُ صحوه أطول فأطول، وصار يقضي أكثر فأكثر مـن الوقـت فـي التعرُّف على عالمه المباشر.. وكان ذاك العالم غارقاً في شبه عتمـة دائمة، فلم تتلق عيناه في أوائل أيام انفتاحهما سوى كمياتٍ ضئيلةً من الضوء..

كان عالمه ضيقاً تحده جدران المغارة، لكنه لم يكن يعرف شـيئاً عن العالم الواسع الممتد خلف تلك الجدران، ولم يضق مكانه بـه ولا تبرَّمَ هو منه..

غير أنه لم يغب عنه طويلاً أن أحد تلك الجدران كان مختلفاً عمَّا عداه.. كان ذاك مدخلُ المغارة، من حيث ينبع النور.. والحـق أنـه اكتشف ذلك الجدار قبل أي شيء آخر حوله. بل إنه– حتى قبـل أن تنفتح عيناه تماماً– كان يحس النورَ يقرعُ أجفانَه الملتحمة، فتَتَـسربُ جزيئاتٌ منه تسري في عصبه البَصَري مورثَةً إياه من ذلك دغدغـةً لذيذة تجعل جسده يتشرب الضوء كما تتشربه النبتةُ الخضراء حـين تستقبله لتستمد منه روح كيميائها العجيب...

منذ البدء زحف الجرو نحو الضوء بطريقة لاإراديـة، وحَـذَتْ إخوته حَذْوَه، فلم يلتفت أيٌّ من الجراء نحو الأركان المظلمـة مـن المغارة، بل انجذبت جميعها نحو النور بقوة لا تقاوَم، وكأنها نباتـاتٌ يُشَكِّل الضوءُ دعامة أساساً من دعامات حياتها. فكُنْتَ ترى أجسادها الصغيرة، مدفوعةً بقوة مجهولة، تزحف– غير عابئة بأي عائق– نحو الجدار المضيء، وكأنها في عماها وسيرها المتعثـر أوراقُ كَرْمَـةٍ نبتت في ظل حائط تصارع من أجل الخروج إلى الـشمس.. وازدادَ نداءُ النورِ قوةً حين فتحت الصغارُ أعينَها ووعَتْ ذواتها وشخوصَها، وأصبحَتْ حواسُّها أصدَقَ إنباءً لها عمَّا حولها، فأضحَت أكثر إلحاحاً في محاولتها الاقتراب من منبع الضوء، مضطرةً أمَّها إلى إعادتهـا المرة تلو الأخرى إلى داخل الجحر..

كانت تلك الرقابة المفروضة من قِبَل الأم على صغارها بمثابـة دروس تعلم منها الجرو الرمادي أن أمه ليست مصدر دفء وغـذاء فحسب، بل أنها تمتلك كذلك أنفاً يُمْكنها استخدامُه متى شاءت عـصاً تؤدبه بها، فإن لم يكف الأنف فلها قائمةٌ تضربه بها تجعله يتـدحرج منقلباً حول نفسه.. هكذا تعَلَّم أن هناك شيئاً هو الضرب وأنه موجع، وأن عليه أن يعمل ما في وسعَه لتفادي استجلاب ذلك الشيء لنفـسه.

فإن وقع المحظور، فيجب الاجتهاد في تفادي العقوبة.. كان ذلك السلوك "المنطقي" أُولى لَبنات تعامله "الواعي" مع العالم، فقد بدأ بالتراجع أمام الضربات بشكل آلي، تماماً كما كان يزحف يوماً نحو نبع الضوء. أما الآن، فإنه يفعل ذلك وهو يعلم جيداً ماذا يفعل ولماذا؟...

كان جرواً شرساً كباقي إخوته.. ولا غرو، فهو كاسرٌ وابنُ كاسر، وبنات جنسه عاشت منذ الأزل على لحوم ضحاياها، وأبوه وأمه لم يأكلا قط إلا لحماً، واللبن نفسه الذي رضعه من أمه ليس إلا لحماً حوّلَهُ جسمُها لبناً. واليوم ولم يمض على ولادته أزيد من شهر ولا على انفتاح جفنيه أكثر من أسبوع، فإنه أضحى يأكل وأخوتَه لحماً نصفَ ممضوغ تضعه أمها في حلوقها بعد أن تهرسه لها بين أسنانها القوية، وذلك حين أصبحت الجراء أكبر حجماً من أن تكتفي باللبن وحده..

أجل، كان جرواً شرساً كباقي إخوته، لكنه كان أشرسها جميعاً.. كانت زمجرته أقوى من صياحها وغضبُه أعنف. وكان أولَ مَن ضربَ أحدَ إخوته فدحرجه بعيداً كما كانت تفعل أمه، وأولَ من عض على أذن أحدها فسحبه مزمجراً وهو ممسك به، فكان من الطبيعي أن تجد أمه الذئبة من العناء في إرغامه على البقاء داخل المغارة ما لم تكن تجده مع بقية جرائها. فالضوء كان يجذبه إليه بقوةٍ تتزايد يوماً بعد يوم..

كان ملحاً في محاولاته الاقتراب من نبع النور، لكنه كان في كل مرة يجد أنف أمه أو قائمتها له بالمرصاد.. لم يكن يدري أن ذلك الجدار هو في واقع الأمر بابٌ على العالم الخارجي مترامي الأطراف.. كان يجهل كل شيء عن ذلك؛ فالجدار المضيء لم يكن يمثل له سوى حائط من نور، راح يحاول الاقتراب منه باستماتة لا يدري كنهها، كاستماتة الفراشة في السعي إلى حيث لهب الشمعة...

كانت الغريزة وحدها دافعه صوب نبع النور، دون أدنى علم لديه بما وراء ذلك النبع..

بقي الحائط المضيء لفترة طويلة مستولياً على انتباه الجرو، مالكاً عليه نفسه وحواسه... فأبوه– وكان الآن يعرف أباه، كائناً يشبه أمه، يُحضر اللحم وينام لصق ذلك الجدار العجيب– كان يمتلك في ما يبدو قدرةً عجيبة على الظهور والاختفاء وقتما شاء عبر ذلك الجدار.. وحاول أن يحذوَ حذوه، غير أن أمه حالت كعادتها دونه ودون ذلك، فعاد إلى الداخل فبدأ يحاول اختراق الجدران الأخرى المظلمة، لكن الحجارة الصلدة أوجعت أنفه الصغير، فأقلع عن المحاولة، مقتنعاً في نهاية الأمر بأن القدرة على اختراق الحيطان هي وقْفٌ على أبيه وحده، يختص بها مثلما تختص أمه باللبن واللحم المهروس...

لم يكن الجرو الصغير يفكر على طريقة البشر؛ فالطريق التي يسلكها عقله في التفكير طريق معتمة، غير أنها تفضي به في نهاية المطاف إلى نتائجَ لا تقل دقة عن تلك التي تُفضي إليها عملية التفكير البشري، مع فرقٍ أنه كان يتقبل الأشياء كما هي دون التساؤل عن عِلَلها وأسبابها ولا عن غاياتها.. لم تكن "لماذا؟" تهمه، بل فقط "كَيف؟".. وهكذا، فبعد أن نطح برأسه الحائط مرات ومرات دون نتيجة سوى الألم، انتهى إلى الاقتناع بأن اختراق الحيطان شيءٌ مستحيلٌ عليه، بينما يستطيع ذلك والدُه دون عناء.. كان يأخذ بالنتائج ويهمل الأسباب كليةً. فلا المنطق ولا قوانين الفيزياء كانت تجد لها مكاناً في آليته الذهنية..

ثم جاءت المجاعة، فعرف الجروُ السغبَ، شأنَ السواد الأعظم من سكان المناطق المتجمدة؛ فقد أتى زمن لم يندر فيه اللحم وحده، بل بدأ معين الذئبة نفسها من اللبن ينضب.. وأطلقت الجراء في أول الأمر أنّاتٍ وصرخات شاكية، لكنها لم تلبث أن استغرقت في نوم

طويل متواصل ؛ وبدا وكأن الجوع قد جعلها تدخل في ما يشبه الغيبوبة، فانتهى العراك وخفَتَ الضوضاءُ التي كانت تملأ جو المغارة، وكفَّت محاولات الوصول إلى النبع المضيء عند بابها ... كانت الجراء تنام دونما انقطاع، وبدت جذوة الحياة فيها وكأنها توشك أن تخبو...

أما "وحيد العين"، فقد كان يجري كالمجنون في كل اتجاه، في سعي حثيث دؤوب لا يؤوب منه إلى الجحر الغارق في الصمت سوى ليأخذ نصيباً من الراحة، يعود بعده إلى سعيه. وبدأت الذئبة نفسها تخرج لمرافقته، مخلفة الصغار وحدها في الجحر..

كان الذئب في الأيام التي تلت ميلاد الجراء قد اعتاد زيارة مخيمِ هنودٍ حُمر كانوا ضاربين خيامهم على الجهة الأخرى من الوادي، فيسرق من دجاجه وأرانبه وما أمسكَت فخاخُه ما استطاع. لكن عودة الفصل الدافيء ومعه ذوبان الجليد أرغمت الهنود على الانتقال من مكانهم، ففقد "وحيد العين" بذهابهم مورد غذاء لا يعوَّض..

وعاد الغذاء أخيراً، وعادت معه إلى الجرو حيويته، فعاد لاهتمامه القديم بنبع الضوء.. كان عالمه الصغير قد فقد الكثير من ساكنيه، فلم يعد يقاسمه إياه سوى أخت ضعيفة تكاد لا تبدي حراكاً، استمرت في الذبول حتى خَبَتْ شعلةُ حياتها بدورها ذات صباح...

ثم جاء يوم لم يعد يرى فيه الجرو أباه مخترقاً الجدار المضيء ولا متمدداً أمامه.. كان ذلك في نهاية فترة مجاعة ثانية جاءت أقصر من سابقتها وأخف وطئاً. وكالعادة، لم يتساءل الجرو عن سبب هذا الغياب، بل قَبِله بصفته أمراً واقعاً لا سبيل إلى رده، ولا أهمية البتة للأسباب التي كانت وراء وقوعه..

أما الذئبة، فإنها كانت تعرف جيداً سبب غياب رفيقها، وإنْ لم تملك سبيلاً لإطْلاع جروها عليه..

فبينما هي تبحث قبل أيام عن طريدة عند مفترق الجدولين، غير بعيد عن المغارة، عثرت على آثار "وحيد العين" على الشق الأيسر من الجدول، فتعرفتها وسارت تقتفيها لتعثر على الذئب على بعد بضع مئات من الأمتار، أو بالأخرى على ما تبقى منه بعد معركة أخيرة خاسرة خاضها ضد أنثى "وشق" لم تجد الذئبة صعوبة في تتبع آثارها حتى بلغت وكرها، غير أنها تحاشت الاقتراب منه، وأضحت من يومها تتفادى ما استطاعت القنص على ضفاف الشق الأيسر من الجدول. لأنها كانت تعلم أن داخل وكر القطة البرية الشرسة صغاراً، وتعلم كذلك مدى ضراوة القطط البرية وعنادها.. ولئن كان باستطاعة ستة من الذئاب أن تطارد إحداها وتجعلها ترتقي خائفة جذع شجرة تحتمي به، فإن ذئباً منفرداً يخوض مغامرةً حقيقية إن هو أقدم على دخول معركة ضد وشق، وخاصة إذا تعلق الأمر بأنثى وراءها صغارٌ تقاتل القطةُ من أجل حمايتها وبقائها..

ذاك كان صوت المنطق...

غير أن لأرض الشمال مبادئَها التي لا تبغي عنها محيداً، كما أن لغريزة الأمومة قوانينَ ودوافعَ لا تعترف للمنطق بسلطة.. وسيأتي يومٌ تضطر فيه الذئبة– إنقاذا لحياة وحيدها الجائع– إلى اقتحام وكر "الوشق" ونهبه، وفي ذلك من المخاطرة ومن التعرض لنقمة القطة وثأرها الرهيب ما فيه...

الفصل السابع

حائط الدنيا

حين عادت الذئبة إلى الخروج في رحلات قنصها الطويلة، كان الجرو قد أصبح مطيعاً بما يكفي للإقلاع عن محاولة الاقتراب من الحائط المضيء. ولم يكن الفضل في ذلك يرجع إلى لطمات الأم وحدها، بل أيضاً إلى الخوف المتوارث الذي بدأ يدب في دواخله.. ولئن كان لم ير بعد خلال حياته القصيرة ما من شأنه أن يرعبه، إلا أن الخوف الذي كان يركبه، موروثاً عن أمه الذئبة وأبيه "وحيد العين"، اللذين تلقياه بدورهما عن الأسلاف، عبر آلاف السنين من التجربة المتراكمة.. فالخوف هو الإرث المتناقل عبر الأجيال بين جميع كائنات المناطق الباردة، لا يستطيع أحدها الفكاك منه ولا ردَّ غائلته– تماما كالجوعِ– بقطعة لحم...

كان الجرو يعرف الخوف، غير أنه لم يكن يدري ما يعنيه ذلك الإحساس ولا حتى سببَه. ولعله تَقَبَّلَه بصفته قيداً آخر من القيود التي يبدو أنها مفروضة على العيش.. فالجوع الذي كان يعضه بنابه كلما حلت فترة من فترات المجاعة– وما أكثرها– وجدرانُ المغارة التي طالما آلمَتْ أنفه في محاولاته الساذجة اختراقَها، ولطماتُ أمه التي ترده عن النبع المضيء كلما اتجه نحوه، كلها علمته منذ زمن أنْ ليس بالإمكان العيش بطمأنينة في هذا العالم، وأن للحياة قيوداً ونواميس ينبغي لمن يريد تجنيب نفسهِ الألمَ أن يطيعها ويتجنب خرقها..

لم يكن الذئب الصغير بطبيعة الحال ليفكر بهذه الطريقة الآدمية، لكنه كان رغم ذلك يستطيع تمييز الأشياء وتقسيمها إلى صنفين، أحدها يصاحبه الألم أو يليه، والثاني لا يسبب ولا يورث ألما؛ فاجتَهَدَ في تحاشي الصنف الأول كي يتمكن من الاستمتاع بالثاني..

وهكذا، فإنه- طاعةً لأمه من جهة وتحت تأثير ذلك القلق الغامض من جهة ثانية- لم يحاول أبداً، في غياب الذئبة، الاقتراب من نبع النور الذي بقي بالنسبة إليه حائطاً مضيئاً ليس إلا.. كان يقضي طوال يومه نائماً، وفي فترات اليقظة القصيرة التي كانت تتخلل نومه، كان يبقى متسمراً في مكانه، خائفاً مرتعباً من شيء لا يدريه، مجتهداً في كظم صرخة محتبسة في حلقه يود لو أطلقها لكنه لا يستطيع..

وذات يوم، انتبه من نومه على صوت غريب آت من وراء الحائط المضيء.. لم يكن يعلم أن بباب المغارة دُباً صَغيراً كان يتشمم فتحته متطلعاً- وهو يرتجف رعباً- إلى ما في داخلها.. ما استطاع الجرو إدراكه هو أن ذلك الصوت الذي كان يقرع أذنه لم يكن مألوفاً لديه.. كان شيئاً مجهولاً.. والمجهولُ كما لا يخفى دعامةٌ من دعامات الخوف وعنصر من عناصره.. فتملَّكه رعب اقشعر له جلده وارتعدت منه الفرائص، لكنه بقي ساكناً لا يُبدي حراكاً، وكأن صوتاً من داخله كان يهتف به أنَّ في أقل حركة تندُّ عنه خطراً مميتاً.. ومضت لحظاتٌ والاثنان بموقفهما، ثم بدا وكأن الدب الصبي يئس من العثور على فريسة سهلة في ذلك المكان، فانصرف لسبيله. أما الجرو، فقد بقي في مكانه مرتجفاً، مشدود العضلات منتفش شعر الفروة، حتى تناهى أخيراً إلى سمعه صوت زمجرة أمه العائدة من الصيد، وقد تنازَعَها الخوف والغضب حين اشتمت رائحةَ الدب أمام جحرها ورأت آثاره على بابه.. واندفعت الذئبة نحو وليدها تتشممه وتلعق فروته بحرارة غير معهودة أدرك الجرو منها أنه قد نجا لتوه من خطرٍ مميتٍ..

غير أن الذئب كان ينمو بسرعة واطراد، وبنموه كانت تنمو حدة الصراع الذي تخوضه في دواخله قوى متعارضة.. كان خوفه الموروث الغامض، ومعه الرغبة في تفادي لطمات أمه، يدعوانه إلى الحذر، لكن ما كان هناك من شيء باستطاعته إيقاف السيل الزاحف بداخله، والذي كان يزداد قوة وإلحاحاً مع كل مضغة لحم يأكلها وكل هبة نسيم يستنشقها..

فقد أتى يومٌ ضرب فيه الجرو بخوفه وبأوامر أمه عرضَ الحائط، واتجه بعزمٍ أكيد نحو الجدار المضيء...

غير أن الجدار، خلافا للجدران الأخرى، بدا وكأنه يبتعد كلما ازداد اقتراباً منه، فلم يصطدم أنفه بحاجز مؤلم يصده كما كان يتوقع، بل بدا الجدار كالضوء نفسه، قد صيغ من مادة غير ملموسة. وهاهو يدخل الآن ما كان يخاله حائطاً صلداً، فيلفه الضوء من كل الجهات، ويُعشي النور الساطع بصره.. كان حذره الدفين يناديه أنْ عُدْ من حيث أتيت، لكن الفضول المتفجر المندفع مع نبض الشباب في عروقه كان يدفعه إلى التقدم، ففعل حتى أصبح جسمه خارج المغارة تماماً.. وغمر الضوء عينيه فأغمضهما متألماً ثم عاد يفتحهما ببطء حتى تبدت الدنيا أمامه وقد تراجعت حدودها من حيث كان يخالها تنتهي، فترامت إلى ما لا نهاية.. أما الحائط المضيء، فقد أصبح الآن أبعد مما كان بكثير، وارتسمت على صفحته زراكش الأشجار المورقة، وخلفها الجبل المكسو خضرة وبياضاً، وفوقها جميعاً سماء الربيع الزرقاء الصافية...

استولى الهلع على الجرو.. فكل ذلك كان مجهولاً لديه.. مجهولاً ومخيفاً. فانبطح على مدخل المغارة وبدأ ينظر إلى الحياة.. وبدت له- لسبب ليس يدريه- حبلى بالأخطار حافلةً بمشاعر العداء، فانتفش شعر فروته، وندَّ عن حلقه أنينٌ خافتٌ أراده الجرو زمجرةً مخيفةً يعبِّر بها، من غياهب خوفه وضَعفه، عن تحديه للعالَم الواسع المحيط به..

مرت دقائق ولم يحدث شيء، فبقي الجرو ينظر إلـى اللوحـة المرتسمة أمامه، وفغر فاه دهشة لما يرى، وماتـت الزمجـرة فـي حلقه.. حتى الخوف ذاته بدأ ينقشعَ.. انمَّحى القلق مؤقتاً أمـام نـداء الطبيعة وإلحاح الفضول، وبدأ يكتشف الـصغير مكونـات اللوحـة الرائعة الماثلة لعينيه.. وبدأ بأقرب الأشياء إليه، فرأى جزءاً من ماء الجدول المتلألئ تحت الشمس، وجذعَ شجرة يابسة يقف عند نهايـة المنحدر، ثم المنحدرَ نفسه الذي ينتهي أمام المغارة، على بعد نـصف متر من أنفه..

تردد لحظة ثم قام من مكانه وتقدم خطوة فأخرى باحتراس..

لم يكن الجرو– وهو الذي عاش حتى اليوم على أرض مستوية– يدري ما المنحدر، فوضع إحدى قائمتيه الأماميتين في الفراغ دون أن يدري، فلما هوت أتبعها الأخرى بينما مؤخرته لا تزال على الحافة، فسقط تسبقه رأسه.. واصطدم أنفه بالأرض فصرخ متوجعاً. لكن ذلك لم يكن سوى البداية، إذ سرعان ما وجد المسكين نفسه فريسة قُـوى مجهولة جبارة، قد أمسكت بجسمه الصغير وراحت تهوي بـه إلـى أسفلَ مُتَعاوِرَةً إياه، مُطَوِّحةً به في عنف، فبدأ يعوي رعباً وألماً بينما يتدحرج دائراً حول نفسه، وقد بلغ الاضطراب به أوجَه.. كان– ساعة أَلَمَّ به الخطر إذْ كان الدب خارج جحره واقفاً يتشمم مدخلَه– قد وجد سلامته في الإمساك عن كل حركة. أما الآن، فأنَّى له ذلك، وكيـف السبيل إلى التزام الهدوء وهو لا يتوقف عن التدحرج؟.. وكما صحب السكون وقتذاك ما يناسبه من صمت مطبـق، فقـد رافـق الـسقطة المجنونة الآن ما يليق بها من صخب عنيف.. والحق أن ما كان به لم يكن خوفاً فحسْبُ، بل هلعاً شاملاً مَلَكَ عليه نفـسه وشَـلَّ حركتَـه، فتدحرج كالصخرة حتى آخر الجرف الذي كان لحسن حظـه قليـل الانحدار مفروشاً في أسفله ببساط من العـشب الأخـضر، فراحـت سرعة سقوطه تتناقص تدريجياً حتى توقف تماماً وصـوت عوائـه

الرفيع لا يزال يشق فضاء المكان.. وبقي برهةً رابضاً يئن متوجعاً، ثم قام وبدأ يلعق فروته– وكأنه فعل ذلك قبلها ألف مرة– منظفاً نفسه من الطين العالق به.. وانتهى من ذلك، فوقف مكانه ينظر فيما حوله، واعياً تمام الوعي كونه قد اجتاز الحائط المضيء وتخلص– وإن بطريقة لا يدريها– من القوى المجهولة العاتية التي كانت تمسك به.. وقف ينظر كما قد يفعل ذلك إنسانٌ يضع قدمه لأول مرة على سطح كوكب مجهول.. على أن ذاك الإنسان ما كان ليشعرَ ساعتها بمثل ما كان يجده الجرو من إحساس بالغربة والوحدة.. فالكائن البشري يمتلك من المعطيات عن عالمه ما لم يكن للجرو مثله عن العالم المجهول الذي وجد نفسه فجأة وسطه.. وإن شئت أن تجد لشعوره ساعتها مقابلاً في أحاسيس البشر، فتخيلْ ما يمكن أن يشعر به إنسانٌ يجد نفسه فجأة في عالم الأرواح يجوب أرجاءه...

على أن الفضول لم يلبث أن عاد يتغلب على الخوف، فشرع الجرو يجول في أنحاء محيطه المباشر مستكشفاً، فتفحّصَ العشبَ الأخضر وبساطَ الطفيليات على جذع الشجرة الميتة المنتصب وسط المنفرج الصغير.. وظهر على حين غرة سنجابٌ كان يلعب إلى جوار الجذع فصدم الجرو في جريه عفواً، فتراجع وقد عاد إليه بغتة خوفه القديم، وانكمش على نفسه مزمجراً. غير أن "السنجاب" كان أكثر منه فزعاً، إذ مرق هارباً نحو أقرب شجرة وارتقى جذعها وراح يطلق من أعلاها صرخات غاضبة..

أكسبَتْ تلك الحادثةُ الجروَ ثقةً في نفسه رغم الهلع الذي أورثَتْه إياه.. ألَمْ يسارع أولُ كائن حي لقيه إلى الفرار من أمامه هارباً ؟.. وعاوده الفزع حين التقى بغتة قُبَّرَةً، لكن الطائر حلق لتوه مبتعداً، فازداد الجرو بذلك ثقةً بصدق الإحساس الغامض الذي كان يعتريه.. إحساسه بتفوقه الجسدي على ما يحيط به من كائنات.. وأورثته ثقته تلك غروراً لم يلبث أن كلفه غالياً. فقد عثر بعد ذلك بقليل بدجاجة

قطبية لم تُولِّ هاربة لرؤيته كسابقَيها، فاقترب منها وضربها بقائمتــه الأمامية كما كانت تفعل به أمه وكما تعلَّمَ هو نفسه فيما بعد أن يفعل بإخوته، فما كان من الطائر إلاَّ أن عاجله بضربة من منقاره على أنفه جعلت الجرو ينبطح أرضاً ويرفع عقيرته بالعويل.. وأفــزع زعيقــه الدجاجة فولت هاربة وتركته يعوي مكانه متألماً..

كانت تلكُ كلها تجاربُ صَبَّت عصارتَها مباشــرة فــي خــزان معلومات الذئب. فقد أصبح الآن يعلم أن الأشياء الموجــودة حولــه تنقسم إلى صنفين، أولهما لا يتحرك، بل يظل مكانه لا يبارحه، وهذا لا خوف منه؛ والثاني يتحرك ولا أحد يستطيع أن يخمن ما قد يصدر عنه، ويَحْسُنُ بالتالي التزامُ جانب الحذر في التعامل معه..

سار متخبطاً في مشيته، متعثراً، مصطدماً بأدنى عائق.. فهــذا غصن شجرة يخاله بعيداً فإذا به قريب يخــدش وجنتــه أو يــنخس أضلعه، وتلك الأرض أمامه تبدو منبسطةً فإذا هي حفرةٌ تهوي فيهــا قائمته ولم يرها، فينقلب متدحرجاً وهو يعوي ألماً ودهشة.. وَمَــادَتْ أحجارٌ تحته فأفزعته، لكنه استخلص من ذلك أن الأشياء الجامــدة لا تبقى جميعاً على سكونها، وأن أصغرَها حجماً أَبْعَدُها عن الاســتقرار وأقربُها إلى الحركة.. كانت مغامراته الصغيرة تلــك بمثابــة نقــاط تُضاف– مادةً أولية– إلى سجل ذاكرته، فتسهمُ بــشكل مباشــر فــيّ تربيته.. وشيئاً فشيئاً أصبحت خطواته أكثر ثباتاً، وأضحى أكثر دقــة في تحديد المسافات وأصَحَّ وعياً بإمكانياته الذاتية وحدوده..

وكما تفعل الصدفة أحياناً في مدّها يدَ العون للمبتدئين، فقد جعلت الذئبَ الصبي الذي وُلِدَ– وإن جهل ذلك– ليكون وحشاً مفترساً، يعثر بفريسة سهلة وشهية. فبينا هو يحاول تخطي جذع غلــيظ اعتــرض طريقه، أخفق في الحفاظ على توازنه فتدحرج صارخاً ليجــد نفــسه فجأة وسط عش دجاجة برية قد أجادت صاحبته إخفاءه فــي حفــرة تحت الجذع الضخم.. وبدأت الفراخ السبعة التي كانت تقبع بــالعشّ

تنْقضُ فَزِعَة، فراع الجروَ بادئ الأمر نقيقُها، فانكمش على نفسه مرتعباً. غير أنه ما لبث أن لاحظ صغر حجمها، فتسلح بالشجاعة وحدَّق إليها النظر.. كانت تتخبط في لهوجة، فوضع قائمته على أحدها، فاكتست حركة الفرخ عنفاً أحس له الجرو بما يشبه الدغدغة اللذيذة، ففتح فمه لاإرادياً وأطبق بأنيابه على الجسد الصغير، واجداً لذلك لذةً غريبة سَرَتْ في لسانه كَلسعة كهربائية، موقظةً غرائزَه الدموية.. وزاد فكيه إطباقاً، محطماً العظم الهش، ممزقاً اللحم الطري، فانساب الدم في فمه ساخناً دسماً، فما يدري إلاَّ وقد التهم الطائر الصغير.. وتولاه نهم مفاجئ أذكت سعيرَه الإثارة المتولدة عن اكتشافه العجيب، فأثنى على الفرخ الثاني والتهمه، وألحق به أخاه حتى أتى على الفراخ جميعاً.. عند ذاك أقعى مكانه وشرع يلعق مشفريه حتى نظفهما، ثم زحف إلى خارج العش المقفر..

لكنه ما كاد يفعل حتى انقضت عليه صاعقة من الريش جعلته يتراجع صارخاً وقد استولى عليه الفزع.. وعادت الدجاجة البرية الثكلى تهاجم عدوها، مضاعفة من حدة ضرباتها الناقمة، فاجتاح الجروَ غضبٌ مفاجئ، وانقض على الطائر منشباً أنيابه في جناحه، فبدأت الدجاجة ترنق ضاربة إياه بالجناح الآخر، والجرو مطبقٌ فكيه، وقد ذهب خوفه ووَجَلُه، ولم يعد يفكر في غير هذا الشيء الحي الذي يصارعه، والذي ليس بدوره سوى لحم صالح للأكل.. كانت غريزة الوحش القاتل قد استيقظت فيه حيةً متوقدة.. فَقَبْلَ قليل قَتَلَ أشياءَ حيةً صغيرة وأكَل لحمها، وهاهو الآن بصدد قتل شيءٍ كبيرٍ وأكْلِ لحمه.. كانت سعادته الغامرة من القوة بحيث لم يشعر بأنه سعيد.. كأن يدخل من الحياة سبيلاً كُلُّ شيء فيه يكتسي روعةً وجمالاً...

استمر الجرو في إمساكه بجناح الدجاجة وهو يزمجر بين فكيه المنطبقتين، وتركها تجذبه إلى خارج الحفرة، لكنها حين حاولت إرجاعه إليها أخفقت، فقد تمسك بمكانه حيث الفضاءُ الطلق يوفر

مزيداً من الحرية في الحركة. وواصل الطائرُ ضَرْبَ خصمه العنيد بجناحه وهو يزعق رعباً وغضباً، وراح الريش يتطاير من حول الغريمين المتصارعين كأنه نُدَفُ الثلج.. أما الجرو، فقد بلغت به النشوة والانفعال أوجَهُما.. كان يلبس أخيراً لباس ما خُلِقَ له، لباس الوحش الكاسر الذي يَقْتُلُ ليعيش...

مرت لحظات، ثم بدأ الاعياء يتمكن من الدجاجة، فأمسكت عن رنقها العنيف، وتسمر الخصمان يتبادلان النظر لاهثين.. وندت عن الذئب زمجرة أرعبت الطائر، فكأنما رُدت إليه قُوَّتُه، فوجه من منقاره إلى أنف غريمه ضربة جعلته يئن متوجعاً، وعاد يضربه ثانية بمنقاره، ثم راح يكيل له سيلاً من الضربات المؤلمة جعل الجرو يتراجع ساحباً خصمه في تراجعه، ناسياً، لألمه وفزعه، أنه ممسك بجناحه بين أسنانه. وتوالت الضرباتُ موجعةً حتى كاد يجن من الألم، ففتح فاه صارخاً– ومفلتاً في الآن نفسه جناح غريمه– وولى الأدبار منهزماً وقد تخلت عنه شجاعتُه الطارئة.. وانتهى إلى الطرف الآخر من المنفرج فاضطجع طلباً للراحة، وطفق يلهث وقد تدلى لسانه بإعياء من بين فكيه.. وفجأة تولاّه إحساسٌ بأن ثمة شيئاً رهيباً على وشك الحدوث.. وفيما هو كذلك إذا بجسم كبير ينقض عليه فيضرب الأرض بجواره ثم يتعالى في السماء.. كان صقراً ضخماً أخطأ الجروَ في انقضاضه عليه بأقلَّ من شبر..

تسمر الجروُ في مكانه وقد سيطر عليه الرعبُ، وراح يتابع بعينيه تحليق الصقر في الفضاء فوقه.. وغيرَ بعيد عن هناك، كانت الدجاجة البرية ترفرف مُحَلِّقةً بصعوبة فوق عشها الخَرِب، فلم تنتبه إلى الخطر القادم من السماء.. وشاهد الجروُ الصغير– وسيتعلم من ذلك درساً لا يُنسى– شاهد الجارحَ ينقض كالسهم ثم يعود في اللحظة التالية إلى الارتفاع وضحيته بين براثنه، وقد انغرزت مخالبه القوية في لحم جسمها الطري..

انتظر الجروُ طويلاً قبل أن يجرؤ على مغادرة مكانه.. كانت تربيته قد حقَّقت مع حادثة الصقر والدجاجة قفزةً نوعية ذاتَ بال.. فالأشياء المتحركة كلُّها لحمٌ صالح للأكل، غير أن منها ما يدع نفسه يؤكل دون إبداء مقاومة، كالفراخ التي التهمها داخل العش، ومنها ما يبدي مقاومةً تنقص أو تزيد، كالدجاجة التي كاد يظفر بها لولا قلة حيلته وانعدام تجربته، ومنها أخيراً الكائنات الكبيرة– كالصقر– التي يجب أن يَحْذَرَها، لأنها ترى فيه هو نفسه لحماً صالحاً للأكل.. أما النوعان الأولان، فليسا بذَيْ خطر.. وعاد يفكر بالدجاجة القطبية فيما يشبه الحسرة.. لقد أخذها منه الصقر رغم أنفه، لكنه لن يعدم فرصة للعثور على أخت لها...

كان هناك منحدرٌ صغير ينتهي إلى ضفة الجدول، فتبعه الجرو حتى بلغه.. لم يكن قد رأى ماءً من قبل، وبدا له أن المشي على الصفحة الملساء المنبسطة أمامه لن يكون– كمثيله على الأرض الخضراء– صعباً متعثراً تعوقه الحفر وتتخلله المفاجآت، فتَقَدَّمَ غائصاً في الماء حتى كتفيه..

تملك الجروَ الهلع، وبدأ يعوي فزعاً من ذلك العنصر الغريب الذي ما لبث أن دخل مع الهواء رئتيه، مُحدثاً فيهما انسداداً شعر المسكين– ولم يعرف الموت– أنه الموت عينه.. لم تكن لديه فكرةٌ واضحة عمَّا يعنيه الموت، لكنه، شأنُه في ذلك شأنُ سكانِ الشمال البارد جميعاً، كان يستشعر رهبتَه غريزياً، دون أن يعلم عن كنهه شيئاً، سوى أنه أعظمُ الآلام جميعاً وغايةُ ما يمكن أن يقع له من سيئِ الحوادث وعظيم الأذى.. كان يخاف ذلك الشيءَ المجهول بالقدر نفسه الذي كان يجهل به ماهيتَه.. يخافه دون أن يتساءل كيف ولا لماذا؟.. يخافه وكفى...

صعد جسمه تحت دفع الماء إلى أعلى، فعاد الهواء يتدفق في رئتيه ويعيد إليه الأمل في العيش.. ولم يترك نفسه يغرق هذه المرة،

بل شرع يضرب الماء بقوائمه، وكأنه قد دُرِّب على ذلك تدريباً، وبدأ يسبح. غير أنه لم يلتفت إلى الضفة القريبة خلفه، بل سبح محاولاً بلوغ الضفة المقابلة، الوحيدة التي كانت تظهر لعينيه.. وكان التيار في الجدول قوياً، تغذيه الثلوج الذائبة في الأعالي، فما أصبح الجرو في وسط المجرى البالغ اتساعه في ذلك المكان نحو سبعة أمتار، حتى جرفه الماء..

ارتبك الصغير أمام هذا العنصر غريب الأطوار الذي كان هادئاً قبل لحظات، وإذا به ينقلب فجأة وحشاً مجنوناً يدفعه مطوحاً بجسمه في كل اتجاه.. وأنساه ارتباكه متابعة السباحة، فسار منجرفاً مع التيار، مرتطماً تارة بالأحجار في قاع الجدول، بارزاً طوراً إلى سطحه الفائر، وعواؤه المتقطع يمزق السكون..

بلغ الجدول مكاناً متسعاً نسبياً يشكل بحيرة صغيرة انداح التيار فيها وضاع في أحشائها، فوجد الجرو نفسه يضطجع على فراش من الحصا بالقرب من الضفة، فنهض قائماً وركض خارجاً من الماء حتى بلغ اليابسة، واستلقى على العشب الأخضر وراح يلهث مسترجعاً أنفاسه.. كانت معرفته بالعالم قد زادت غنى واتساعاً بتلك التجربة كشأنه مع سابقاتها، فَتَعَلَّمَ أن الماء، وإنْ يكن شيئاً غير حي، إلاَّ أنه يتحرك تماماً كما تفعل الأشياء الحية ؛ وهو، وإنْ بدا صلباً كاليابسة، إلاَّ أن سطحه رخو لا يصلح للمشي عليه.. والخلاصة أن مَخْبَر الأشياء ليس دوماً مطابقاً لمظهرها..

هكذا بدأ خوفُه الموروثُ مجهولُ المصدر يجد على أرض الواقع مبررات عدةً من أهمها أن المظاهر لا تنبئ دائماً عن كل شيء، وأن الحكمة تقتضي عدم التسليم بكل ما لم يُخضَعْ بعد للتجربة...

على أن مغامرة أخيرة كانت لا تزال بانتظار الجرو. فقد تذكر أمه فجأة، وغمره شعور طارئ بحاجته إليها أكثر من أي شيء

آخر.. كانت أحداث اليوم قد أنهكته، وهَدَّت جسده وأصابت ذهنه الغض بالتعب.. ولا غرو، فقد رأى في يومه ذاك ما لم يره طيلة أيام حياته السابقة كلها مجتمعة.. ولم يعد يحتمل مزيداً، وشرع النعاس يدب في أجفانه، فانطلق يعدو باحثاً عن طريقٍ يعود منها إلى المغارة وقد تملكه إحساسٌ أليم بالضياع والوحدة..

فجأة سمع صرخة غريبة، وتراقصت بقعة صفراء أمام عينيه.. كان ذاك "ابن عُرس" مرق مبتعداً.. وصنَّفه الجروُ سريعاً في النوع غير الخطر، فلم يشعر بأدنى خوف. ثم لمح بغتة شيئاً ضئيل الحجم يتحرك عند قدميه.. كان الحيوانُ صغيرَ الأنثى الهاربة. ورأى الصغيرُ الجروَ فحاول الهرب، لكن الجرو كان أسرع منه، فضربه بقائمته، وإذا به يُصدِر صفيراً غريباً لم يلبث أنِ تلته صرخة كتلك التي سمعها الذئب الفتى بادئ الأمر. وما هي إلاّ لحظة حتى تلقى صدمة على جانب جسمه كادت تطيح به أرضاً، فيما انغرزت أسنانٌ دقيقةٌ في عنقه..

تراجع الجرو مرتاعاً وهو يصرخ من الألم، فأفلتته الأنثى الهائجة وانقضت على صغيرها واختطفته واختفت به بين الأعشاب، تاركة الذئب الصبي واقفاً مكانه، مستشعراً لجرحِ كرامته ألماً يفوق ألمه لجرح جلد عنقه، فأقعى وراح يئن في حزن وغضب.. كيف لشيءٍ صغير كهذا أن يكون بكل تلك الشراسة والعنف؟.. لم يكن بطبيعة الحال يدري أن "ابن عرس" هو أشرس ساكني الشمال جميعاً وأكثرها دمويةً وعنفاً..

غير أنه لم يُكتَب لجهله أن يُعَمِّرَ طويلاً، إذ ما أن مضت بضعُ لحظات حتى عادت الأنثى الضاريةُ إلى الظهور. لكنها الساعة– وقد أضحىَ وحيدها في أمان– لم تنقَضَّ على خصمها مهاجمةً كما فعلت من قبل، بل تقدمت صوبه بحذر واحتراس، فيما الجرو يراقب تقدمها، متأملاً الجسد المرن الملتوي كجسد أفعى.. ونفش شعره

وزمجر، منبئاً إياها باستعداده للقائها، لكنها واصلت تقدُّمَها الحـــذِر.. وفجأة، انقضت عليه بسرعة لم يتوقعها، فما يشعر إلا وهـــي معلقـــةٌ برقبته وقد أنشبت أسنانَها في لحمه الغض..

حاول الجرو المقاومة بادئ الأمر، لكنه كان غير ذي تجربة، فلم يطل به الأمر أنِ انقلبت زمجرته أنيناً وقتالُه صراعا للإفـــلات مـــن الأنياب الحادة الموجعة.. أما أنثى "ابن عرس" الغاضبة، فلم تفرج ما بين فكيها، بل راحت على العكس من ذلك تبحث عن الوريد النابض بالدم والحياة لتشرب حمولتَه الدسمة.. فـــ"ابن عرسٍ" مصاصُ دمـــاءٍ ليس لشراهته ولا نهمه نظير..

كان من الممكن أن يموت الجرو اختناقاً بين أنياب "ابن عرس"، فلا يعود هناك من مسوغ لكتابة قصة حياته القصيرة، لولا أن الذئبة الأم خرجت فجأة من حيث لا يدري أحد، وانقـــضت علـــى الكاســـر الصغير وهي تزمجر غاضبة..

أفلت "ابن عرس" رقبة الجرو منقضاً في اللحظة التاليـــة علـــى عنق الأم، ليخطئه ويمسك بفكها، فتنفض الذئبة رأسها بعنف جاعلـــة خصمها الصغير يطير في الهواء، وتتلقفه بين فكيها فيما هو عائد إلى الأرض، وتضع حداً لحياته..

تلقى الذئب يومها فيضاً من الحنان من أمه التـــي بـــدت أســـعد بعثورها عليه منه هو بعودته إليها، فلعقت جرح عنقه طويلاً قبل أن يقتسم الاثنان لحم "ابن عرس" القتيل ثم يقفلا عائدين إلى جحرهما...

الفصل الثامن

قانون اللحم

كان نمو الذئب الصبي سريعاً وفضوله في تزايد. فبعد فترة راحة لم تتجاوز اليومين، عاد إلى المغامرة. وكان أولُ ما لقي صغيرَ أنثى "ابن عرس" التي قتلتها أمه قبل يومين، فلم يتردد في التهامه.. وقضى بقية نهاره في التجوال حول المغارة التي أصبح الآن يعرف طريق العودة إليها، حين حل به التعب، عاد إلى جحره فاستلقى بانتظار عودة أمه.. ومن ساعتها أصبحت النزهة اليومية التي يتسع نطاقها باستمرار، مكوّناً رئيساً من مكونات حياته، ومن ثَمَّ نموِّه النفسي والجسدي..

أصبح أَحَدَّ وعْياً بمكامن قوّته ومواطن ضعفه، يعلم متى تفيد الجرأة ومتى يَجْمُلُ التراجع.. وكان الحذرُ السمةَ الغالبة على طبعه، اللهم إلاَّ من سويعات يتلهى فيها– حين يسعفه الحظ بحيوان أصغر منه حجماً وغيرِ ذي ناب كـ"ابن عرس"– باللعب بفريسته كما يشاء قبل الشروع بالتهامها.. غير أنه ما من شيء كان يثير هياجه كمرأى دجاجة قطبية.. عندها يتحول وحشاً كاسراً ينط كالمسعور، محاولاً بكل الوسائل الإمساك بالطائر الذي يذكِّره بأولى هزائمه.. وكلما مر بمنطقة "السنجاب" الذي لقيه يوم غادر جحره لأول مرة، يسارع القارض الصغير إلى ارتقاء جذع أقرب شجرة يجدها، ثم يشرع يكيل السباب له على طريقته، بصرخات رفيعة غاضبة. لكن الجرو لم يكن يعيره إهتماماً؛ أما الدجاج البري، فلم يكن يطيق صبراً حين يرى طائراً منه..

غير أنه كانت ثمة لحظات ليس بوسع الدجاجة القطبية نفسها أن تشد خلالها انتباهه.. كانت تلك اللحظاتُ التي كان يشعر خلالها بأن خطراً يحدق به.. لم تكن ذكرى الصقر قد انمَّحت من ذهنه- وأنَّى لها أن تنمحي- فكان يسارع للاختفاء ما إن يرتسم ظلُّ طائرٍ في السماء..

أما مشيته، فقد ذهب اضطرابها واستقامت. أو قُلْ إنها أصبحت أشبه بمشية أمه الجانبية المُخاتِلة التي تبدو بها لسرعتها المدهشة وكأنها تطير عن ظهر الأرض، فتكاد لا تلمسها..

لم تزد غنائمه من القنص عن السبعةِ أفراخ وصغيرِ "ابن عرسٍ" شيئاً يُذكر.. كان يخطط للظفر بجاره "السنجابِ" متسلقِ الأشجار ذي الذيلِ المفلطح واللسانِ البذيء، لكن القارض كان يرقى جذعَ شجرةٍ بأسرعَ ممَّا يصعَّدُ طائرٌ في السماء، فأدرك أنه لن يتمكن منه إلاَّ إذا فَاجَأه وهو على الأرض؛ فتركه وقد أضمر له شراً..

كان الجرو يكن في نفسه لأمه الذئبة احتراماً عميقاً. فهي تعرف كيف تجد اللحم، ولم يفُتْها يوماً أن تأتيَه بنصيب منه.. وهي لم تكن بالإضافة إلى ذلك تخشى شيئاً.. كان يجهل أن ما بدا له أمراً عجباً- من نجاحها في كل ما تفعله، ومن شجاعتها وقوتها- لم يكن سوى خلاصة تجربة طويلة وغنية لا تزال مثيلتها تنتظره، فبدت الذئبة لعينيه غاية في القوة، ذات سطوة ومقدرة لا حدود لهما.. وزاد من احترامه لها أنْ أصبحت بمرور الزمن أكثر صرامة في تربيته، فلم تعد تكتفي بالأنف ولا حتى بالقائمة تضربه بها، بل أصبحت كلما دعت الضرورة إلى ذلك تكيل له عضاتٍ مؤلمةً زادته تبجيلاً لها ورهبة..

وحلت فترة مجاعة جديدة عاشها الصغير هذه المرة بوعي تام.. كانت الذئبة الأم نادراً مًا تقضي ليلها بالمغارة، في سعيها الدؤوب وراء طريدة لا وجود لها، حتى ضمر جسمها وتقعر كفلاها.. ولم تدم المجاعة طويلاً، غير أنها كانت مطلَقَة، فلم يذق الجرو خلالها نقطة لبن ولا مضغة لحم، حتى اضطُر إلى الخروج للقنص بنفسه، لكن لا للَّعب هذه المرة، بل بحثاً عمَّا يُقيم به أوده.. ولم يفز من صيده بنتيجة، لكنه استفاد الكثير من تجربته تلك، فتعلَّمَ كيف يرقب "السنجاب" ليعرف عاداته، كي يستطيع نصْبَ كمينٍ له والظفرَ به، واقتفى أثر فئران الغابة، فحَفَرَ الأرضَ خلفها بقوائمه محاولاً استخراجها من جحورها، وتعلَّمَ الكثير عن عادات نقَّار الخشب والدجاج البري.. وجاء يومٌ لم يعد فيه ظلُّ الصقر نفسُه يجعله يعدو باحثاً عن مخبأ يحتمي به.. كان قد أضحى أقوى من ذي قبل وأكثر حنكةً وثقة بنفسه.. وكان إلى ذلك كله جائعاً، مستعداً لعمل أي شيء في سبيل الحصول على لقمة.. وبلغ به الأمر أن جلس مرة مقعياً في وسط الطريق، بادياً للعيان، ناصباً بذلك فخاً للجارح الحائم فوقه. ولا غرو، فهو يعلَم أن ذلك الخطر الطائر لا يعدو في الواقع كونَه لحماً تطلبه معدتُه بإلحاح.. لحمٌ شهي وإنْ وقَفَت دونه المخالبُ الحادة والمنقار القوي.. غير أن الصقر لم يقبل التحدي، وبقي محلقاً في سمائه، فسار الجرو مبتعداً وذيله منحشر بين قائمتيه، وهو يئن أنيناً وشى بما يكابده من جوع..

عادت الذئبة ذات يوم بطريدة غريبة، فقد جاءت تحمل بين فكيها أحد صغار القطة البرية التي قتلت "وحيد العين" ذات يوم.. وتركت الأم لابنها جثةَ الصغير– الذي كان في نحو سنه، وإن يكن

أصغر منه حجماً- فالتهمه جذلاً وهو لا يدري أن أمه قد التهمت باقي إخوته، ولا ما يعنيه ذلك كله من خطر ماحقٍ ما كانت الذئبة لتستجلبه لنفسها ووليدها لولا عضة الجوع القاسية...

أكَلَ بِنَهَمٍ يليق بجوعه الطويل، فأتى في دقائق على القط الصغير ذي الفروة المخملية.. وامتلأت معدته، فارتخت عضلاته منتظرة وصول نصيب كل منها من الغذاء. وداعب النعاس جفنيه، فالتفَّ على نفسه واستسلم في حضن أمه الدافئ إلى نوم عميق لم يذق مثله مُذْ بَدَأت المجاعة..

لكن نومه لم يطل، إذ سرعان ما أفاق منه مرتعباً على صوت زمجرة رهيبة أصدرتها أمه. والحَقُّ أنها ربما كان أقوى صوت نـدَّ عن الذئبة طوال حياتها المتوحشة.. ولا غرو، فهي كانت تعلم حق العلم أنْ لا نجاة لمنْ تجرأ ونهب وكرَ "وشق" من العقاب..

وبالفعل، كانت القطةُ الثكلى واقفةً تملأُ بجسمها مدخل المغارة الضيق.. ورآها الجرو فانتفش شعر فروته وانتفض قائماً وهو يزأر، ووقف لصق أمه، متأهبا للقتال إلى جانبها. لكن الذئبة رفسته بقائمتها فردَّته إلى الخلف، ووقفت تواجه وحدها القطة الضخمة التي لم يُمَكِّنها مدخلُ المغارة الضيق الملتوي من الانقضاض على غريمتها، فدخلت زحفاً على بطنها، وما أن أصبح جسمها داخل الجحر حتى انقضت الذئبة عليها. وبدأ عراك شرس لم يتبين الجروُ أول الأمر من خلال غباره الكثيف شيئاً، إذ التحمت الغريمتان بضراوةٍ وعنف عزَّ نظيرُهما، في قتالٍ كان سلاح القطة فيه مخالبها وأسنانها الحادة، في حين اعتمدت الذئبةُ على نابيها وحدهما..

استجمع الجرو شجاعته وانقض فجأة مطبقاً على إحدى قائمتي القطة الخلفيتين بأنيابه. وتمسك بالقائمة لحظات قدَّمَ خلالها عن غير

علم منه مساعدة كبيرة إلى أمه. غير أنه ما لبث أن وجد نفسه، إثر جذبة عنيفة من القطة، في قلب المعركة، رازحاً تحت ثقل الغريمتين المشتبكتين، فشرع يعوي مرتعباً..

انفصلت العدوّتان لحظة قصيرة بقيتا خلالها تتبادلان النظر لاهثتين في أثر أنفاسهما المتقطعة، واغتنمتها القطة فرصةً فَكالَت للجرو من قائمتها الأمامية ضربةً ارتطمت لِشدّتِها رؤوسُ مخالبها المدببةُ بعظم كتفه، فتدحرج إلى أقصى المغارة وعواؤه يملأ فضاءها الضيق، مضيفاً ضوضاءه إلى فحيح المعركة وهمهمتها وهريرها..

عوى الجرو طويلاً لشدة ألمه. وحين توقف أخيراً عن الصراخ، كانت المعركة لا تزال مستمرة..واجتاحته موجة شجاعة جديدة، فعاد يرتمي على إحدى قوائم القطة، وبقي متشبثا بها حتى انتهى الصراع الدامي الشرس..

أسلمت القطة الروح أخيراً، لكن بعد أن أذاقت غريمتها الأمرّين، فتركتها وهي إلى الموت أقرب منها إلى الحياة.. وحاولت الذئبة لعق جرح وحيدها والتخفيف عنه جرياً على عادتها، لكنها كانت قد أصبحت– لفرط ما فقدت من دمٍ– من الضعف في غاية، فعادت تضع رأسها على الأرض.. وبقيت مكانها جنب جسد غريمتها الساكن يوماً بليلته لا تكاد تبدي حراكاً، متنفسة بجهد كبير وصوتٍ كالحشرجة..

مضى أسبوع كامل لم تكد الذئبة تغادر خلاله جحرها إلا لتشرب في الجدول القريب ثم تعود بخطوات ثقيلة متعبة لتستلقي مكانها.. غير أن جراحها بدأت تلتئم، وعافيتها تعود. فما انتهت ووليدَها من التهام جثة "الوشق" حتى كانت قد أصبحت قادرة على الخروج للصيد..

أما الجرو، فبقي أياماً يعرج من ألم الجرح الغائر في كتفه، لكنه أصبح الآن يطالع العالم من حوله بعينين جديدتين تماماً... فتحت لـه معركته وأمَّه ضد "الوشق" آفاقاً جديدة ما كانت لتخطر له قبلا ببـال، فراح ينطلق للصيد بقلب غير هيَّاب ولا وجِل.. أوَلَمْ يَخُضْ معركـةً خرج منها ظافراً بعد أن أنشب أنيابه في جسم عدوٍّ أقوى منه مراساً بكثير وأشدَّ بأساً؟..

طفا التغيير على صفحة سلوكه، فـانعكس فـي مـشيته التـي أصبحت توحي بقدر أكبر من الثقة بالنفس، بل صار فيها مـا يـشبه استفزازاً متعمداً لم يكن معهوداً لديه من ذي قبل.. لم يعد أقل صوت يخيفه، ولا أدنى حركة تفعم فؤاده رعباً. ولئن كان خوفه الغريـزي من المجهول ساكناً مكانه من حنايا نفسه لا يبرحه، فإن جزءه القديم قد ولى إلى غير رجعة..

أصبح يرافق أمه في جولات صيدها، فشهد مقتل العديـد مـن الطرائد، ولم يلبث أن انتقل بدوره من مكان المتفرج المنـدهش إلـى مرتبة الجلاد الذي يساهم بالفعل في عملية الإعدام.. كانـت تربيتـه تكتمل رويداً، ووعيه بما يحيطه يزداد يوماً عن يـوم حـدة، فبـدت الكائنات الحية في نظره منقسمة قسمين يشكل هـو وأمـه أولَهمـا، ويشكل الثانيَ كُلُّ ما عداهما من الأحياء.. وينـشطر القـسم الثـاني بدوره شطرين يضم أولهما الكائنات التي يأكلها وأمُّـه فـي تَـوانٍ، وتُكوِّن ثانيهما تلك التي لن تتردد في التهامه وأمه لو قهرتهمـا فـي معركة.. وعن هذا التصنيف تنتج قاعدةٌ مؤداها أنه يجب القتل لأجل الحصول على طعام، وأن اللحم يعيش من اللحم والحياةَ من الحيـاة، وملخصها أنه ليس لك إلا أن تأكُلَ أو تُؤْكلُ، وأن كلَّ حيٍّ هو إما آكلٌ أو مأكول.. كانت تلك القاعدةَ التي تعلمها الذئب الفتى واتخذها نبراساً

دون أن يدري.. فهو يذكر أنه أكل فراخ الدجاجة البرية وكاد– لولا قلة تجربته– يأكلُ الدجاجةَ نفسها.. ويذكر أن الصقر ظفر بها فأكلها، وكان لاشك آكلَه هو أيضاً لو طاله.. ثم أصبح هو نفسه بعد زمن يطمع بأكل لحم الصقر.. وبعدها أكل صغيرَ القطة البرية، ولو ظفرت به القطة هو لأكلته، لكنها قُتِلَتْ فأُكِلَتْ.. صار ذاك ناموسَ الأشياء في نظره، يخضع له كل حيٍ.. أصبح القتلُ ضرورةً من ضرورات حياته؛ فهو لم يكن بإمكانه التغذي على شيء غير اللحم، واللحم كان يعدو أمامه فيسبقه أو يتسلق شجرة أو يرتقي متن الهواء، أو يختفي تحت الأرض فيبتعد عن متناوله، كما كان بين الفينة والفينة يقبل التحدي فيواجهه، أو يلاحقه طامعاً في لحمه، فيصبح هو ذاته طريدةً مرتعبة تبحث لنفسها عن مخبأ..

ولو أتيح له أن يتفلسف كما يفعل بنو البشر، فربما اختصر الحياة في شهيةٍ لا تشبع، والعالمَ في بهوٍ واسع تتناحر في أرجائه شهواتٌ متضاربة، ويعمره القاتل والمقتول والجلاد والضحية معاً، مختلطين ببعضهم في اضطرابٍ ولهوجة، شخوصاً في مأساة مذبحةِ الوجود الأزلية التي يكتب الحظُ الأعمى فصولَها وتحكي الشراسةُ والعنف الدموي مشاهدَها المتكررة..

لكن الجرو لم يكن يولي الأشياء تلك النظرة المتفلسفة.. كان يكفيه من المعرفة إشارةٌ ومن الدافع رغبة.. كان قانون اللحم هو السائد، غير أن الحياة لم تكن لتخلوَ من عدد من الأشياء الصغيرة التي يَحسُن الاهتمام بها ومعرفتها.. كما أن العالم يحفل بالكثير من المفاجآت التي كان يلذ للجرو الصغير أن يلاحظ ردة فعله عند كل منها.. فللمطاردة حين يلعب هو دور الجلاد إثارةٌ ونشوة، كما أن لها إن كان هو الطريدةَ الهاربة ما يشبه اللذة المتولدة عن خوض الصراع من أجل البقاء..

ثم إن كل عناء كانت تليه مكافأة، كما كان يسبق كلَّ متعة عناء. فالاستلقاء أرضاً والاستمتاع بالنوم يتطلب بطناً مليئة، وامتلاءُ البطن لابد أن تسبقه مطاردة وأن يتلوَ المطاردة صراع؛ والصراعُ نفسُه متعةٌ لا تضاهيها متعة، وفي ذلك كله ما يبرر الاستمرار في العيش والتمسك بالبقاء..

كان الذئب الفتي يطالع العالمَ المحيطَ به بنفسٍ مليئة بالثقة، راضية عن الحياة، مستعدة للقتال دونها بكل استماتة وتصميم..

الفصل التاسع

آلـهـة النـار

كان اللقاء مفاجئاً.. والحق أن الخطأ كان خطأ الجرو الذي خرج من جحره دون حذر، فسار- ولم يتشممْ هـواءً ولا أصـاخ الـسمعَ لأصوات- نحو الجدول القريب الذي اعتاد أن يروي فيه ظمأه. فما إن تجاوز شجرة الأرز الميتة الواقفة وسط منفرج الغابة، حتى وجد نفسه أمام خمسة أشياء حية لم يكن قد رأى لها من قبل مثيلاً.. كانت تلك أولَ مرة يرى فيها الجروُ كائنات بشرية.. وأدهشته الأشياء الحية الغريبة التي لم تزمجر ولا تحركَتْ من مكانها، بل بقيت صـامتة ترقبه في سكون..

جمد بدوره مكانه لا يبدي حراكاً.. والحق أنه ودَّ لـو اسـتطاع الحركة، إذن لانطلق هارباً لا يلوي على شيء، كما كانت غريزتـه تدفع به أن يفعل. لكنه لم يستطع ولا أسعفته على ذلك حواسه.. كان يشعر بقُوًى غريبة عاتية لا تقاوَم، تأمره أن ابقَ مكانك.. أحس بمـا يشبه الدونية أمام عَظَمة لا حدود لها انتصبت أمامه فجأة، فهَرَسَـت بجبروتها شجاعَتَه، مُحيلَةً إياها في لحظة مَذَلَّةً وخنوعاً.. كان خاضعاً لتأثير قوى آتية من بعيد، من حيث لا يدري..

لم يكن قد رأى إنساناً من قبلُ، غير أن غريـزة الخـوف مـن الإنسان كانت تسكنه.. تملكه شعور غامض بأن من يقف أمامه هـو الكائن الذي قهر حيوانات أرض الشمال جميعاً.. لم يكن- وهو ينظر إلى المخلوقات العجيبة المنتصبة أمامه- يراها بعينيه هو، بل بعينـي أسلافه.. عيني الأجيال العديدة من الذئاب التي أحاطت آلاف المرات

عبر العصور، بأعينها اللامعة البراقة، نارَ مخيمٍ وسط ثلوج الـشتاء الشمالي البارد، أو تتبعَتْ– خلالَ فُرجةٍ بين الأشجار– تلك الكائنـات الغريبة المنتصبة على قدمين، التي لم يثْنها كونُهـا أضـعفَ سـكانَ الشمال جميعاً وأبطأها عـدْواً وأخلاهـا مـن الأنيـاب والمخالـب والأجنحة، عن السيطرة المطلقة علـى مـا عـداها مـن الكائنـات وقَهْرِها...

كان كل ذلك الميراث الثقيل من الخوف والإعجـاب والفـضول ومختلفِ العواطف التي تجدها الحيوانات حيال الكائن البشري، أثقلت جسد الذئب الفتي، مسمِّرة إياه حيث هو دون حراك.. ولو كان مكانَه ذئبٌ بالغ مجرِّب، لما تردد في الفرار من الإنسان. لكنه كـان غـراً غير ذي تجربة، فما زاد على أن انبطح أرضاً في استسلام وجـزَع، وكأنه بذلك يعلن عن قبوله الإذعانَ للإنسان والخضوعَ له، تماماً كما أذعن أولُ ذئب دنا ذات يوم بعيد من نار بني البشر ليتدفأ بها...

قام أحد الرجال– وكانوا هنودا حمراً– فـسار متجهـاً صـوب الحيوان الذي ازداد التصاقا بالأرض.. ومد الرجل يده نحوه، فـشعر الجرو بالجزع الذي كان مستولياً عليه ينقلب هلَعاً من خطر مـاحق، فانتفش شعر فروته، وكشر عن أنيابه الشابة..

توقفت اليد التي كانت في طريقها إلى ظهره، واستدار صـاحبها صوب رفاقِه وهو يقول ضاحكاً:

– انظروا إلى هذه الأنياب البيضاء..

فانفجر الآخرون ضاحكين، وأوعزوا إلى صاحبهم أن يـداعب الجرو..

عادت اليد تقترب منه، فنفـرت بداخلـه رغبتـان متناقـضتان تتنازعانه، تَحُثُّه أولاهما علـى المقاومـة، وتـدعوه الثانيـة إلـى الاستسلام.. وانتهى به الأمر إلى اتخاذ حلٍّ وسط، فبقي ساكناً، حتى

إذا لمست أنامل اليد أطراف شعر فروته، استدار فأطبق بأنيابه عليها، أو تخيل أنه قد فَعَل، إذ لم تنطبق الأنياب على غير الهــواء، وفــي اللحظة التالية تلقى الجروُ لطمةً على جانب رأسه جعلَته ينقلب مكانَه ثم يقوم وقد أقلع عن كل رغبة في المقاومة، فاستسلم منهزماً بــسبب صغر سنه وانعدام تجربته، وأيضاً تحت إلحاح تلك الرغبة الغامــضة التي كان يشعر بها، قويةً طاغية، تدعوه إلى الاستسلام. وبقي مكانه يئن متوجعاً، غير أن الهندي كان لا يزال غاضباً منه، فتلقى الجــروُ لطمةً جديدة على الجانب الآخر من رأسه انقلب لها جسمه متدحرجاً، استعاد توازنه وأقعى من جديد وعواؤه يزداد حدَّةً وارتفاعاً..

كان الهنود الخمسة يحيطون بالجرو، ضــاحكين مــن ارتباكــه وجزعه، فلم يزده ضحكهم إلاَّ ارتباكاً، فراح يعوي.. وفجأة تنــاهى إلى أذنه صوتٌ سمعه الهنود بدورهم. وعرف الجرو الصوت فأطلق صرخة امتزج فيها الخوف بالأمل، ثم استكان منتظراً وصول أمــه.. أمه الذئبة القوية التي تعرف كيف تقاتل وكيف تفتك بكل ما يقف في طريقها وطريقه.. أمه الحنون التي سمعت صوت اســتغاثته فهَبَّــت لنجدته..

ما لبثت الذئبة أن انقَضَّت بغتة وسط دائرة الرجال المــذعورين هادرةً مزمجرة.. كانت– لخوفها على وحيدها– فريسةَ موجةِ غضب عاتية جعلت شكلها مخيفاً، بيد أن ذلك المنظر ملأ قلبَ الجرو حُبوراً، فارتمى على أمه جَذِلاً، فيما تراجعت الحيوانات البشرية في خــوف ودهشة...

ألصقت الذئبة جسدها بجسد وحيدها معانقــة، وبــدأت تتــشممه وتلعق فروته وكأنها تتأكد من سلامتَه، ثم استدارت مواجِهةً الرجــال الخمسة وقد انفرج مشفراها عن تكشيرة مهدِّدة كادت تَــصِلُ جــانبَي فمِها بعينيها، وراحت تزمجر..

وفجأة صاح أحد الهنود قائلاً:

– انظروا!.. إنها "كيش"!..

أحس الجرو فجأة تغييراً طرأ على أمه حين سمعَت الرجل ينطق ذلك الاسم الغريب.. بدت وكأنها فقدت لِسَماعه الكثيرَ من ثقتها بنفسها ومن شراستها المعهودة..

عاد الرجل يكرر منادياً بصوت جاء هذه المرة آمـراً متكبـراً، صوتَ السيد المطاع:

– "كيش" .!

فرأى الجرو أمه بعينين غير مصدقتين– أمه القوية المتكبرة التي لا تخشى شيئا– تنبطح حتى يمس بطنها الأرض، وهي تئن بـصوت خفيض، وتهز ذيلها علامةَ الخضوع!

تجاوزته الأحداث وقهرَتْ منطقه البسيط، وعاد إليه خوفه مـن الإنسان بأشد مما كان.. أضحى على يقين من أن الرهبة الغريزيـة التي استشعرها تجاهه لأوّلِ وهلة كانت في محلهـا.. وهـاهي أمـه تعطيه بنفسها الدليل على ذَلك.. أَلَمْ تنحنِ الذئبة القويـة دون تـردد إجلالاً لذلك الكائن الجبار إثر كلمة واحدة نطق بها؟

اقترب الهندي الذي نطق باسم الذئبة، ووضع يده علـى رأسـها وبدأ يداعب فروتها، فلم تزدد إلا انبطاحاً ولم يندَّ عنها ما يشي بأدنى رغبة في المقاومة، فاقترب الآخرون وبدأوا يداعبونها بدورهم، وهي خاضعة لا تبدي حراكاً..

راح الجرو يراقبهم. كانوا يصدرون أصواتاً كثيرة من أفواههم، لكنه لم يجد في تلك الأصوات ما يشي بعداء ولا بخطـر، فـاقترب واضطجع جنب أمه، محاولاً التغلب على القـشعريرة التـي كانـت تسري بين الفينة والأخرى في أوصاله..

كان الرجال يتحدثون عن الذئبة، فقال أحدهم:

– ليس في احتفاظها بالذكرى من غرابة. فلا تنسوا أن أمها كلبةٌ

كانت ملك أخي، ربطها إلى شجرة في الغابة ثلاث ليـال متعاقبـة.. وأبو "كيش" ذئبٌ متوحش ما في ذلك من جدال، لكـن أمَّهـا كلبـةٌ داجنة..

قال أحد رفاقه ملاحظاً:

– لقد مرت سنة كاملة على فرارها أيها "القندس الرمادي"..

أجاب "القندس الرمادي":

– أجل يا "لسان السلمون". لقد فرت أيام المجاعة، وقتَ أنْ لـم يعد لدينا ما نطعم الكلاب..

قال هندي ثالث معقباً:

– عاشت مُنذُ ذلكَ الحين مع الذئاب..

أجابه "القندس الرمادي":

– نعم يا "ثلاثة نسور". وإليك الدليل..

قال ذلك ووضع يده على ظهر الجرو مداعباً..

ندت عن الجرو لمَلْمَس اليد زمجرةٌ لاإرادية فرأى اليدَ تتراجـع على إثرها لتَكيل له لطمةً جعلته يعود سريعاً إلى استسلامه. راحـت تعبث بشعر فروته مما يلي الأذنين، فيما عاد "القندس الرمادي" يقول مكرراً:

– أجل.. هذا هو الدليل. أم هذا الجرو هي "كيش"، ما في ذلـك شك. أما أبوه، فهو أحد ذئاب هذه البرية الفسيحة.. ولذلك ففيـه مـن الكلب قليلٌ ومن الذئب الكثيرُ.. و"أبيض الناب" سيكون اسمه.. هكـذا قرَّرْتُ، أنا "القندسَ الرمادي".. ألَيْسَ الجرو ابن "كيش"، كلبة أخي ؟.. أوَليس أخي الميت أنا وريثَه الوحيد ؟..

هكذا أصبح للجرو اسم خاص به– بل ومالـك أيـضاً– دون أن يدري عن ذلك جميعه شيئاً.. بقي مكانه يرقـب الكائنـات الآدميـة الغريبة فيما هي تواصِل إصدارَ الأصوات من أفواهها..

بعد فترة، قام "القندس الرمادي" واستخرج من منطقته سكيناً راح يقتطع بها من إحدى الأشجار القريبة عصا، ثم أحدث في كلا طرفي العصا ثقبا أدخل فيه حزاما من الجلد. كل ذلك وعينا الجرو لا تفارقانه.. فلما انتهى من تهيئة قيده ربط عنق الذئبة إلى أحد طرفي العصا، وربط الطرف الآخر إلى جذع شجرة..

تبع الجرو أمه إلى مربطها واضطجع إلى جانبها، مد "لسان السلمون" يده وشرع– تحت أنظار الذئبة القلقة– يدحرج جسده الصغير مداعباً.. وتملك الخوف الجرو من جديد، فندَّ عنه على رغمه زئيرٌ خافت، لكنه لم يجرؤ على عض اليد التي قلبته على ظهره وبدأت تعبث بشعر بطنه..

كان يجد لذلك العبث وذلك الوضع المقلوب الذي ألفى نفسه عليه فجأة، والذي تأباه عليه غريزته كل الإباء، ما يشبه الثورة في داخله، لكنه لم يدرِ كيف يعبر عن شعوره، فبقي مرتبكاً وهو على وعي تام بأنه، في الوضع الذي هو عليه، أضعف ما يكون، وأن الحيوان البشري لو أراد به شراً لما عاقه عن ذلك عائق.. كان– وهو منقلب على ظهره وقوائمه تفحص الهواء بارتباك– عاجزاً حتى عن مجرد الفرار لو شاء.. وتغلَّبَ على خوفه بجهد، لكنه لم يستطع كظم الزمجرة اللاإرادية الخافتة التي كانت تنبعث من حلقه..

بدا وكأن الإنسان الذي كان يداعبه أدرك ما به، فلم يضربه، بل شرع يدغدغ فَرْوَ رأسه، منحدراً من الأمام إلى الخلف ثم مُصَعِّداً، وأنامله المرنة تتخلل الشعر الكثيف حتى مفرق الأذنين، مورثةً الجروَ من ذلك قشعريرةً وجد لها لذةً غريبة لم يسبق له الإحساس بمثلها.. ولم يلبث أن ألفى نفسه وقد نسي خوفه وزايَلَه اضطرابُه.. حتى الزمجرة ماتت في حلقه، ولم يعد له من شاغل إلا أن يتابع باهتمام وتلذُّذٍ مسرى اليد الزاحفة على جسده.. واستمر الهندي يداعب رأس

الجرو ويعبث بفروته دقائق قام بعدها تاركاً إياه وقد وجد لمَلْمَس اليد أُلفةً جعلته يستشعر لقيام صاحبها وابتعاده عنه حسرةً وأسفاً.. ولــئن كُتب للجرو أن يذوق فيما بعد الرعب والألم ألواناً على يد البَشَر، إلا أن ذلك اللقاء كان بمثابة مقدمة للتفاهم التام والوئام الذي سيقوم بينـــه الإنسان وبينه...

بعد قليل، سمع الجرو ضوضاء وجلبةً أنبأته تجربتُــه الحديثــة أنهما من فعل الحيوان البشري. ولم يمض وقت طويل حتى وصـــل بالفعل باقي أفراد القبيلة.. كانوا نحواً من الأربعين بين رجال ونساء وأطفال، محمّلين جميعاً بمتاعهم.. وكان هناك أيضاً بعض الكــلاب التي كانت– عدا الصغار منها– مُحمّلةً أثقالاً كأصحابها، إذ رُبِطــت على ظهر كلٍّ منها رزمةٌ وزنها نحوٌ من عشرين كيلو غراماً، شُدَّت بأحزمة جلدية لُفَّت حول كتفيه وبطنه.. ولم يكن "أبيض النــاب" قــد رأى كلاباً من قبل، لكنه أدرك لتَوِّه أن التي أمامـــه حيوانـــات مـــن فصيلته نفسها، رغم الاختلافات الشكلية..

أما الكلاب، فإن مرأى الذئبة وجرْوَها أورثها هياجاً فانقــضت عليهما..

انتفش شعر الجرو وندَّت عنه زمجرة غاضبة، ثم دخل المعركة دون تردد، مطبقاً أنيابه على كل ما يجده أمامـــه. وغمرتـــه موجـــة الكلاب الزاحفة فانقلب متدحرجاً، موزعاً العضات ذات اليمين وذات الشمال، ومتلقياً عدداً مؤلماً منها في كل جزء من جـــسمه.. كانـــت معركةً رهيبة ضارية وقصيرة في الوقت ذاته.. وسمع الجرو زئيـــر أمه وهي تخوض القتال إلى جانبه، يحُدُّ من حركتها قيدُها الخـــشبي، ثم صياح الحيوانات البشرية حين تدخلت لوضع حد للقتـــال حاملـــةً العصي في أيديها. وتعالت من هنا وهناك صرخة كلب تلقَّى ضـــربةً من هراوة..

مر كل شيء بسرعة، ووجد الجرو نفسه واقفاً مكانه والحيوانات البشرية تدفع عن أمه وعنه قطيع الكلاب الهائجة، مستعملة في ذلك العصي والحجارة.. ورغم أنه لم تكن لديه أدنى فكرة عما يعنيه الإنصاف، إلا أنه أدرك بطريقة غامضة أن الكائنات البشرية قد اقتصت له من ظالميه، ووَقَرَ في ذهنه أن لتلك الكائنات الجبارة قوانينَها التي لا ينبغي له ولا لمثله من الحيوانات عصيانها ولا خرْقُ نواميسها، وإلاّ عرَّضَ الفاعل نفسه لغضب الحيوانات البشرية التي لا تملك أنياباً ولا مخالب، لكنها تعرف كيف تستعيض عن كل ذلك بالأشياء غير الحية التي كانت أيديها الحاذقة المرنة تجعلها تطير في الهواء تماماً مثل الأشياء الحية الطائرة فَتُصيبُ وتوجع.. كان ذلك بنظره عنوانَ قدرةٍ عجيبة غير مفهومة.. قدرة كقدرة الآلهة.. ولئن كان الجرو لا يدري- بحكم طبيعته- شيئاً عن الألوهية، فإن ما وجده حيال الإنسان من خوف ورهبة ودهشة كان يشبه- بالمقياس البشري- ما قد يستشعره امرؤ يرى ملاكاً منتصباً أمامه على قمة جبل يمسك بالصواعق ويرمي بها العالم من حوله ..

انتهى الهنود من صَدِّ آخر كلب عن الذئبة وجَرْوِها، فعَمَّ الهدوء، واستطاع الجرو أن ينتبه لجراحه، فبدأ يلعقها وهو يستعيد ذكرى المعركة ويستلهم دروسها.. لم يكن قد خطر له من قبل أن عدد أفراد الجنس الذي ينتمي إليه يجاوز الثلاثة، باحتساب "وحيد العين" أبيه.. كان يخال نفسَهُ وأمَّه وأباه يُشَكِّلون لوحدهم فصيلةً قائمة بذاتها، فإذا به يكتشف لهم العديد من الأشباه.. أشباه لم يترددوا في الانقضاض عليه وعلى أمِّه من غير سابق عداء ولا حتى معرفة.. ووجد لذلك العداء غير المبرر شيئاً كالحسرة في داخله..

غير أن ما آلمه حقاً هو رؤيةُ أمه مُقيَّدةً إلى جذع الشجرة.. لم يكن ذلك يروق له رغم علمه أنها إرادةُ الكائن البشري.. كان فيه ما

يشبه الفخ، وكانت تفوح منه رائحة العبودية؛ وهو شيء لم يألفه الجرو الذي اعتاد حتى اليوم أن يعدوَ حيث يشاء ويعودَ للنوم وقتما أحسَّ حاجةً إلى راحة.. أما الآن، فإن حريته تبدو في خطر. فأمه لا تستطيع الذهاب أبعد مما يسمح به طولُ العصا التي تربطها إلى الشجرة، وهي عصا تربطه هو بدوره بحبلٍ غير مرئي إلى الشجرة ذاتها. فهو لم يكن ليخطر له أن العيش بعيداً عن أمه شيءٌ ممكن..

كان متذمراً من ذلك، لكن تذمره انقلب هلعاً حين تحركت القبيلة مواصلة سيرها، فجاء كائنٌ بشري أمسَكَ بطرف العصا التي شُدَّت إليها أمُه، لتتبعه الذئبة صاغرة..

سار الركب والجرو خلف أمه، وشعورٌ يتملك نفسه بالقلق من تلك المغامرة الجديدة التي وجد نفسه بغتة يدخلها مرغماً...

سار أفراد القبيلة مع انحدار الوادي، متجاوزين مكان جحر الجرو وأمه، حتى إذا بلغوا ملتقى الجدول بنهر "ماكنزي"، حيث كانت قواربهم تنتظرهم مُعَلَّقةً على رؤوس حراب قد غُرست أطرافها في الأرض اللينة جنب النهر، ألقَوا رِحالهم وانشغلوا بنصب مخيمهم بينما الجرو يتابع ما يفعلون بعيون منبهرة.. كان تَفَوُّقُ الكائنات البشرية يزيد بمرور الوقت جلاءً ووضوحاً.. وقد أبْهَرَهُ- غير سيطرتها المطلقة على الكلاب- ما كان يراه من قدرتها العجيبة على إعطاء الحركة والحياة للأشياء الميتة، وعلى تغيير شكل محيطها بحذق وبَراعة، وهو ما كانت تمتلئ نفسُه له عجباً ورهبة..

أثارت عمليةُ نصب الخيام فضولَ الجرو وانتباهه.. فلئن كان دَقُّ الأعُمدة في الأرض لتبقى قائمةً مكانها شيئاً غير ذي بال- قياساً بالقدرةَ على إضفاء الحياة على الأشياء الميتة- فإن نصبَ الخيام فوق تلك الأعمدة بدا له شيئاً رهيباً، وبخاصة حين بدأت الريح تنفخ في تلك الأجسام الكبيرة الرخوة فتعطيها تموجاً في انتفاخ في انكماش

طار لها فؤاده جَزَعاً.. بدت الخيامُ له حيوانات في منتهى الضخامة تمَّ نصبُها هناك لتملأ عليه الأفق وتسُدَّ عليه منافذ الهرب، فانبطح أرضاً وراح يُجيل عينيه بينها وقد عقد العزم على الفرار حالما يرى إحداها متجهةً صوبه..

غير أنه ما لبث أن رأى الحيوانات البشرية- حتى الصغيرة منها- تدخل بطنَ تلك الأشياء الضخمة وتخرج دون أن يمسَّها من ذلك أذى، فسري عنه ذلك قليلاً وأفرخ بعض روعه.. وبقي يراقب الخيام، فلاحظ أن دخولها محرمٌ على الكلاب، إذ ما إن يقتربُ كلب من مدخل إحداها حتى يُطرد عنه بأصوات عالية أو بأشياء ميتة طائرة..

مضت لحظات ثم زحف الجرو بحذر، مبتعداً عن أمه السجينة، يدفعه فضولُ الطفولة وتعطشُها الدائم للمزيد من التجارب. وسار حتى دنا من جدار أقرب خيمة إليه، فأدنى منه أنفه باحتراس متزايد حتى لمسه وهو مستعد لكل الاحتمالات. فلما لم يقع شيء ازداد جرأةً فعضَّ طرفَ الثوب الغليظ عضةً خفيفة لم تَتْلُها ردةُ فعل، فجذبه إليه بلطف، فما زادت الخيمة على أن اضطربت قليلاً، وعلا سطحَها بعضُ التموج ثم عادت إلى هدوئها، فعاد الجرو يمسك بطرف الثوب بين أنيابه ويجذبه بحدة متزايدة، حتى بدأت الخيمة تتراقص كلها متموجة. وفجأة ندت صيحة غاضبة عن هندية من داخل الخيمة، فانقلب يعدو إلى جوار أمه مرتعباً. غير أنه كان قد استفاد من تجربته، إذ لم تَعُدْ أشباحُ الخيام الضخمةُ المتموجة تبث الهلع في نفسه..

مضت لحظات استرجع خلالها أنفاسه، ثم قام وسار ثانية مبتعداً. غير أنه ما كاد يفعل ذلك حتى وجد نفسه في مواجهة جرو أكبر منه سناً وأضخم جسماً، راح يقترب منه وهو يختال في مشيته زهواً وعجباً..

كان الجرو "ليب–ليب"، كما سيعلم "أبيض الناب" ذلك فيما بعـد، جرواً مشاكساً لا يني يتعارك مع الصغار من بني جلدته.. كان مـن جنس الكلاب الذئبية، عظيم الجسم– علـى صـغر سـنه– ضـخم التقاطيع.. ولم ير منه "أبيض الناب" علامةً مـن علامـات العـداء المعروفة لديه، فبقي مكانه، مستعداً لاستقبال صديقه الجديـد بـصدر رحب.. لكنه ما لبث أن رأى شعر الجرو ينتفش وجسمه يتوتر، فَعَلَتْه بدوره قشعريرة، وبدأ الاثنان يدوران حول بعضهما.. وخالَ الـذئبُ لِلَحظة أن صديقه الجديد يداعبه، فما يدري إلا والكلب ينقض عليـه ويعضّه في كتفه عضة مؤلمة جعلته يتراجع متوجعاً وقد ندت عنـه صرخة امتزجت فيها الدهشة بالألم.. وشَلَّت المفاجأةُ أوْصالَه لحظة، لكنه في اللحظة التالية كان ينقض على خصمه ويَكيل له بدوره عضة أوْدَعَها كل غيظه وخيبةِ أمله..

كان "ليب–ليب" جرواً محنكاً قضى عمره الشاب جميعَـه فـي العراك مع أترابه. فما هي إلا لحظات حتى كال لـ"أبيض الناب" كيلاً من العضات المؤلمة، جعلته يولي الأدبار في هزيمة مخجلة، واضعاً بذلك حداً لمعركة لن تكون سوى الأولى من سلسلة مـن المعـارك الطويلة التي سيخوضها الخصمان ضـد بعـضهما طيلـة حياتهمـا المشتركة، عنوانَ ما بين طبيعتيهما من تنافر..

لعقت "كيش" جسد ابنها بحنان، وحاولت إبقاءه إلى جانبها. لكـن الذئب الشاب كان فريسةً لفضول لا يشبع؛ فما مضت دقـائق علـى مغامرته تلك حتى كان يمضي باحثاً عن أخرى..

التقى صدفة بأحد الحيوانات البشرية. كان ذاك "القندسَ الرمادي" الذي كان منهمكاً بصنع شيء مًّا ببعض الأغصان وبعض الحـشائش الجافة، فاقترب الجرو وبدأ يراقب الكائن العجيب الذي نـدت عنـه

أصوات أنبأت نبرتُها "أبيضَ الناب" بأنها لم تكن معادية. فزاد اقتراباً منه..

وجاء بعض الصِّبية يحملون أغصاناً أخرى وضعوها بين يــدي الرجل ثم انصرفوا..

كان الأمر يبدو ذا بال.. وبلغ الفضول بالجرو منتهاه، فأنساه أن الذي أمامه هو أحد الكائنات البشرية الجبارة المخيفة، فراح يدنو حتى كاد يلمس ركبة الهندي..

فجأة، لمعت بين يَدَي الرجل شرارة ثم أخرى، وشــاهد الجــرو ظلمةً غريبة تخرج من بين الأعشاب الميتة، ثـم رأى شـيئاً بلـون الشمس يتراقص وسطها..

لم يكن الذئب الصبي يعلم ما النار.. واجتذبه النور المتــراقص كما اجتذبه يوما جِدار الضوء في جحره، فراح- كما فعـل يومهـا- يزحف نحوه.. ورنّت في أذنيه ضحكة ندت عن الهندي، لـم تلتقطـا فيها ما يشي بعداء ولا بانتهار، فواصل تقدمه الحذِر، ومد أنفه يتشمم لسان النور المتراقص، مخرجاً في الوقت ذاتــه لـِسانه يلعقــه بــه متذوقاً..

مضت ثانية بقي الجرو خلالها كالمشلول لا يبدي حراكـاً، فقـد أمسكت القوى الجبارة غير المرئية- التي يبدو أنها كانت مختبئة بين جدائل الأعشاب الميتة- بأنفه وطفقت تشده بعنف لم ير المسكين مـن قبل له نظيراً. ثم تراجع وهو يعوي بهياج نـمَّ عـن ألمــه الـشديد ودهشته، فيما راحت أمه العاجزة عن الوصول إليه ومساعدته ترقص بهياج مماثل على رأس العصا التي كانـت تـشدها إلـى شـجرتها الضخمة.. أما الهندي، فقد انخرط في الضحك وراح يقهقه مبتهجـاً بالتجربة الفريدة التي أُتيح له أن يشهدها.. ولما استعاد هدوءَه شـرع يروي الحكاية للجميع، مثيراً عاصفة من الضحك في المخيم، في حين بقي الذئب الصغير مكانه يئن متوجعاً وسط هزء الجميع وسخريتهم..

لم يسبق له أن عرف ألماً بتلك الحدة.. فأنفه وطرف لسانه كانا يلسعانه بشكل فظيع، وكأنهما قد اقتلعا من مكانهما اقتلاعاً عقب أن لمسهما ذلك الشيء الأصفر اللامع الذي رآه يولد بين يدي الحيوان الآدمي.. راح يعوي بلا انقطاع، يتخلل عواءه صوت ضحك الحيوانات الآدمية الساخرة.. وحاول التخفيف من ألم أنفه بأن لعقه بطرف لسانه، لكنه لم يفلح سوى في إذكاء الوجع بالعضوين المحترقين، فعاد إلى عوائه..

وبغتة تملكه الخجل.. لم يكن يفهم معنى الضحك، لكنه حدس مغزاه.. والحق أنْ لا أحد يدري كيف تتوصل الحيوانات إلى إدراك مغزى الضحك، لكن لا شك في أنها تتوصل إلى ذلك.. وقد أدرك الذئب الفتي، بوسيلة مَّا، أن الكائنات البشرية كانت تهزأ به؛ ووجد في ذلك خجلاً أليما، فدار على عقبيه وولى هارباً– لا من النار، بل من ذلك الضحك الذي كان يهز كيانه ويجرح كبرياءه بقسوة أشدَّ إيلاماً من لسع النار – حتى أقعى جنب أمه التي كانت تواصل رقصها الهائج على رأس قيدها الخشبي..

أمه.. الكائن الوحيد الذي لم يكن ساعتئذ يسخر منه...

حل الغروب ثم الليل، والذئب لا يزال يعاني من ألم حروقه، فبقي مضطجعاً قرب أمه وهو يشعر– إضافة إلى ألمه– بما يشبه فراغاً كبيراً رددت صداه حنايا روحه الشابة.. أين يا ترى هي المغارةُ الآمنة إلى جوار الجدول الهادئ؟.. كان ذلك يبدو بعيداً وسط الضوضاء التي كان يعج بها المخيم المكتظ رجالاً ونساء وصِبْيَة وكلاباً لا تتوقف عن العراك وكأن بينها ثأراً لا ينتهي، في فوضى متصلة جعلت الجرو يشعر أن أيام عزلته الهادئة في جحره البعيد قد ولَّت إلى غير رجعة.. كان كل شيء حوله ينبض بالحياة؛ حتى الهواء كان يحمل أصواتاً وهمهماتٍ وروائحَ لا حصر لها، جعلت أعصابَه متوترةً وحواسَّه في تَنَبُّه مستمر..

كان ينظر إلى الحيوانات الآدمية وهي تذرع المخيم جيئةً وذهاباً، كما ينظر الإنسان إلى إلهٍ صنعه بيده وطفق يعبده متهجداً.. كان الهنود الحمر يتمتعون بقدرات عجيبة بدت لعينيه خارقةً لا تُضاهَى، فرآهم كائناتٍ متفوقةً لا حدود لسطوتها وجبروتها، تماماً كما يبدو الإله الحجريُ لعيني عابده.. كائنات تمتلك قوىً مجهولة تستطيع بواسطتها التحكم بكلِ ما يحيطها وإخضاعه لإرادتها، وتحريكَ الأشياء الميتة، وخلْقَ ذلك الشيء الأصفر المتراقص ذي اللسعة الحامية..

كانت الكائنات البشرية آلهة النار..

كانت آلهة وكفى..

الفصل العاشر

العبـوديــة

كان كلُّ يومٍ جديد يبزغ حاملاً لـ"أبيض النـاب" جديـداً. فقـد استمر الذئب– ما بقيت أمه رهينة قيدها الخشبي– في القيام بجولاتـه الاستكشافية الصغيرة عبر المخيم، منقباً يميناً ويـساراً، مراقبـاً مـا حوله، متعلماً من كل ما يرى. فلم يمض عليه طويلُ وقـتٍ إلا وقـد عرف الكثير عن عادات بني البشر وأحوالهم، فما زادته معرفتـه إلا احتراماً لتلك الكائنات التي تبرهن في كل لحظة عن تفوقهـا البـاهر على كل ما عداها من الأحياء، وتُرَسِّخُ يقينـه باسـتحقاقها المرتبـة الرفيعة التي أحَلَّها إياها من أول وهلة...

الحق أن الإنسان كثيراً ما يرى هياكلَ آلهته ومعابـدَها وهـي تتهدم، ومعتقداته وهي تخضع للتغيير بعد أن يظهر منها الخَطَل.. أما الجرو– شأنه في ذلك شأن جميع من خضع من بني عمومته للإنسان واختار العيش في حماه– كان الأمر لديه مختلفـاً، إذ علـى عكـس الإنسان الذي يُخفي عنه خيالُه مَعالمَ آلهته وراء قناعٍ كثيـف لُحْمَتُـه القوةُ الخارقة وسداه الطيبةُ التي لا حدود لها، فـإن الكـلاب وبـاقي الحيوانات التي تُقْعي بين يدي الكائن البشري، ترى آلهتهـا أمامهـا، آلهةً من لحمٍ ودم، تحتل مكانها من الفـضاء وتُعبِّـر عـن إرادتهـا ورغباتها، فتثيبُ وتعاقب في الحال عن كل شاردة وكل واردة.. آلهة لا يستدعي الإيمانُ بها أيَّ مجهود كما لا تُغني محاولةُ إنكار وجودها شيئاً.. فهي تقف هناك منتصبة على قوائمهـا الخلفيـة وهراواتُهـا بأيديها، قويةً مسيطرةً جبارةً تمتلك سرَّ الوجود ويكسوها لحمٌ صـالحٌ للأكل، إذ يسيل منه الدم إذا جُرِح...

كانت الكائنات البشرية آلهةً ما في ذلك من مراء..آلهة لا حدود لقدرتها.. وكما أبدت "كيش" الطاعةَ والخضوع من أول لحظة سمعتْ فيها إحدى تلك الكائنات تناديها باسمها، كذلك لم يتردد "أبيض الناب" في الإعلان من البدء عن إذعانه، فكان يتبــع الحيوانــات البــشرية صاغراً إذا دعته، ويُفسح لها بلا تردد إن قاطعت طريقهــا طريقَــه، ويسرع مجيباً حين يناديه أحدها، منبطحاً أرضاً إذا استشعر في نبرة صوته غضباً، مبتعداً إن أُمر بذلك.. فالكائنات البشرية كانت تحرص كل الحرص على أن يُطاع كلُّ أمر تتفوه به، معاقبةً بقسوة لا تعرف الرحمةَ كلَّ من سولت له نفسه العصيان، متوسلة إلى ذلك "حُجَجًا" من نوع خاص، تبدأ بالضربة الخفيفة من اليد، وتنتهي بالسوط المــؤلم، مروراً بكل أصناف الأشياء الميتة التي تطير في الهــواء فتــصيب فتوجِع..

كان– شأنه في ذلك شأن بقية كلاب المخيم– ملْكَ يمين الحيوانات البشرية، تملكُ جسمه وتتحكم بإرادته؛ ولها أن تركَله متــى شــاءت فترمي به بعيدا، أو أن تدعوَه فيقترب صاغراً.. كان ملْكَ إرادتهــا، وكان وعيُه بذلك يولِّد لديه نفوراً طبيعياً سرعان ما بدأ يفسح المجال لنوع من الألفة ما عتم بدوره أن شرع ينقلب حباً..

أجل، بدأ الذئب الفتي يعشق عبوديته.. وَجَدَ راحةً فــي الإلقــاء بعبء معيشته على كاهل غيره وايلائه أمرَ قوته وحمايتِــه، وكأنمــا ألفى في ذلك الاتكال المريح نوعــاً مــن التعــويض عــن حريتــه المفقودة...

غير أن استسلامه لقدره لم يبلغ ذلك المبلغ بين عشية وضحاها. فحمولته من الوحشية المتوارثة، وذكرى حياته الحرة بــين أحــضان طبيعة قاسية ومنعزلة، كل ذلك كان يعاوده بين الفينة والأخرى، فكان يتسلل حتى الغابة القريبة ويقف عند حاشيتها ساكناً، مصيخاً الــسمع لنداءٍ بعيد.. غير أنه كان في كل مرة يستدير عائداً إلى المخيم فيمــا

صراع شرس يستعر في دواخله، فيقعي جنب "كيش" الحبيسة ويرفع عقيرته بعواء حزين، ملتفتاً من حين لآخر نحو أمه ليلعق وجهها وكأنه يطالبها بتفسير لما يعتمل في نفسه...

مضى الزمن بطيئاً، وسرعان ما اعتاد "أبيض الناب" حياة المخيم وعَرِفَ عنها الكثير.. لم يفته أن يلاحظ نهم الكلاب البالغة وظُلْمَها لغيرِها من الجراء والضعاف ساعة يحينُ وقت الأكل فيُرمى إليها بلحم أو سمك. وتعلم كذلك أن الرجال كانوا- بشكل عام- أميَلَ إلى الإنصاف، والصبيانَ إلى القسوة، والنساءَ إلى الرحمة، حيث كنَّ الوحيدات اللواتي يمْكنُ انتظارُ عظمٍ أو حتى قطعةِ لحمٍ منهن خارج أوقات الأكل.. أما الإناث التي كانت لها جراء صغيرة، فإن لقاءين عاصفين اثنين لا ثالث لهما مع اثنتين منها كانا كافيين لإقناع الذئب الصغير بأن من الحكمة العملُ على اجتنابها، فكانْ يتحاشى الاقتراب منها ما استطاع..

غير أن مصيبته العظمى وطامّته الكبرى كانت تتمثل في الجرو "ليب-ليب". فقد وجد الجرو المشاكس- الذي كان بحكم سنه أقوى من "أبيض الناب" جسداً وأمتن بنية- وجد في الذئب الفتي بُغْيَتَه، بصفته الوحيدَ من بين الجراء الذي لا تستطيع أمه الانبراء لنجدته إن سمعت لاستغاثته صوتاً.. والحق أن الذئب كان يقاتل- حين يُفرض عليه القتال- بكل بسالة واستماتة، لكن ذلك ما كان ليجديَه نفعاً أمام قوة خصمه الطاغية، فلم يلبث أن أصبح الجرو كابوساً حقيقياً جاثماً على صدر الذئب البائس، قاطعاً عليه الطريق كلما رآه يبتعد عن مربط أمه، منتهزاً كل فرصة يجد نفسه وإياه فيها منفردين بعيداً عن مرأى الكائنات البشرية، ليرغمه على دخول صراع يخرج الذئب منه في كل مرة منهزماً.. وسرعان ما أصبحت تلك عادة يتلذذ "ليب-ليب" بممارستها، ويعاني منها غريمه الأمرَّين..

غير أن "أبيض الناب" لم يستسلم.. ولئن كان يعاني في كل مرة من ألم العض ومرارة الهزيمة، فإن شجاعته لم تفارقه قط.. أورثته المعارك المتتالية مع الجرو طبعاً مشاكساً لن يفارقه ما دام كان حياً.. حرمته مطاردة "ليب-ليب" المتواصلة إياه لذة اللعب مع أترابه، فلم يعرف لتلك اللذة طعماً، وأورثه ذلك انطواءً على نفسه وانعزالاً عن الآخرين سيجعلانه بدورهما أكثر نضجاً من سنه بكثير.. تطوَّرَ ذكاؤه حيث حُرم جسدُه نعمة المرح والانطلاق، وتطورت مَلَكَة المكر لديه بتوفر الوقت اللازم لوضع الخطط وتنفيذها؛ وتعلم الغش حيث لم تَجْده الاستقامةُ فتيلا، فأصبح- إذْ مُنِعَ نصيبَه من اللحم لدى التوزيع- لصاً ماهراً سرعان ما جعلت منه عملياتُ سطوه المنفَّذَة بدقة متناهية، طامةً جَأَرَتْ منها ربات البيوت بالشكوى.. وتعلم أيضاً كيف يبلغ هدفه بطرق ملتوية، وكيف يندس خفيةً إلى داخل خيمة ثم ينسل منها هارباً بعد أن ينال وطره مما يعثر به من لحم أو سمكٍ. بل وبلغ به المكر أن أصبح يلجأ- لردِّ أذى الجرو "ليب-ليب" عنه- إلى خدع غاية في الإحكام والدهاء، مكّنته إحداها من تذوُّق طعم أول انتصار له على عدوه اللدود.. وكما فعلت "كيش" يوماً بكلاب "هنري" وصديقه، نجح "أبيض الناب" في إيقاع خصمه بالحيلة تحت أنياب أمه المربوطة إلى شجرتها..

ذات يوم، وبينما الجرو يلاحقه بين الخيام على عادته، بدأ يدخل- وعدوُّه في أعقابه- خيمةً ثم يخرج منها ليدخل أخرى، مارقاً بين الخيام بخفة، حريصاً- لعلمه بكونه أسرعَ عَدْوًا من غريمه، بل ومن جرّاء المخيم جميعاً- على البقاء قريباً من متناوله، إمعاناً منه في إغرائه..

وانطلق "ليب-ليب" يعدو خلف ملهاته المفضلة، منتشياً بتفوقه، وذيلُ خصمه على خطوة منه يزيد حماسَه التهاباً، فما يدري- وهو يدور من خلف خيمة- إلا وهو في قبضة "كيش"، فأطلق صرخةَ رعبٍ لم تُجدِه شيئاً، إذ أطبقت عليه الأنياب القاسية دون رحمة..

لم يكن من السهل الفكاك من الذئبة الغاضبة رغم كونها مشدودة إلى جذع الشجرة، فقد قلبَت الجرو على ظهره بخفة وإحكام، ثم راحت تكيل له في بطنه سيلاً من العضات المؤلمة..

استطاع "ليب-ليب" التخلص بعد عناء من الأنياب المنتقمة، فتدحرج بعيداً، ثم نهض واقفاً وقد انتفش شعر فروته وعلاه التراب وظهرت آثار عضات "كيش" واضحة على جانبي بطنه.. ووجد في ذلك ألماً في جسده وفي كبريائه، فرفع عقيرته بعواء لم يدَعْه "أبيض الناب" يستمر طويلاً، إذ سرعان ما انقض على الجرو وعض إحدى قائمتيه الخلفيتين بقسوة متناهية. لكن "ليب-ليب" كان قد فقد كل رغبة في العراك، فانفلت من غريمه وولى هارباً وعواؤه يملأ الفضاء، وخصمه المنتشي بلذة النصر الجديدة يلاحقه، فما أنجاه منه إلا بضعُ نسوة رمين الذئب بالحجارة، فعاد أدراجه فرحاً..

وجاء أخيراً يومٌ قَدَّرَ فيه "القندس الرمادي" أن الذئبة لن تفكر بالفرار إن هو أطلقها، ففك قيدها الخشبي أمام عيني الجرو الذي كاد يجن فرحاً لذلك.. وراح "أبيض الناب" يذرع صحبة أمه أرجاء المخيم فخوراً برداء حمايتها الذي عاد ينسدل عليه دافئاً مطَمْئناً.. أما "ليب-ليب"، فقد بات يتحاشى لقاء غريمه وأمه، فلم يفز الذئب من محاولاته العديدة استفزازَه بطائل، بل كان يبدو وكأنه لا يعير اهتماماً لمشية خصمه المختالة عمداً حين يلتقيه، ولا للزمجرة المتحدية التي كان يصدرها كلما مر بجانبه.. والواقع أن الرغبة في الانتقام كانت تعتمل عارمةً في نفس الكلب، لكنه كان أحصف من أن يهاجم عدوه وهو في حماية أمه الذئبة الشرسة، فصبر كاظماً غيظه وراح ينتظر فرصةَ الظفر به وحيداً..

بلغت بالذئب وأمه نزهتُهما إلى أطراف الغابة عشية ذلك اليوم.. كان الجرو وراء وصولهما إلى هناك، فهو مَن جر أمه بهدوء، خطوة خطوة، نحو الأشجار الكثيفة.. لكن الذئبة ما إن وصلا مدخل الغابة رفضت التقدم إلى الأمام، فسار الجرو مبتعداً خطوات علّها تتبعه..

كانت ذكرى المغارة والجدول والمنفرَج وسط الغابة تناديه بإلحاح، وكان يود لو تصحبه أمه في استجابته لندائها.. والتفت صوبها.. كانت لا تزال في مكانها لم تتحول عنه.. وندت عنه أنة شاكية، وراح يعدو هنا وهناك بين الأشجار، لكن الذئبة لم تُبْد حراكاً، فعاد إليها وطفق يلعق أنفها وفمها، ثم ابتعد ثانية وهو يعدو قبل أن يستدير نحوها مستعطفاً، غير أنها لم تلن لاستعطافه ولا أبدت ما ينم عن نيتها تَعَقُبَه.. ورآها تلتفت مصوبةً نظرَها باتجاه المخيم.. كانت هي أيضاً تسمع النداء الخفي الذي كان جروها يتحرق شوقاً إلى الاستجابة له، غير أنه كان يصل إليها ضعيفاً متقطعاً، يطغى عليه نداءٌ آخرُ أقوى وأشد وضوحاً، يدعوها إلى الإنسان ودفء ناره، وهو النداء الذي لم يُتَح لغير الذئب وابن عمه الكلب البري أن يسمعه ويستجيبَ له..

عادت الذئبة أدراجها إلى المخيم.. كانت هيمنةُ الآلهة البشرية عليها تشدها إلى صحبتها بخيطٍ لا يُرى، لكنه أمْتَنُ وأشد قوة وصلابة من العصا التي كانت تربطها من قبل إلى شجرتها.. لم يكن أحد من الكائنات البشرية موجوداً فيما حولّها، لكنِ تأثيرها كان حاضراً بقوة، وكأن كل ما يحيط بمخيماتها من هواء يُشَكِّلُ امتداداً لذواتها..

أما "أبيض الناب"، فأقعى مكانه وبدأ يئن بصوت خفيض..

كانت رائحة الأرز النفاذة وباقي الروائح المنبعثة من الغابة تذكره بطفولته المرحة المنطلقة وجحره الهادئ المنعزل.. غير أنه كان لما يزل طفلاً، وما يربطه بأمه أقوى من نداء الطبيعة ونداء الإنسان مجتمعين. فقد عاش مرتبطاً بها طيلة حياته الماضية، ولمّا تحنْ بعد ساعةُ استقلاله عنها. لذلك لم تمض لحظات حتى قام من مكانه فاتجه بدوره صوب المخيم.. وتوقف في طريق عودته مرة أو مرتين، ملقياً نظرة إلى الوراء، مصغياً لنداء الحرية، وفي حلقه تتردد أنَّةٌ حزينة خافتة...

لا تبقى حيوانات أرض الشمال المتوحشة طويلاً في حضن أمهاتها. أما إذا كانت تلك الحيوانات تعيش تحت هيمنة الإنسان، فإن فترة الحضانة تلك تكون أقصر بكثير.. ولم يكن شأن "أبيض الناب" في ذلك ليختلف عن شأن غيره. فقد قرر "ثلاثة نسور"– الذي كان له دين في رقبة "القندس الرمادي"– الرحيل إلى بحيرة "العبد" قرب منابع نهر "ماكنزي"، فأدى له "القندس" دينه حزاماً من قماش أحمر وجلدَ دبٍّ وعشرين رصاصة و.."كيش"..

ورأى الجرو أمَّه والهنديُّ يجرها إلى قاربه حيث أركبها إلى جوار بقية متاعه، فحاول اللحاق بها، لكن الرجل رده بعنف إلى الأرض ثم سار مبتعداً بزورقه عن الضفة، فرمى "أبيض الناب" بنفسه إلى الماء دون تردد وشرع يسبح في أثره، غيرَ مُعيرٍ اهتماماً لنداءات "القندس الرمادي" المتكررة.. فحتى إرادةُ الإله البشري نفسه لم تعد ذات وزن أمام جزع الجرو لفقد أمه..

غير أن الآلهة البشرية لا تقبل أن يُعصى لها أمر. فقد سارع "القندس الرمادي" يمتطي ظهر قارب راح يحرك مجدافه بسرعة وإحكام لاحقاً بالجرو، فما لبث أن أدركه ورفعه من جلد قفاه؛ لكنه لم يضعه على أرض القارب، بل شرع– وهو ممسك به معلقاً في ذلك الوضع– يكيل له ضربات موجعة متتالية أصيبَ لها الجرو بادئ الأمر بدهشة ملكت عليه نفسه، ثم بخوف شُلت له أطرافه، وأخيراً طغى الغضب على تلك المشاعر جميعاً، فبدأ يزمجر في وجه الإله الممسك به معلقاً في الفضاء، فكانت النتيجة أن زادت الضرباتُ عدداً ووقعُها إيلاماً..

استمر الرجل يوالي الضربات لـ"أبيض الناب"، والذئب يزأر مزمجراً.. غير أنه لم يكن من الممكن أن يدوم الأمر على ذلك المنوال.. كان لا بد أن يعلن أحد الطرفين هزيمته.. وانهزم الذئب.. أعلن عن تسليمه بوسيلته الخاصة، فرفع عقيرته بعواء طويل انقلب

عويلاً متواصلاً لم ينقطع حتى حينما أمسكت اليد عن ضربه.. وبدا على السيد أخيراً أنه رضي عن نتيجة علقته الساخنة، فرمى به إلى أحد أركان القارب، ومد يده إلى المجداف يتناوله، فصادف أن كان الجرو مقعياً على طرفه، فحمله الهندي بيده ورمى به بعيداً بعنف لم يتمالك حياله الجرو نفسه فكال عضة لتلك اليد التي تقسو في معاملته...

تلا ذلك عقاب لا تقاس به الضربات الأولى التي غدت تبدو الآن كالمداعبة قياساً بما كان يتلقى من اليد والرِّجل والمجداف معاً من لطمات رضَّت عظامه رضا.. وعاد الرجل- بعد أن انتهى من ضربه ورمى به ثانية إلى أرض القارب- فضربه عن قصد، منتظراً ردة فعله. لكن الجرو تحاشى الرد هذه المرة، فقد تعلم درساً قاسياً مفاده أنه من المُحرم- في كل حال وأيّا كانت الظروف- مسُّ جسد الكائن الإله بسوء، وأن في ذلك جريمةً تُعرِّض مقترفها لأشد العقوبات وأقساها..

عاد القارب إلى الضفة، فبقي مكانه لا يبدي حراكاً، بانتظار ما يأمر به السيد.. وجاء الأمر في صيغة قذفة عنيفة رمت به فوق اليابسة، فأيقظت الصدمة آلامه وقام متعثراً وهو يرتعد..

غير بعيد، كان "ليب-ليب" كامناً يراقب ما يقع، فما كاد الجرو ينهض قائماً حتى وجده ينقض عليه فيقلبه على ظهره وينشب أنيابه في لحم بطنه الطري..

لم يكن "أبيض الناب" في حال تسمح له بالدفاع عن نفسه. ولولا أن أسعفه "القندس الرمادي" برفسة كالها للكلب فرمت به بعيداً، لذاق من عدوِّه في يومه مُرَّ العذاب.. وقام فتعقب خطى سيده وقشعريرة عرفان تسري في أوصاله، حتى بلغ الهندي خيمته فدخلها، فأقعى الجرو عند بابها وقد تعلَّم درساً جديداً من دروس عبوديته، مؤداه أن حق الثواب والعقاب وَقْفٌ على الكائنات البشرية، تحتكره ولا تسمح لأيٍّ من الكائنات الأخرى بممارسته..

حين ساد السكون المخيمَ تلك الليلة، تذكَّرَ أمه فبكى لــذكراها.. بكى بصوت عالٍ أيقظ "القندس الرمادي" فخرج غاضــباً وضــربه، فتعلم من يومها أن يكظم مشاعره في محضر الآلهة، فكان كلما اشتد به الشوق إلى أمه، ينسلّ ويمضي حتى طرف الغابة، فيطلق العنـــان لحزنه وحسرته، مالئاً الفضاء من حوله عويلاً..

قد كان بإمكانه– خلال تلك الفترة– أن يترك المخــيم ويمــضي لسبيله لو شاء. وقد حاول وكاد يفعل، لكنه كان في كل مــرة يعــود طمعاً بلقاء أمه.. فكما كانت الكائنات البشرية تذهب للصيد بعيداً ثــم تعود، كذلك كان لديه أمل في أن تعود أمه إليه يوماً، وهو الأمل الذي جعله بهدوء ودون علم منه يعتاد عبوديته..

الحق أن العبودية لم تكن لتخلوَ في الواقع من جوانــب طيبــة. فحياة المخيم حافلةٌ بعدد لا حصر له من الأحداث، حقيرها والخطير، كان الجرو يتعلم من كلٍّ منها شيئاً أو أشياء.. أضف إلى ذلك ما كان يولده لديه سلوك الحيوانات البشرية من فضول متزايد. وفــوق هــذا وذاك، كونه تعلم أخيراً كيف يتصرف بحسب مــا يرضـــي ســـيده.. فــ"القندس الرمادي" لم يكن يطلب شيئاً سوى طاعة مطلقة عميــاء، يحصل الحيوان في مقابلها على الحماية والرعاية والطعام.. وحــين كان الهندي يرمي إليه بقطعة من اللحم ويطرد عنه الكــلاب حتـــى يلتهمَها آمناً، كان يجد لتلك البضعة لذةً لا تضاهيها لذةُ عشر وجبات كاملة من يد إحدى النساء.. لم يكن الرجل يدغدغ جسده مــداعباً ولا كان يهدهده بكلمة لطيفة، غير أن شيئا مَّا– لعله ضربات الرجــل أو إنصافه الصارم أو جبروته المطلق أو كل تلك مجتمعةً– جَعَل له في حياة الذئب الفتي مكاناً متميزاً.. ورويداً بدأت أواصرُ ألفة عميقة تنشأ فيما بينهما.. شيئاً فشيئاً، كانت شبكةٌ غير مرئية– نُسجَت خيوطها من ضربات العصا والحجر ومن قطع اللحم ومن أشياء أخرى لا حصر لها– تضيق رويدا، مطبقة على الذئب الفتي، محيلة إيــاه إلـــى عبــد

للإنسان.. بدأت تنمو لديه تلك المَلَكة التي تميز بني جلدتـــه، والتـــي مكّنت آلاف الذئاب قبله من الدخول تحت حماية الحيـــوان البـــشري والتمتع بدفء ناره.. ورغم ما كانت حياة الذئب في المخيم تـــسومه إياه من ظلم، ورغم ما كان يكابده فيها من عناء، فإنه بدأ يحبها مـــع مرور الأيام.. بدأ يحبها على كون حزنه لفراق أمه وأمله في لقائهـــا مجدداً، وكذا ذكرى الأيام السعيدة الحرة التي خَلَتْ، لا تزال جميعـــاً تسيطر عليه...

الفصل الحادي عشر
المنبوذ

واصل الجرو "ليب-ليب" اضطهاد "أبيضَ الناب" الــذي أورثــه الظلمُ المتكرر والحاجةُ الدائمة إلى الدفاع عن نفسه قوةً وشراسة أكبر بكثير مما كانت تؤهله له طبيعته، فتطورت وحشيته حتى جــاوزت حدود المعقول، واكتسب بذلك سمعة سيئة حتــى لــدى الحيوانــات البشرية نفسها.. فحيثما علَت ضجةُ معركةٍ وشوهد غبارها، أو تناهى إلى الأسماع صراخ امرأة تشكو سارقاً، قيلَ إن الذئب "أبيض النــاب" قد فعلها من جديد.. وزاد الطين بلة أن الحيوانات البشرية لــم تكــن تبحث في سببِ ما وقع بقدر بحثها في عواقبه.. وكانت العواقب دائماً وخيمة، فــ"أبيض الناب" كان وحشاً حقيقياً لا يمر بمكان إلا خرَّبَــه، ولا يمسك بخصم إلا ترك آثار أنيابه على جلده.. ولطالما صاحت به هنديةٌ غاضبة- فيما هو واقف يرصد غفلة منها ليختطف قطعة لحم، متحاشياً في الوقت ذاته أن تصيبه من يدها قذيفة- قائلة إنــه ذئــب متوحش سيشهد نهاية مأساوية..

عاش الذئب- بسبب ذلك وغيره- عزلةً عن سكان المخيم.. حتى الجراء كانت تعامله بما يعامله به عدوه "ليب-ليب".. كانت تحس بأن الذئب ليس منها... فقد عزلته عنها ولادته في حضن الحرية وســط الغابة الكثيفة.. ولعله كان ضحية العداء الغريزي الذي يحمله الكلــب الأليف لقريبه الذئب منذ غابر العصور.. وأيًّا كان الأمر، فإن الجراء تألَّبَت عليه، متخذةً منه موقفاً ثابتاً لا تحيد عنه، وصار الجميــع لــه

أعداءً.. غير أن "أبيض الناب" كان يعرف كيف ينتقم، فلم ينجُ أحدٌ من أعدائه من عضة نابه المؤلمة.. والحق أنه كان- فرداً لفرد- أقوى جراء المخيم جميعاً إذا استثنينا "ليب-ليب"، غير أنه لم يُتَح له إلا نادراً أن ينفرد بأحد خصومه، إذْ ما إن كان يلتحم بأحدهم حتى يجد الآخرين وقد أحاطوا به جميعاً وانقضوا عليه..

جرت على ذلك المنوال معاركُ عديدة تعلم الذئب منها أشياء أهمُّها كيف يحمي نفسه من جمع من المهاجمين، وكيف يسبب لأحدهم أقصى ضرر في أسرع وقت.. أما التوازن، فإن الحفاظ عليه مسألةُ حياةٍ أو موت، وهو شيء كان يتقنه بمهارة تبَزُّ مهارة القطط.. وحتى حين كان يهاجمه كلبٌ كبير فيصدمه من الخلف أو من أحد الجانبين فينزلق الجرو أو يطير في الهواء تحت قوة الصدمة، فإنه كان يسقط دائماً على قوائمه، واقفاً بثبات على ظهر الأرض.. وكانت الكلاب- حين تتهيأ للعراك- تنبئ عن نياتها بنفش الفرو والتكشير عن النواجذ والزمجرة، فتعلم الذئب الفتي أن يختصر كل تلك المقدمات.. فأقلُّ تأخُّرٍ في الهجوم قد يعني وصولَ بقية الكلاب وإفلاتَ خصمه من أنيابه.. كانت نجاتُه في أن يضرب ويهرب، لذلك كان ينقض على خصمه، فينشب أنيابه في لحمه، والخصم لمَّا ينْتَه من مقدماته التقليدية.. وكثيراً ما كان الكلب يجد كتفَه وقد تمزقت أو أذنَه وقد أضحت إرباً وهو لم يدخل بعدُ المعركة...

ثم إنه تعلَّم أن إسقاط أي كلب أرضاً عمليةٌ في غاية السهولة. وهي- إلى سهولتها- تجعل الكلب في وضعٍ صعب، إذ يكون ساعتها عاجزاً عن المقاومة، بل وحتى عن مجرد الهرب، كاشفاً عن منطقة العنق الغضَّة الحساسة حيث مدخل الموت.. كان الذئب الشاب يعرف تلك المنطقة غريزياً.. ولا غرو، فهو سليلُ أجيالٍ متلاحقة من الذئاب القناصة.. لذلك كله كانت خطته في العراك واحدةً لا تتغير، إذ يبدأ

بإلقاء خصمه أرضاً بهجوم مفاجئ لا تُمهّدُ له مقدمات، ثم يهاجم منطقة الموت بلا تردد، فلم يُنجِ خصومَه العديدين من نهايةٍ مأساوية سوى أن أنيابه الشابة كانت لا تزال لم تتطورْ بعدُ بما يكفيها لأداء مهمتها المميتة.. على أن ذلك لم يمنع مِن أنْ عاد أكثر من جروٍ إلى المخيم صارخاً وعنقُه مفتوحةٌ أو تكاد، عنوانَ ما ستصبح عليه طبيعة الذئب من الوحشية..

ثم وقع المحظور أخيراً حين ظفر "أبيض الناب" بأحد أعدائه منفرداً بمعزل عن الآخرين، فما زال به يسقطه ويعض رقبته حتى فتحت الأنياب الجلد وقطعت أحد الوريدين، فمات الكلب متأثراً بنزيفه..

شهد المخيم يومها ليلة عاصفة. فقد اتفق أن شوهد "أبيض الناب" وهو يسقي غريمَه حمامَه، وأُبلِغَ صاحبُ الجرو النبأ، فجاء إلى "القندس الرمادي" مطالباً بثأره، وفي أعقابه مجموعة من ربات البيوت اللائي أحال "أبيض الناب" حياتهن بسرقاته المتكررة جحيماً..

لكن الهندي لم يلن، ووقف بباب خيمته حائلاً دون جيرانه الغاضبين والذئب المختبئ بداخلها. فلما يأسوا منه انصرفوا متوعدين..

أصبح "أبيض الناب" بعد تلك الحادثة عدوًّا للبشر وللكلاب على حد سواء، مكروهاً منبوذاً من قِبلهم كافة، فلم يذق– خلال فترة شبابه جميعها– للأمن طعما، في حذره المستمر من أيدي البشر وأنياب الكلاب.. كانت لعناتُ آلهته وزمجراتُ بني جلدته تستقبله حيث سار، فأصبح عيشُه توتُّراً دائماً.. وأصبحت مهمته الاحتراسُ من كل ما يحيطه، فأورثه ذلك حنكةً ودرايةً كبيرتين بالحياة، أو قُلْ بالجانب المظلم الشرس منها، فصار سريعَ ردة الفعل، مستعداً في كل لحظة

لانقضاض سريع يتلوه انسحاب أسرع.. أما حين يزمجر، فلا كلبَ في المخيم– بما في ذلك الكلاب البالغة– يستطيع مجاراته في ذلك.. اكتشف في الزمجرة وسيلة تهديد وإنذار لا تُنكر فائدتُها إذا أُجيد استخدامُها، فاجتهد في زخرفة زئيره– حين يزأر– بكل ما هو مخيفٌ وشرس، من انسداد المنخرين وانفتاحهما بتردد عالٍ يعطي الزمجرةَ نغماً متموجاً، إلى اللسان الذي لا يفتأ يطل من بين الفكين ثم يعود، كاشفاً في كل مرة عن الأنياب الطويلة المدببة، فالأذنين المتراجعتين إلى الخلف في توتر، فالشفاه التي تنطبق وتنفرج عن زبد لعابه الأبيض، إلى ما شابه ذلك من تكشيرٍ مخيف كان يجد فيه خيرَ عونٍ على أعدائه الذين يبقون عادة مندهشين لمنظره المنفر لحظةً تكون في الغالب كافية كي ينقض الذئب فيضربَ ضربته، أو ينسحبَ– غيرَ منهزمٍ– إن تعلق الأمر بخصم بالغ أقوى منه جسماً وأوسع تجربة..

كان "أبيض الناب" منبوذاً، لكنه عرف كيف يجعل خصومه– من الكلاب على الأقل– يؤدون غالياً ثمن نبذهم إياه.. فَبما حَرَمَتْه الجراء متعةَ الركض معها، حرَّم هو عليها أن يركض أيٌّ منها منفرداً، إذ راح ينصب لها بين الشجيرات كمائنَ جعلتها جميعَها– باستثناء الجرو "ليب–ليب"– تتفادى الابتعاد فرادى عن محيط المخيم.. لم يكن لها مناص من التعاون لمواجهة ذلك العدو الذي خلقَتْه لنفسها.. أصبح كلُّ جروٍ يبتعد عن المخيم وحيداً– و"أبيض الناب" مختف عن الأعين– يُعد جرواً ميتاً.. وفي المرات النادرة التي كان أحدها يستطيع الإفلات فيها من عدوه الشرس، كان يعود هارباً– والذئب في أثره– وعواؤه يملأ الفضاء...

ثم انتقل "أبيض الناب" إلى مرحلة أخرى، فأصبح لا يكتفي بمهاجمة أعداءه فرادى، بل يستفزهم جماعةً، حتى إذا انطلقت الجراء

تعدو خلفه، ركض مطمئناً إلى قدرته على الانفلات منها، منتظراً أن يتبعه منها جرو متهور لا يلبث أن يجد نفسه وقد أطْبَقَ عليه الـذئب فيبطش به قبل أن يصل رفاقه.. وكان ذلك كثيراً مًّا يحدث، إذ كانت الكلاب تفقد سيطرتها على أعصابها بفعل نشوة المطاردة، في حـين كان الذئب يعرف جيداً كيف يتمالك نفسه، فكان يعدو متلفتاً خلفه بين الفينة والفينة، متوثباً للاستدارة في أية لحظة والكرّ على المنفرد مـن بين خصومه..

كانت جراء المخيم– شأنَ غيرها من الجراء– تهـوى الـركض واللعب، فسرعان ما أضحت مطاردةُ الذئب لعبتَها المفضلة، وإنْ تكن لعبةً خطرة غالباً مًّا تنتهي بمأساة. فقد كان "أبيض الناب" أسرعَ عَدْوًا منها جميعِها بكثير، ولطالما جر خلفه قطيعَ أعدائه– وخاصـةً فـي الأيام القليلة التي تلت اختفاء أمه– إلى الغابة حيث كانـت الكـلاب سريعاً مًّا تفقد أثر غريمها الذي يعرف الأدغال– موطنَه الأول– خيراً منها بما لا يقاس.. وعلى حينَ كان نباحها ينبئ "أبيض الناب" عـن مكانها، كان الذئب يتنقل خلال الأشجار في صمتٍ تام كما كانت تفعل أمُّه وقبلها أبوه وقبلهما آلاف الذئاب المتوحشة.. وكان يتلذذ بتفوقـه الكبير على خصومه، فيعبُرُ مجرى ماء مثلا– وهو يعلم جيـداً أنـه يقطع بذلك أثره– ثم يختبئ ويشرع يراقب الجراء المرتبكة هازئاً..

هكذا عاش الذئب مكروهاً من قِبَل كل سـكان محيطـه، بـشراً وحيوانات على السواء، فلم يعرف قلبُـه لِـسوى الكراهيـة طعمـاً، وأضحى القانونُ يتلخص في نظره فـي بنـدين أولُهمـا الخـضوعُ للأقوياء، وثانيهما اضطهادُ الضعفاء.. "فالقندس الرمادي" كان إلهـاً قوياً جباراً يَحسُنُ الإذعانُ لمشيئته؛ أما الجراء وباقي الحيوانات غير

البشرية، فضعافٌ يَتَعَيَّنُ أن يُساموا الخسف، وإن أمكن، أن يُقضى عليهم.. وشحذت مواجهةُ الخطر المستمر قدرات "أبيض الناب" الطبيعيةِ، فأضحى أقوى جسماً وأسرع عدْوًا وألْيَنَ جسداً وأحدَّ حواساً من أقرانه من الجراء جميعاً، بعضلات كأنها قُدَّت من حديد وأعصابِ في قوة الصلب وتماسكه.. والحق أنه لم يكن للذئب الشاب مناص من ذلك كله مجتمِعاً حتى يستطيعَ العيشَ والبقاء وسط محيطٍ معادٍ كمحيطه...

الفصل الثاني عشر
طريق الآلهة

أُتيحت لـ"أبيض الناب" فرصةٌ لاستعادة حريته..

كان ذلك حين بدأت أوراقُ الشجر في التساقط وشرع طولُ النهار يتناقص ولسعة البرد تشتد وقعاً وإيلاماً؛ فقد اعترت المخيمَ فجأةً حركةٌ غيرِ معتادة دامت أياماً، ثم قَوَّضَت القبيلة خيامَها وشدَّت أحمالها استعداداً لرحلة الصيد الخريفية.. كان الذئب يراقب تلك الاستعدادات عن كثب، فلما رأى القواربَ تُحَمَّلُ متاعًا ورأى بعضَها وهو يبتعد عن الضفة فيُغَيِّبه منعرجُ النهر، أدرك ما يجري، فتراجع إلى الخلف.. تراجَعَ وقد قرر– عن سبقِ إصرارٍ وتَعَمُّد – أن يبقى حيث هو.. وانتهز فرصةً سانحة، فانسلَّ من المخيم ودخل الغابة القريبة.. وبدأ بأنْ قطَعَ الجدول إخفاءً لأثره، ثم دخل أجمةً كثيفة اختبأ فيها وبقي ينتظر.. ومضت ساعات راح الذئب خلالها يغفو تارة وينتبه أخرى، حتى جاءه صوت سيده "القندس الرمادي" ينادي باسمه، فانتفض في مكانه.. ثم ما لبث صوت زوجة الهندي أن جاء بدوره يناديه، تعقَّبه بعد قليل أصوات آدمية أخرى، فبقي في مكانه يرتعد خوفاً.. كان شيءٌ مَّا في داخله يهيب به أن يخرج من مكانه ملبياً النداء، لكنه قاوم تلك الرغبة ولم يُبدِ حراكاً.. ولم تلبث الأصوات أن خَبَتْ في البعيد وعم الصمت..

بقي "أبيض الناب" مختبئاً مكانه فترة طويلة بقي خلالها مصيخاً السمع لما حوله، ثم زحف بحذر إلى خارج الأجمة. كان الليل قد حل، فراح الجرو يعدو مرحاً في كل اتجاه، مستمتعاً بحريته المستعادة..

غير أنه سرعان ما استولى عليه شعور حاد ومفاجئ بالوحـــدة، فأقعى مكانه متفكراً.. كان الصمت المحيط به مطبقاً وتامًّا وموحشاً.. واستشعر ما يشبه تهديداً خفياً اقشعر له جلده، فراح يجيل عينيه بـــين أشباح الأشجار السوداء، متخـــيلاً وراء كـــلٍّ منهـــا عـــدوًّا يتأهـــب للانقضاض عليه..

كان البرد قارصاً بدوره، ولم يكُن هناك من جدارِ خيمةٍ يلصق به جسمه مستدفئاً ولا من موقد.. كانت أطرافه متجمدة بفعل البـــرد، فكان لا يمسك عن رفع الأماميتين منها الواحدة تلو الأخرى، مبعـــداً إياها عن لسعة الأرض القارصة.. وتعب فجعل ذيله حولهما وهـــدأ مكانه متفكراً.. وفجأة انثالت أمام عينيه مئات الصور المنطبعة علـــى صفحة مخيلته، فرأى المخيم والنار وهي تتراقص لامعة، وسمع- أو خالَ نفسَه يسمع- صياحَ النساء الرفيع يعلو في الفضاء، وأصـــواتَ الرجال الأغلظَ نبرةً وهي ترتفع مصدرةً الأوامر، وزمجرة الكـــلاب وهريرها.. وقرَصَه الجوع فذكر قطعة اللحم أو السمك يُرمـــى إليـــه بها.. أين هو منها الآن وسط هذا الخلاء الموحش البارد؟...

كانت عبوديته قد ألانته، وأضعفَه تحَمُّلُ غيره مسؤولية عيـــشه عنه، وهاهو الآن عاجزٌ عن توفير قوته بنفـــسه.. وألِفَـــت حواسُّـــه المشبعة بضوضاء المخيم وروائحه نفسَها كالعاطلة جـــرّاء الـــسكون المطبق، فبدأت أذناه تبحثان عن صوت تلتقطانه وسط هدوء الغابـــة الموحش المخيف.. بدا الليل وحشاً جامداً أصم أعمـــى، فـــاغراً فـــاه يوشك أن يبتلعه.. وسرَت في أوصاله قشعريرةُ هلعٍ وهو يرى شـــيئاً عظيماً كالطود أسودَ يرتسم فجأة أمامه فيسد الأفق. ومضت لحظـــات مرعبة قبل أن يتبين في الشبح شجرةً ألقى القمر بظلها على الأرض وشرع يسحبه رويداً، فهدأ روعه وأطلق أنيناً حرص على أن يخرج من حلقه خافتاً مهموساً، خشية أنْ يوقظَ الأخطارَ النائمة تحت جـــنح الظلام.. وندَّت طقطقةٌ مفاجئة عن جذع شجرة يتقلص بفعل البـــرد،

فطار لها قلب الجرو جزعاً، ونط من مكانه بهلع.. واعتـراه رعـب مباغت، فانطلق لا يلوي على شيء، متجهاً صـوب المخـيم، وقـد امتلأت خياشيمه– شوقا– برائحة النـار وأذنـاه بأصـوات عـراك الكلاب..

قطع الذئب المسافة التي كانت تفصله عن مكـان المخـيم فـي لحظات، وبلغ المكان المظلم الصامت، فراح يجيل فيه عينيه بدهشة.. وفجأة ذكر ما كان ناسياً...

لقد رحل أهل المخيم بمخيمهم...

أين الذهاب الآن؟..

بدأ يتجول هنا وهناك متشمماً مخلفات الهنود، وقد تاقت نفـسه إلى المخيم المليء ضجة وحياة.. تمنى لو تعاوده لحظةٌ واحدة مـن لحظات عيشه فيه، ولو في صورة حجر ترميه به هنديـة، أو ركلـة يتلقاها من رِجل "القندس الرمادي"، أو حتى لقاءٍ بالجرو "ليب–ليـب" ورفاقه الجبناء.. وبلغ المكانَ الذي كانت تقوم فيه خيمة سيده، فتوقف به ورفع رأسه إلى السماء البعيدة الصامتة.. كان شيءٌ مّا في حلقـه يحتبس متخبطاً كالغصة ترتعد له أطرافه جميعاً، فما يشعر إلا وهـو يرفع عقيرته في عواء طويل بكى به وحدته وعزلته وجزعه.. بكـى فراق أمه "كيش" وبكى ما كابده في ماضيه وما يخشاه من غده..

كان "أبيض الناب" يطلق ساعتها، ودون أن يدري عـن ذلـك شيئاً، ذاك العواء الطويل المخيف المعروف لدى بنـي جنـسه مـن الذئاب..

وجاء الفجر أخيراً، فأفرخ بعـض روعـه. غيـر أن الأرض المحيطة به– والتي كانت حتى أمْسِ تعج حركةً وحياة بـدت اليـوم مواتاً– زادت من حدة شعوره بالوحدة. ولم يطل به الأمر حتى اتخـذ قراره، وانطلق يعدو عبر الغابة، حتى إذا بلغ ضفة النهر سار متتبعاً إياه باتجاه المصب..

عدا الذئبُ نهارَه كاملاً دون توقف. كان جسده الحديــدي يبــدو كأنما خُلق للجري ولا شيء سواه.. لم يكن يعــرف للتعــب معنـــى؛ وحتى حين أدركه التعب، واصل رغم ذلك عدْوه. ولا غرو؛ أَلَم يكن سليلَ أجيالٍ من الذئاب القطبية التي طالما جعلتها رحـــلات صـــيدها الطويلة تعدُو أياماً متصلة بلياليها بحثا عن طريدة يبخل الشمال البارد بها؟..

كان النهر يضيق في بعض المواضع فيضحي شريطاً يجـــري بعنف بين جرفين مرتفعين، وكان الذئب عندها يلف من وراء الجرف الذي يليه، ثم يعود إلى ضفة النهر لا يبتعد عنها، قاطعاً الروافد التي كانت تعترض طريقه سباحةً أو خوضاً على القوائم حين يكون الرافد ضحل المياه..

اضطر مراراً إلى السير فوق الثلج الذي كان قد بدأ يتكون على جانب النهر، فغاصت قوائمه في البساط القطني الرخو مرغمة إيـــاه أكثر من مرة على مدافعة التيار البارد ليعود إلى اليابسة مرتعداً. على أنه لم يكفَّ لحظة عن مراقبة طريق الآلهة، أنْ تفوتَه نقطةٌ قد يكونوا نزلوا من قواربهم عندها ليتوغلوا داخل الأراضي المجاورة..

كان الذئب الشاب على درجة عالية من الذكاء، نسبةً إلى المعتاد لدى بني جلدته، غير أن ذكاءه، لم يكن كافياً ليسمح له بأن يتصور أن الآلهة قد تكون اختارت الضفة الأخرى من النهر لتنزل بها وتتـــابعَ طريقها.. لم تكن إمكانيةٌ كتلك تخطرَ له على بال. ولعله كان قمينـــاً بأن يفكر بها لو أن ما وقع له ساعتها وقع بعدها بكثير، بعد أن يكون قد قطع طرقاً طويلة وركب العديد من القوارب والسفن.. أما لحظتها، فقد تابع ركضه على الضفة التي كان المخيم يقوم عليهـــا، لا يبغـــي عنها محيداً..

حل الليل ولم يتوقف عن عدوه.. واصطدم بأكثر من عائق فـــي الغابة المظلمة ولم يزده ذلك إلا عزماً وتصميماً.. غير أن قُواه بدأت

تخور مع حلول منتصف النهار التالي، فقد كان يعدو حينها منذ اثنتين وثلاثين ساعة كاملة دون لحظة توقف واحدة، علماً أن آخر طعام تناوله كان يعود إلى ما قبل يومين كاملين.. وبدت عليه آثار سقوطه المتكرر في الماء البارد، فاكتسى شعر فروته طيناً وتلَبَّدَ، وصار يعرج عرجاً يزداد بمرور الوقت حدة؛ وكانت الطامة أن بدأ الثلج يتساقط نُدَفاً تصيب الفرو فتذوب فوقه، وتَخِزُ قطراتها الباردة الجسمَ وَخْزَ الإبَر، وتحجب الرؤية فيصبح السير محفوفاً بالمزيد من المخاطر..

كان "القندس الرمادي" قد قرر نصب مخيمه على الضفة المقابلة من النهر؛ غير أن زوجته "كلوكلوش" أبصرَت فجأة أيِّلا يروي ظمأه على الضفة الأخرى.. ولو أن الوَعِل لم يتوقف ليشرب عند ذلك المكان، ولو لم يكن "القندس الرمادي" مضطراً، بسبب الثلوج العائمة، إلى أن يشق بقاربه طريقاً غير بعيد عن الضفة، ولو لم ترَ زوجه الوعل أو أخطأ هو الحيوانَ إذ رماه بطلقة من بندقيته، لكانت الأحداث قد اتخذت مجرى آخر ، فتابع الجروُ عدْوَه على غير هُدًى حتى ينتهي به الأمر إلى أن يموت، أو أن يلتقيَ بقطيع من بني جنسه، فينضمَّ إليهم ويعودَ إلى طبيعته الأولى، ذئباً متوحشاً قناصاً..

لكن الأقدار شاءت غير ذلك...

كان الظلام مطبقاً والثلجَ يتوالى تساقطه. وبينما الذئب يمضي في طريقه أعرج متعثراً وهو يئن من الجزع، إذ به يبصر فجأة على الثلج آثاراً تعَرَّفها على الفور، فتتبعها بين الأشجار وقد زاد أنينه حدة.. وسرعان ما تناهت إلى سمعه أصواتٌ مألوفة رقص لها فؤادُه فرحاً ؛ ثم بدت لعينيه النار وأمامها "كلوكوش" تطهو الطعام، بينما جلس "القندس الرمادي" القرفصاء غير بعيد عنها يمضغ قطعة شحم نيئة.. كان هناك لحمٌ طازج طري في المخيم..

كان الذئب يتوقع حساباً على ما فعل، فسار متقدماً وقد اقشعر جسده لفكرة العقوبة، لكنه كان يعلم أنه بعد اللطمات الموجعة سوف يُتاح له أن يُدفئ جسده جنب النار، وأن يتمتع بحماية آلهته وصحبة الكلاب التي كانت– على علاتها– صحبةً تُشبع غريزتَه الاجتماعية..

تقدم زاحفاً حتى غمره النور؛ ورآه "القندس الرمادي" فتوقف عن مضغ ما في يده. ودنا الذئب منه وهو يعاني من خوفه ومن عبوديته، فراح يقترب وخشيتُه في تزايُد، حتى إذا بلغ قدمي سيده ربض عندهما منتظراً، موكلاً أمره لإلهه.. عاد الذئب الشاب بمحض إرادته إلى الإنسان، مسلماً إليه قياده، ملقياً بين يديه بمقاليد أمره.. كان يرتجف وهو يترقب العقاب الذي سينزله به.. وتحركت يد السيد أخيراً، فزاد الذئب انبطاحاً منتظراً اللطمة ..ولم يحدث شيء، فجازف بنظره إلى سيده فوجده يشطر قطعة الشحم نصفين رمى إليه بأحدهما..

تشمم الذئب القطعة بحذر ثم أكلها.. وجاءه "القندس الرمادي" ببعض اللحم، ثم أبعد عنه بقية الكلاب حتى انتهى من أكله.. وامتلأت بطن الذئب أخيراً فاضطجع عند قدمي إلهه وقد أخذ النوم يداعب أجفانه .. وراقه أن يذكر قبل أن يستسلم لنومه أنه لم يعد يخشى من غدهِ وحدةً ولا برداً ولا جوعاً، بعد أن أصبح في رعاية سيده الحيوان البشري الذي عاد عن طواعية ليسلمه نفسه راضياً مختاراً...

الفصل الثالث عشر

العهـــد

كان شهر يناير يشارف نهايته حين انطلق "القنــدس الرمــادي"، تصحبه زوجه "كلوكوش" وابنه "ميتساه"، في رحلة طويلة فوق ميــاه نهر "ماكنزي" المتجمدة.. كان الهندي يقود بنفسه الزلاقــة الكبيــرة، تسحبها قافلةٌ من كلاب حصل على بعضها إثر مقايــضة واســتعار بعضها الآخر من جيرانه؛ وخلفَه كان "ميتساه" يقود زلاقــةً أصــغر تجرها مجموعةٌ من الجراء. وكان الطفل يرى في زلاقته لعبةً قبــل أي شيء آخر، فراح يقودها مبتهجاً بأن أتيح له أخيراً أن ينجز عملاً من أعمال الرجال.. والحق أنها كانت فرصةً للطفل كي يتمرن على عمل يمثل جزءاً هاماً من حياة الهنود الرُّحّل، وللجراء كي تتــدرب على مهمتها الرئيسة في أرض الشمال، المتمثلة في سَــحْبِ الزلاقــة فوق الثلوج.. أضف إلى ذلك أن زلاقة الفتى كانت تحمل ما ينــاهز القنطار من الأمتعة والسلع..

كان "أبيض الناب" قد شاهد الكلاب أكثر من مرة وهي تُشَدُّ إلى الزلاقات، فلم يُبدِ مقاومةً تُذكَر حين جاء دوره ليُــربط إلــى زلاقــة الفتى؛ فوضعوا حول عنقه قلادة من جلد قد حــشيت أعــشاباً جافــة ورُبطت بخيطين إلى حزام جلدي يحيط بصدره وظهره، وإلى الحزام الجلدي شُدَّ الحبلُ الطويل الذي كان يربطه بالزلاقة..

كانت القافلة تتكون من ستة جراء سابِعُها الذئبُ الفتي. وكانــت كلها ولدت بدايةَ الشتاء الماضي، فكانت أعمارُها بين تسعة وعــشرة أشهر، عدا "أبيض الناب" الذي لم يكن قد أتم شهره الثامن بعد..

كان كل حيوان مشدوداً إلى الزلاقة بحبل مستقل. ولم يكن ثمة حبلان بالطول نفسه، بل كان الاختلاف في الطول بين كل حبلين يعادل على الأقل طول كلب من العنق حتى الذيل، بينما أُثبت الطرف الآخر من الحبال إلى حلقة في مقدمة الزلاقة.. وكانت الزلاقة نفسها أشبه ما تكون بزلاجة أطفال مكونة من لحاء شجرة سَنْدَر عُقِفَت مقدمته إلى أعلى حتى لا تغوص في الجلد الناعم. أما طول الحبال فيجري ترتيبه على الشكل المذكور لغايات عديدة منها أن الثقل يكون حينذاك موزعاً بشكل أفضل على الكلاب، فيرتخي حبل المتهاون منها مرشداً في التو سوط القائد إلى ظهره؛ ثم إن الكلاب نفسها تسير ساعتها على شكل هلال مقلوب، مما يتيح لكل منها أن يجري دون أن تغوص قوائمه في الآثار التي تتركها قوائمُ سابقه، وأخيراً، فإن الاختلاف الكبير في طول الحبال يضمن ألاّ يستطيع كلبٌ عض الكلب الذي أمامه.. طبعاً، يمكن للكلب الموجود في الأمام أن يستدير فيهاجم الذي يليه، لكنه في تلك الحال كان يعرِّض أنفه لضربة موجعة من سوط القائد.. غير أن خير ما كان ينجم عن ذلك النظام هو أن كل كلب كان يجري بأسرع ما يستطيع تفادياً لأسنان الكلب الذي يليه، فيزيد الموكبُ كله سرعةً نتيجةَ ذلك.. هكذا كانت هيمنة الإنسان على الحيوان تتجلى مرة أخرى، وإنْ بطُرُقٍ ملتوية..

كان "ميتساه" رغم صغر سنه يملك الكثير من مكر أبيه ومن دهائه، فلم يغب عنه منذ أول يوم ما كان الجرو "ليب-ليب" يسوم الذئب الفتي إياه من الخسف؛ غير أن الجرو كان وقتها في ملكية هندي آخر، فلم يكن للفتى عليه من سبيل عدا الحجارة يرميه بها. لكنه اليوم أصبح ملك يمينه، إذ حصل عليه أبوه مع كلب آخر بالغ مقابل جلد دبٍّ أبيضَ، فلم يَتَوانَ الفتى في الانتقام لذئبه بأن ربط "ليب-ليب" إلى الحبل الأطول، جاعلاً إياه يجري أمام باقي الكلاب جميعاً.. وعلى عكس ما قد يُتوهَّم، فإن الكلب الذي يكون في المقدمة

ليس من قادة باقي الكلاب ولا من زعامتها في شيء. فموقعه المتقدم عليها– بحكم طول حبله– يجعل ذيله يتراقص باستمرار أمام أعينها، مما يعطيه هو انطباعا بأنه يفر من عدوٍّ، ويعطيها هي ارتساماً بأنها تطارد فريسة.. ويزيدُها شجاعةً وجرأة وحماساً، ما تخاله خوفاً منه وهرباً حين تراه مولياً إياها ذيله عوض أن يستدير لمواجهتها، فتنطلق جميعها خلفه متلذذة بمطاردتها الممتعة. وهكذا، فما إن كان الفتى يعطي إشارة الانطلاق حتى كانت الكلاب تنقض جميعاً على "ليب–ليب" المسكين الذي لا يملك عندها سوى أن يولي الأدبار منهزماً، ساحباً حبله وراءه..

والحق أنه لم يستسلم دون مقاومة، بل حاول بادئ الأمر أن يدافع عن كرامته الجريحة، فاستدار أكثر من مرة مكشراً عن أنيابه؛ لكن سوط الفتى كان له بالمرصاد.. ولئن كان باستطاعة "ليب–ليب"– بدافع الغيرة على كرامته– أن يواجه الكلاب جميعها، فإنه ما كان ليستطيع تحدي لسعة السوط المؤلمة، فلا يملك إلا أن يتابع عدْوَه المجنون ساحباً وراءه الكلاب المنتشية وخلفَها الزلاقة بأحمالها..

ثم لجأ الهندي الصغير الماكر إلى حيلة أخرى يزيد بها الكلاب حنقاً على "ليب–ليب" وكراهية له، فصار يحرص على إيثاره ساعة توزيع اللحم على باقي القطيع، مما كان له بليغ الأثر على شعور الكلاب تجاه الجرو البائس. وكان يختصُّه أحياناً وعن عَمَدٍ ببعض اللحم زيادة عن الآخرين، فيثير ذلك هياج الجراء التي كانت تقف على مسافةٍ تؤمِّنها لسعةَ السوط المؤلمة، ثم ترفع عقائرها بالصرخات الغاضبة، بينما "ليب–ليب" يلتهم اللحم.. وحتى حين لم يعُدْ هناك ما يكفي من اللحم، كان "ميتساه" الداهيةُ ينتهز فرصةً سانحة فيقوم بحركات تجعل الكلاب تحسبه يعطيه لحماً.. والحصيلةُ أنْ أصبحَت حياةُ الجرو المسكين جحيماً لا يطاق..

كان "أبيض الناب" يقوم بمهمته في الجر على أحسن وجه. فهو قد سلف له أن قطع دون توقف– يوم رحيل المخيم– مسافة تفوق ضعف ما تقطعه القافلة اليوم في كل مرحلة. علاوة على ذلك يعلم أنْ لا فائدةَ تُرجى من محاولة عصيان الآلهة. ثم إنه– جرَّاء ما سامه إياه بنو جنسه من عناء– أصبح أقرب إلى أُلفة البَشر منه إلى معاشرة الحيوان.. أما "كيش"، فلم تعُدْ ذكراها تجولُ له ببال.. كل ما كان يبتغيه اليوم هو رضى الآلهة التي عاد بمحض إرادته ليضع بين أيديها مقاديره.. لذلك باشر عمله بجد وإخلاص لا يُعَدَّان غريبَيْن على مثله؛ فالجد والإخلاص شيمتان يمتاز بهما الكلب البري والذئب– متى استؤنسا– عمَّا عداهما من الكائنات. وقد كانت الشيمتان من أبرز مناقب "أبيض الناب" المتعددة..

لم يساعد العمل المشترك شيئاً في تحسين علاقات الذئب الصبي بأقرانه من الجراء. فهو لم يكن قد تعلَّمَ بعد أن يلاعب أترابه، بل أن يقاتلهم، وذلك ما لم يتوقف عنه يوماً، منتقماً بضربات من أنيابه الحادة مما عاناه أيام كان "ليب–ليب" زعيمَ القطيع. فالجرو المشاكس لم يبق اليوم زعيماً قوياً يُخشى جانبُه، بل إنه على العكس من ذلك لم يعد يستطيع الابتعاد عن "ميتساه" خشية التعرض لبطش القطيع الغاضب.. وكان باستطاعة "أبيض الناب" أن يصبح زعيمَ القطيع غيرَ مُنازَع بعد أُفول عهد "ليب–ليب" لو شاء ذلك. لكنه كان انعزالياً بطبعه، فرضي من الزعامة بالتفوق الجسدي وتركَ ما عداه للجراء التي كانت تسارع بإفساح المجال له كلما مر بها، وتتجنب نصيبَه من اللحم لا تحاول سرقته منه، بل تجدُّ في التهام نصيبها سريعاً، قبل أنْ ينهيَ الذئب حصته فيحرمها إياه. كان "أبيض الناب" يطبق قانونه البسيط، قانون اضطهاد الضعيف والخضوع للقوي؛ فكان يلتهم نصيبه من اللحم بسرعة البرق، والويل ساعتها لكل جرو لم يُكمل بعدُ ازدرادَ حصته، إذْ ما هي إلا زمجرةٌ ثم قفزةٌ فلمعةُ ناب، ويجد الكلبُ

البائس نفسَه بعدها وقد أمسى دون عشاء، فــلا يملــك إلا أن يرفــع عقيرته بالشكوى إلى النجوم اللامبالية، في حينَ يأكل الذئب طعامه..

كان يحدث بين لحظة وأخرى أن يثور جروٌ محتجــاً، لكنــه لا يلبث أن يلقَى ما يعيده سريعاً إلى تعقله.. كان الذئب حريــصاً علــى تفوقه الجسدي وعلى عزلته- الإجبارية فيما مضى، الاختيارية اليوم- مستعداً للقتال في أية لحظة دفاعاً عنهما، وهو ما كان كثير الحدوث.. عندها كانت المعركة تنتهي عادة بأسرع مما بدأت. فالذئب الفتي من الخفة والبراعة بحيث كان خصمه يجد لحم كتفه وقد تمزّق أو إحدى أذنيه وقد أصبحت أشلاء قبل أن يدخل القتال، فكان غالباً مــا يــولي الأدبار غير مطالب بمزيد..

لم يكن النظاَم المفروض من قبَل "أبيض الناب" على الجراء بأقلّ صرامة من ذاك الذي تفرضه الآلهة نفسها. فقد كان يطالبها باحترامٍ وتبجيل لا حدود لهما.. ولئن كان للجراء أن تفعل ما تشاء فيما بينها، فإنه لم يكن لها ذلك حينما يكون الذئب موجوداً قربها.. كانت تفسح له الطريق إذا اختار أن يخترق في سيره جَمْعَها، وتبدي له مــن آيــات الولاء ما يؤكد قبولَها تفَوُّقَه. وإن شاء سوء حظ أحــدها أن تــصدر عنه- والذئب يمر بقربه- زمجرة أو أن ينتفش له شعر، فإنه سرعان ما كان يجد نفسه ضحية الأنياب الحادة الــشرسة.. أصــبح "أبــيض الناب" ديكتاتوراً حقيقياً يمارس هيمنته بصرامة لا تعرف اللين.. كان يجد ما يشبه اللذة في اضطهاد الضعفاء من حوله؛ فالصراع المريــر الذي خاضه وأمَّه ذات يوم بعيد لأجل البقاء، قوى من عضده ووهبه صلابة واحتمالاً، لكنه علمه أيضاً أن البقاء للأقوى، ثم إنه، إن كــان يضطهد مَن هُم دونَه قوةً، فإنه يعرف كيف يولي الأقوياءَ نصيبَهم من التقدير والاحترام؛ فقد كان يحرص على أن يبــدي حيــال الكــلاب البالغة، التي يلتقيها كلما توقف سيده في مخيم من مخيمات الحيوانات البشرية، تبجيلاً واحتراماً لا يفوقهما سوى تبجيلِه الحيواناتِ البــشريةَ

نفسها، كما كان حريصاً على طاعة سيده طاعة مطلقة عمياء لا تعرف قيداً ولا شرطاً؛ وفي ما عدا ذلك، فلا تثريب عليه في أن يفعل بمن دونه من الضعاف ما يشاء..

مرت الشهور و"القندس الرمادي" يواصل رحلته منتقلاً من مكان إلى آخر عبر البرية الفسيحة، ووجد الذئبُ في سَحْب الزلاقة على تلك المسافات الطويلة تمريناً شاقاً لكنه مفيدٌ زاده قوة وصلابة، فبدا وكأن نموَّه– وخاصة الذهني– على وشك الاكتمال. وبدأ يرى العالم المحيط به كما هو، بعين الحيوان البالغ، فبدا له في تصوره المادي البسيط عالماً قاسياً متوحشاً، لا مكان فيه للَمَسات الحدب والعطف والحنو ولا لشيء مما للنفس فيه بهجة.. لَم يَكُن يُكِنُّ أية عاطفة حبٍّ لسيده "القندس الرمادي"؛ فقد كان الرجل إلهاً، ما في ذلك من شك؛ لكنه كان إلهاً متوحشاً يعرف الذئبُ له حقوقاً أساسُها الذكاءُ الذي يفوق ذكاءه والقوة التي تعلو قوَّتَه.. كان في "أبيض الناب" شيء يدفع به نحو الكائن البشري.. شيءٌ هو الذي جعله يعود ذات يوم ليُسلِّم قياده إلى الإنسان طائعاً.. كان في نفسه كنوزٌ دفينة لعلها كانت قمينةً بالبروز إلى السطح لو وجَدَت من "القندس الرمادي" كلمةَ حب أو لمسة حنان. لكن الهندي لم يكن يتكلم ولا كان يُلمِس.. كان سيداً قوياً يمارس سيادَتَه بشكل مباشر لا مواربة فيه ولا الْتِواء، فإذا سخط يعاقب بضربات مؤلمة من هراوته، ويُثيب إن رضي، لا بلمسة ولا بكلمة، بل فقط باستثنائه المرضيِّ عنه من العقاب..

هكذا كان الذئب يجهل ما بمقدور اليد البشرية أن تمنحه من حنان، وكان مرآها يجعله على الدوام يقفز متراجعاً.. فيد الإنسان، وإن وزعَت اللحم بين الفينة والفينة، لا تمتد في الغالب إلا لتضرب، ولذلك يَحْسُنُ البقاء بعيداً عن متناولها. كما أنها كانت ترمي بالحجارة والعصي وتضرب بالسياط، وإن توقفت إحداها على جسده، فلكي تقرص لحمه أو تجذبَ شعر فروته بكل قسوة.. ولعل أيدي الصغار

كانت أقسى تلك الأيدي جميعاً وأقلها رحمة.. وإنه ليذكر يوم كاد صبيٌّ هندي لمّا يتعلم المشي، أن يفقأ إحدى عينيه.. من يومها لم يعد الذئب يأمَن جانب الأطفال مطلقاً، فكان كلما رأى أحدهم مقبلاً نحوه أسرَعَ مبتعداً..

لكن تشاء الأقدار، أثناء توقف "القندس الرمادي" بأحد المخيمات المحيطة ببحيرة "العبد"، أن يجد "أبيض الناب" نفسه مرغماً على مواجهة أحد هؤلاء الصغار مواجهةً مباشِرة، وأن تنجم عن ذلك أحداثٌ تجعل الذئب يعيد النظر في "قانونِ الاضطهاد" الذي كان قد سنَّه لنفسه، خلاصةَ تجاربه السابقة، وبالضبط في البند الذي ينص على أن عضَّ الحيوانات البشرية محرم تحريماً باتاً، وأنه يعَدُّ جريمةً شنعاءَ تفوق كل جريمة..

فبينما هو يجوب أرجاء المخيم– جرياً على عادة الكلاب جميعاً– بحثاً عن مفاجأة سعيدة بين القمامة، مر بغلام منهمك في تقطيع لحم وعل مجمد بساطور في يده، فتوقف غير بعيد منه، وشرع يلتقط قطع اللحم المتطايرة. غير أنه لم يلبث أن لاحظ أن الفتى وضع ساطوره جانباً وحمل هراوة متجهاً نحوه وهو يهزها في يده ..

تراجع الذئب بحذر وهو يزمجر مهدداً، فاندفع الفتى يطارده بين أطناب الخيام. ولم يطل الأمر بالذئبُ– وهو الغريب عن المخيم– أن وجد نفسه حبيسَ دَربٍ تُغلقُ خيمةٌ كبيرة أحدَ طرفيه، ويسد الطرفَ الآخر الغلامُ الذي راحَ يتقدم نحوه بهراوته..

توقف الذئب مزمجراً وهو حائر لا يدري ما يفعل؛ فهو لم يأت ما يستحق عليه عقاباً، وقطَعُ اللحم المتطايرةُ لدى التقطيع كانت دائماً من نصيب الكلاب لا ينازعها فيها منازع؛ فما بال هذا الإنسي يريد عقابه على غير ذنب جناه؟.. وانتابه بغتةً غضبٌ عارم، فما يدري الفتى إلا وهو ملقًى على الثلج الناعم، ويدُه التي كانت تمسك بالهراوة ممزقةٌ حتى العظم. أما خصمُه، فلم يعُدْ له ثمة من أثر..

كان "أبيض الناب" يعلم أنه قد أتى جرماً بشعاً حين أقدم على عض الإله الصغير، مما جعله يتوقع عقاباً صارماً. لذلك سارع يحتمي بسيده حالما أبصر خصمه مقبلاً، يحوطه أبواه، مطالبين بثأرهم..

غير أن الهندي وزوجته وابنه انتصبوا للدفاع عن ذئبهم، ونشبت معركة كلامية عنيفة راح الذئب يتابع صخبها باهتمام، وقد وَقَرَ في نفسه أن ما عمله كان مبرَّراً وأن ذلك يعني كون الآلهة ليست جميعَها سواسيةً، وأنه إن كان عليه أن يتحمل كلّ ما يأتيه من قِبَل آلهته، وأن يتقبل عن طيب خاطر إنصافها وظلمها على السواء، فلا شيء يرغمه على الرضى بظلم الآلهة الأخرى التي يمكنه- إن هي ظَلَمَتْه- أن يقتص لنفسه منها بحد نابه..

كان ذلك تعديلاً أدخله "أبيض الناب" على القانون الذي استنه لنفسه وكتب بنودَه بمداد تجاربه..

غير أنه لم تغب شمس ذلك اليوم حتى كُتب للذئب الفتي أن يضيف بنداً جديداً إلى قانونه.. فبينما "ميتساه" يحتطب في الغابة والذئب رفقته، إذ بهما يلتقيان بالفتى الذي عضه "أبيض الناب" قبل ساعات، ومعه بعض أترابه. ودارت بين الفتيان معركةٌ كلامية سرعان ما انقلبت عراكاً وجد الغلام فيه نفسَه وحيداً في مواجهة خمسة فتيان أو ستة راحوا يشبعونه ضرباً..

وقف الذئب بادئ الأمر لا يبدي حراكاً. فالمسألةُ كانت تخص الآلهة وحدهم.. غير أنه ما لبث أن أدرك أن الذي يُكال له الضرب هو إلهه الصغير، فانتفض هادراً في غضب. وما هي إلا ثوانٍ حتى تفرق الفتية صارخين وقد اصطبغ الثلج بلون دمائهم. وعاد "ميتساه" إلى خيمته، فروى لأبيه ما حدث، فأمر "القندس الرمادي" لأبيض الناب بحظ وفير من اللحم لقاء ما أبداه من وفاء ونجدة. وأدرك الذئب أنه قد أحسن عملاً بنجدته إلهه، فملأ بطنه واستسلم لنوم هانئ..

استخلص "أبيض الناب" من تجربته تلك بنداً جديداً يتعلق بالدفاع عن شخص إلهه، لكنه ما لبث أن وسَّع ذلك البند ليشمل به متاع الإله كذلك.. فليس بين حماية الأرواح وحماية المتاع غيرُ خطوة قطعها الذئب في سهولةٍ ويسر، منتهياً إلى أن أهم واجباته– بعد طاعة إلهه والدفاع عن شخصه– دَفْعُ الأذى عن متاعه بكل الوسائل المتاحة، بما في ذلك استعمال أنيابه ضد الآلهة الأخرى، وهو ما لم يتردد في اللجوء إليه كلما دعت إلى ذلك الحاجة، مما أدخله مرحلة جديدة من العراك كانت خصومه فيها هذه المرة كائناتٌ بشريةٌ أخطرَ بكثير من بقية خصومه من الحيوانات وأشد مكراً ودهاءً. لكنه لم يستسلم، بل راح يتعلم كيف يناور إنساناً ويحاربه دون هوادة ولا وجل، فقد كان شعوره بالمسؤولية أقوى من غريزة الخوف لديه؛ لذلك لم يمض وقت طويل حتى اقتنعت جميع الآلهة اللصوص بأن من الأفضل لها أن تَدَعَ أمتعة "القندس الرمادي" في سلام..

من بين ما تعلّمه "أبيض الناب" أن الآلهة اللصوص كانوا في الغالب جبناءَ رعاديدَ لا يلبثون عند أول إنذار أن يولوا مدبرين. وتعلم كذلك أن الوقت الذي كان ينقضي ما بين إطلاقه الإنذار وبين هبوب سيده لنجدته قصير جداً، كما أنه لاحظ أن اللص عادة مّا يخاف ظهور "القندس الرمادي" فيحاول الفرار قبل مجيئه.. ولم يكن "أبيض الناب" ينبح أبداً، بل كان ينقض على خصمه هادراً مزمجراً، فإذا طاله أمسك برجله بين فكيه فلا يفلته حتى يصل سيده.. ورضي "القندس الرمادي" عن هذه المهمة الجديدة التي اضطلع الذئب بها بمحض إرادته، وبدأ يدربه على الحراسة حتى أجادها، وأصبح جرَّاء ذلك أكثر وحشية وانعزالاً من ذي قبل..

كانت الأيام بتواليها تنسج أواصرَ العهد الذي بدأ يربط "أبيض الناب" بالإنسان، وهو العهد نفسه الذي ربط الآلاف من أسلافه من الذئاب المدجنة ببني البشر عبر الأجيال؛ عهدٌ تقوم دعائمه على

المبادلة. في مقابل أن يكون للذئب إله من لحم ودم، كان عليه أن يتخلى عن حريته؛ ونظيرَ الغذاء والدفء والحماية والمَنَعة التي يوفرها جميعَها العيشُ في كنف الإنسان، كان الذئب يقوم- إضافة إلى حماية شخص إلهه وذويه- بحراسة متاع الإله والحيلولة دون اللصوص ودونه، ويسحب الزلاقة متى أُمر بسحبها، مطيعاً في ذلك كله سيده طاعةً عمياءَ مطلقةً لا تعرف التبرم ولا الملل..

ولما كان وجود كل إله يتطلب ديناً، فقد كان في العقيدة التي بدأ يدين بها الذئب الفتي الكثير من التبجيل والاحترام والهيبة والخوف جميعاً، يطبعها شعور حاد بالمسؤولية. أما الحب فلم يكُن ثمة له من مكان.. لم يكن "أبيض الناب" يعرف ما الحب.. لم تكن لديه أدنى فكرة عمَّا يمكن أن يكونه ذلك الشعور الدافئ النبيل.. حتى ذكرى "كيش" كانت تنمحي من ذهنه ببطء.. لقد أعلن الذئب عن قبوله العهد البشري يوم تخلى طائعاً عن حريته وراح يعدو على أثر "القندس الرمادي" ومخيمه.. ولو قُدرَ له أن يلتقي اليوم بأمه لما رضيَ بالتخلي عن سيده لمرافقتها؛ فخضوعه للإنسان أضحى لديه أقوى من نداء الحرية ومن غريزة الوفاء لبني جنسه.. أضحت عبوديته للإنسان مقوماً أساساً من مقومات حياته...

الفصل الرابع عشر

المجاعة

مع بداية شهر أبريل أوائل الربيع عاد "القندس الرمادي" من سفره الطويل، وأزاح "ميتساه" أخيراً عن "أبيض الناب" الحمالة الجلدية التي كانت تحيط بصدره والحزامَ الذي كان يشده إلى الزلاقة. كان الذئب قد أكمل عامه الأول؛ ورغم أن نموه كان بعْدُ غيرَ مكتمل، إلا أنه كان– بخلاف "ليب–ليب"– أقوى جراء المخيم جميعها جسماً. ولا غرابة، فهو قد ورث عن أبيه "وحيد العين" وعن "كيش" نفسها تقاطيع الذئب الضخمة، فأصبح جسده– وهو بعدُ في سنه تلك– يقارب أجسام الكلاب الكبيرة طولاً وإنْ لم يبلغْ مبلغها ضخامةً وقوة.. كان جسده دقيقاً قوياً في نحول، وفروُه رمادياً كفرو بني جنسه من الذئاب.. والحق أنه كان ذئباً خالصاً؛ وإذا كان في عروقه بضعُ قطرات من دم الكلاب أتته عن طريق أمه، فإنه لم يكن لها في مظهره الخارجي أثر..

انطلق "أبيض الناب" يجوب أرجاء المخيم، متعرفاً بارتياح خفي وجوهَ الآلهة التي عرفها قبل رحلته الطويلة، من رجال ونساء وأطفال، كما كانت هناك الكلاب أيضاً، من جراء سائرة مثله نحو اكتمال النمو، وأخرى بالغة لم يعُد الذئب يجد لمرآها ما كان يجده قبلُ من رهبة، فراح يتجول وسطها بصَلَف جديد عليه ألفى له لذة لا تُتَصور.. وكان من بين الكلاب البالغةَ كلبٌ عجوزٌ يُدعى "بازيك" قد بدأ السن ينيخ عليه.. كان "بازيك" في الماضي البعيد كلباً قوياً موقراً مرهوب الجانب جباراً، يكفيه أن يكشر عن أنيابه ليجعل جروا

كـ"أبيض الناب" يفر مرتعباً.. أما اليوم، فقد شاء القدر أن يجعل منه في شيخوخته محكّاً يعجُمُ عليه الذئبُ عودَ صلابته ويعـرف بفـضله مقدار ما أضحى يتمتع به بعد رحلته الطويلة من بأس ومن مقـدرة، وما أصبح له أن يطالب به بني خؤولته من الكلاب بناءً على ذلك من حقوق جديدة..

كانت المناسبةُ عمليةَ سلخٍ وعلٍ ضخم صيدَ حديثاً، فكان نصيبَ "أبيض الناب" منه حافرٌ وقطعةٌ من عظم الساق لا يزال بعض اللحـم عالقاً بها، حملها الذئب ومضى منتحياً بها مكاناً منعزلاً وراح يستعد لالتهامها، فإذا به يفاجأ بالكلب "بازيك" ينقض عليه يريد سلْبَه إياها..

ارتمى "أبيض الناب" على مهاجمه في حركة ارتدادية عكـسية، وكال له عضتين متتاليتين في كتفه، ثم تراجع إلى الخلف وهو يهـدر مزمجراً.. حدث ذلك كله بسرعة تركت الكلب العجوز متسمراً فـي مكانه، ذاهلاً لجرأة الذئب الفتي وسرعته الماحقة.. وراح الخـصمان يتبادلان النظرات الغاضبة والعظم بينهما ينتظر آكلاً..

كان الكلب عجوزاً ذا تجربة. وقد حدث له مـرات ومـرات أن وجد جرواً شاباً يثور على هيمنته فجأة ويشق عليه عـصا الطاعـة. ولطالما أورثه ذلك مرارة أليمة وحـسرة، فكـان يـداري المـرارة بالغضب.. ولو أن ما كان يحدث الآن حدث قبل سنتين أو ثلاث، لما كان قد تردد في الانقضاض على الجَسور مؤدِّباً؛ لكن قواه المولِّيـة جعلته اليوم أكثر حكمة، فاكتفى بأن بقي في مكانـه يحـدج الـذئب بنظراته الغاضبة ويَهرُّ في صوتٍ مكتوم. أما "أبيض الناب"، فقد شعر بعد هنيهة بخوفه القديم يعاوده، وبدا وكأنه ينكمش على نفسه، وشرع يستعد لانسحاب لا ينال كبرياءه منه كبيرُ ضرر..

غير أن الكلب ارتكب في تلك اللحظة بالذات خطأً كبيـراً فـي التقدير. فلو أنه اكتفى بالبقاء مكانه وتصويب نظراته نحـو خـصمه المرتبك، لرآه ينسحب مخلفاً له العظم الشهي. لكنه تسرع في حكمـه

وخالَ المعركةَ منتهيةً، فتقدم صوب العظم وانحنى فوقه دون تـردد يتشممه..

تكَوَّمَ الذئب في مكانه ووقف شعر فروته، غير أنه لم يزد علـى ذلك شيئاً. وكان في تردده فرصةٌ أخيرة لم يحسن الكلب استغلالها، إذ إنه لو بقي مكانه لحظتها لا يبدي حراكاً واكتفى برفع عينيـه نحـو خصمه مهدداً، فربما كان الذئب قد ولى منهزماً. لكن رائحـة اللحـم الشهي قوَّضَت ما تبقى من فلول إرادته العجوز، ففتح فكيه وأطبـق بهما على العظم..

كان ذلك أكثر مما يمكن لـ"أبيض الناب" تَحَمُّله. إذ كيف يُعقَـل أن يسمح مَن تربَّعَ على عرش الزعامة لشهور كاملة خلت، بأن تُأكل آخرُ حصته اليوم أمام عينيه؟..

ضرب الذئب– كالعادة– دون إنذار؛ فما هي إلا لحظـةٌ كلمـح البصر حتى أضحت أذنا الكلب مُزَقاً، وما كاد يعي ما وقع له حتـى وجد نفسه منقلباً على ظهره ونابا الذئب مغروزتان في لحم رقبته، فما عاد له من شاغل عن محاولة استعادة توازنه، وما استطاع ذلك حتى كانت النابان الحادتان قد مزقتا كتفه.. وحاول الردَّ لكنَّ أنيابه انطبقت على الهواء، وفي اللحظة التالية كان أنفه قد شُقَّ نصفين، فلم يملـك سوى أن تراجع لاهثاً متوجعاً..

كان الوضع الآن منعكساً عن السابق؛ كان "أبيض الناب" واقفـاً أمام عظمه وقد انتفش شعر فروته وانكـشر مـشفراه عـن أنيابـه المسنونة اللامعة، في حين كان "بازيك" يستعد للإعلان عن هزيمته.. وبالفعل، لم يلبث الكلب أن استدار بترفع، وكأن العظم والذئب معاً لا يستحقان اهتماماً، ثم مضى لسبيله، ولم يشرع في لعق جراحه إلا بعد أن تأكد له اختفاؤه عن عيني عدوِّه..

ازداد "أبيض الناب" من أثر تلك الحادثة ثقة بنفسه واعتداداً بها، فشرع يذرع أنحاء المخيم مزهواً بقوَّته الجديدة. والحق أنه لـم يكـن

يهوى العراك ولا كان يهيئ له السُّبُل، لكنه كان مصراً على أن تحسب له الكلابُ جميعُها حسابَه، غيرَ مستعدٍّ للتخلي لأيٍّ منها عن جُزَيْء من حقه. فهو لم يكن جرواً كبقية أترابه، لا يقام له وزن ولا يولى احتراماً، يُخلي الطريق للآخرين ويتخلى لهم عن حصته من اللحم صاغراً.. كان منعزلاً شرساً صلفاً متعالياً، قَبِلته الكلاب بين ظهرانها مرغَمةً بسبب قوّته، لكنها تعودت كذلك أن تدعه في سلام. فالذئب كان يرفض صداقتها وظُلْمَها على وجه السواء. أما إذا تُرِك لحاله، فإنه كان يدعها وشأنها، وهو ما اقتنعت الكلاب– بعد طولِ مراسٍ ومُرِّ تجربةٍ– أنه غاية المنى...

عند أواسط الصيف التالي، حدثت للذئب مفاجأةٌ فريدة. فبينما هو يجوب يوما أرجاء المخيم على عادته، إذ به يلمح بغتةً أمَّه "كيش"..

كانت ذكرى أمه الذئبة قد انمَّحت أو كادت من مخيلته؛ لكن منظرها أوقظ شيئاً في نفسه، فتوقف وراح ينظر إليها. أما هي، فلم يبدُ عليها ما يدل على أنها قد تذكرته، إذ كشرت عن أنيابها وزمجرت مهددة..

على أنه كان لها عكس ما أرادت، إذ إن زمجرتها التي طالما سمعها الذئب وهو بعد جرو تطلقها لتدفع بها عنه خطراً يتهدده، أحيت ما كان قد مات من ذكرياته. ولا غرو، فقد كانت "كيش"– طيلة الفترة التي سبقت لقاءه بالآلهة البشرية– محورَ حياته ومدار وجوده كله...

ارتمى الذئب عل أمه جذلاً، لكنها عاجلته بعضة من نابها مزقت لحم وجنته حتى العظم، فتراجع مذهولاً لا يدري ما يفعل..

كان ذاك تصرفاً طبيعياً من قِبَل "كيش"؛ فليس من عادة الذئبة الأم أن تواصل الاهتمام بصغارها بعد أن تكبر الصغار وتصبح قادرة على العيش المستقل، ولذلك لم تر "كيش" في "أبيض الناب" سوى ذئب

غريب تخشى منه على جرائها الجدد.. وانقلب أحد الجراء متدحرجاً نحو الذئب فانحنى فوقه يريد أن يتشممه– وهو لا يعلم أنه أخوه لأمه ولا الجرو يعلم– لكن الأم لم تدع له الوقت ليفعل ذلـــك، إذ انقــضت عليه هادرة مزمجرة، فكالت له عضة مؤلمة في كتفه قبل أن تختطف جروها وتعود به إلى الخلف..

تراجع "أبيض الناب" ثانية وهو في غايةٍ من الحيرة والــذهول، وراح يحملق في الذئبة التي انحنت على صغيرها تلعقُ جسدَه.. كان قد تعلم العيش مستقلاً عن أمه؛ ولئن كان وجوده لم يعد يعني شـــيئاً لدى من وهبته الحياة يوماً، فإنه بدوره كان قد اعتاد أن يحيا بدونها..

بقي مكانه لحظات ذاهلاً عن نفسه، مُجهداً مخيلتَه في اســتيعاب تلك الحقيقة القديمة الجديدة في آن، وإذا بالذئبة تعود لمهاجمته وقــد بدت عازمة على إبعاده بصفة نهائية عن صغارها.. وتراجــعَ دون مقاومة، فلدى بني جنسه قانون يحرم على الذكور مهاجمة الإناث أياً كان الدافع إلى ذلك... لم يكن "أبيض الناب" قد تعلم ذلك القــانون ولا شاهده يُطَبَّق قَط، لكنه كان يذعن له كما يذعن كلُ حيٍّ لطبيعته، وكما أذعن هو نفسه لها يوم وقف وحيداً في الغابة، موجهـــاً عينيـــه إلـــى السماء يشكوها خوفه وجزعه، فرفع عقيرته بعواء الذئب الشهير..

مضت الشهور وئيدةً و"أبيض الناب" يزداد في كـــل يـــوم قـــوة وضخامة.. أما طبعه، فوالى نموه حسب الوراثة والبيئـــة. ذلـــك أن الوراثة– شأن الصلصال في يد الفخار– تستطيع اتخاذ أشكال متعددة تحددها البيئة.. فلو لم يلجأ وهو بعدُ جرو إلى حمى الإنسان طائعـــاً مختاراً، لكانت حياةُ الغابة قد جعلت منه ذئباً متوحشاً كالآلاف غيـــره من الذئاب. لكن الآلهة البشرية التـــي أســـلمها قيـــادَه بنفـــسه أرادت لطبيعته أن تتشكل على منوال طبيعة الكلب، فكان كلباً، فيه لا ريـــب من الذئب شيء، لكنه كلب قبْلَ كونه أيَّ شيء آخر..

على ذلك المنوال صاغت حمولتُه الوراثيةُ طبعَه المتميز، تُحَددُ مسارَها في ذلك البيئةُ التي نما الذئب بها، فأصبح بمرور الوقت أكثر شراسة وانعزالاً، مما أقنع باقيَ الكلاب جميعاً بأن من الخير لها أن تدعه وشأنه، وملأ نفس "القندس الرمادي" رضًا به وحبوراً..

غير أنه كان للذئب الشاب– على قوّته النامية وثقته الوليدة بنفسه– نقطةُ ضعف تتجلى في كونه لا يطيق ضحك الآدميين الذي كان يبدو له شيئاً مقيتاً.. لم يكن يلقي بالاً إلى الهنود حين كانوا يضحكون لأمر يخصهم، لكنه كان يجن غضباً إذا رآهم ضاحكين منه مستهزئين به.. كان– وهو الرزين الوقور عادة– يفقد سيطرتَه على نفسه ليدخل في نوبة غضب عاصفة تدوم ساعات، وساعتها ويلٌ للكلب الذي يشاء سوءُ حظه أن يجده الذئب في طريقه.. فلئن كان "أبيض الناب" يعرف من القواعد والقوانين ما يكفي لكي يعلَمَ أنْ لا مطمع له في الاقتصاص لنفسه من الآلهة التي تمتلك المعرفةَ والأيدي الخطرة، فإنه كان يعلم أيضاً أنَّ له، إن شاء، أن يشفي غليله الكظيم على حساب الكلاب التي لا ملجأ لها عدا الهرب يقيها أنيابَه الغاضبة..

حين بدأ "أبيض الناب" يخطو في سنته الثالثة، حلت مجاعة رهيبة ضربت هنود منطقة "ماكنزي" بعنف لا يذكر له حيٌّ منهم مثيلاً.. فقد ندر السمك طيلة الصيف، وتخلّت قطعان "الكاريبو" خلال الفصل البارد عن الطرق التي كانت ترتادها عادة.. كانت الوعول في غاية الندرة، أما الأرانب البرية، فلم يَعُد يظهرُ لها من أثر.. بدأت الكواسر من الحيوانات تموت جوعاً، وبدأ بعضها ينقض على بعض فيلتهمه، فلم يبق حياً سوى أقواها شكيمة وأطولها احتمالاً.. ورأى "أبيض الناب" آلهته وهم يجولون كالمجانين بحثاً عما يسد الرمق.. ومات الصِّبية من سكان المخيم جوعاً وهلك المرضى والضعاف والمسنون، فلم تكن تَسمع في فضاء المخيم إلا أنيناً وتوجعاً صادراً

عن النساء والأحياء من بين الأطفال، والذين جلسوا جميعاً ينتظرون عودة الرجال من رحلة صيدهم التي ذهبوا إليها بعد أن أكلوا آخر لقيمات متوفرة هنالك لإكساب أجسادهم بعضاً من القوة..

انتهت الحال بالآلهة إلى أن أكلت جلد أحذيتها ومعاطفها، فيما أكلت الكلابُ أحزمتَها وكذا جلودَ السياط. ثم تطور الأمر فأكلت الكلاب بعضها. وأخيراً شرع البشرُ يأكلون الكلاب، فبدءوا بأضعفها جسماً وأقلها جمالاً، بينما الكلاب الأخرى تنظر وتفهم، فلم تلبث أشجعها وأذكاها أن فرت من المخيم الذي أضحى منحراً تذبح به بنات جنسها ذبْحَ الوعول، وراحت تحتمي بالغابة حيث مات بعضها جوعاً وأكلت الذئاب النهمة بعضها الآخر..

كان "أبيض الناب" من جملة الفارين، غير أنه كان- بفضل ما اكتسبه من تجارب خلال حياته مع أمه في الغابة- مؤهلاً أكثرَ من رفاقه من الكلاب لتَحَمُّلِ شظف ظروف العيش المتوحش الصعبة القاسية، فسرعان ما أصبح مختصاً باقتناص صغار الحيوانات من القوارض وأشباهها.. كان يكمن الساعات الطوال بانتظار أن يقرر سنجابٌ مختبئ مغادرة جحره.. وحتى حين كان القارض الصغير ذو الذيل المفلطح يخرج أخيراً، كان الذئب يحافظ على سكونه، فلا يضرب إلا حين تتأكد لديه استحالة أن تفلت ضحيته منه، فكان السنجاب المسكين يرى فجأة شيئاً رمادياً ينقض عليه من حيث لا يدري، فلا تجديه معه سرعته مهما عَظُمَت فتيلاً..

غير أن العملية ما كان لها، بالغاً مًّا بلغَتْ سرعةُ الذئب ودقته في تنفيذها، أن تستمر طويلاً. فالسناجب التي في الغابة جميعُها لم تكنْ لتكفيَ لإشباع شهيته النهمة. لذا، فسرعان ما تحوّلَ مرغماً إلى طرائدَ أصغرَ من السناجب، حتى إنه لم يعُد يتردد في حَفْر الأرض ملاحقاً فأرةَ حقول يخادع بها سَغَبَه، أو في مهاجمة "ابن عرسٍ" جائعٍ أكثرَ شراسةً منه وأحَدَّ أنياباً..

كان حين يعضه الجوع فلا يجد ما يلهيه به يقترب من مخيم الآلهة، لكن لا ليدخلَه، بل لينهبَ ما قد يتفق أن يجده عالقاً بالفخاخ المزروعة حوالي المخيم من طرائد نادرة.. وهكذا وقع ذات يوم بأرنب عالقٍ بفخ عرف من رائحته أن "القندس الرمادي" هو مَن نصبَه، فلم يتردد في التهام الأرنب، وذلك في وقت كان فيه سيدهُ الجائع يكاد لا يستطيع لضَعفه السيرَ على قدميه، فإن سار فمترنحاً كالثمل وما هو بثمل إلا من جوع ومن سغب..

ولقي "أبيض الناب" يوماً ذئبا صبياً رآه فتوقف مرتجفاً وهو يكاد ينهار جوعاً وإنهاكاً.. ولو لم يكن هو نفسه يعاني ساعتها جوعاً متصلاً دام أياماً، ربما كان ضمَّ إليه الذئب الصبي فكوَّنا معاً عصابةً صغيرة سرعان ما تذوب في قطيع من الذئاب المتوحشة. لكن الجوع كان أقوى دافعاً من نداء الطبيعة، فانقض الذئبُ على الجرو فقتَلَه وأكله...

كان الحظ يبدو في كل مرة إلى جانب "أبيض الناب". فحين كان الجوع يكاد يبلغ منه مبلغه، كان يعثر دائماً بفريسة يقيم بها أوده. أما إن كان في حالة من الضعف لا تمكنه من القتال بشراسته المعهودة، فإن طالعَه الحَسَنَ كان ساعتها يجنبه الوقوعَ بين براثن خصم أقوى منه وأقدرَ على العراك.. هكذا تمَكّن يوماً، بفضل معدته المليئة بلحم قطٍّ بري قتَلَه قبل يومين فقط، من الإفلات من أنياب قطيعٍ من الذئاب الجائعة طاردته طويلاً. بل إنه جاوز ذلك إلى العودة عبر مسارٍ دائري للبطش بالمُنْبَتّ من بين مطارديه المتعبين..

انتقل "أبيض الناب" بعد مضي زمن غير طويلٍ إلى الوادي الذي شهد مولدَه وطفولته. والتقى هناك بالذئبة "كيش" التي فرت بدورها من مخيمها وجاءت بجرائها لتستقر بها في جحرها القديم.. لم يكن قد بقي من الصغار إلا جرو ضعيف لا يبدو أن له أدنى حظ في البقاء. ولا غرو، فالمجاعات تقتل من الحيوانات أوّلَ ما تقتلُ صغارَها..

خصت الذئبة ابنها البالغ بما يليق بطبيعتها وظروفها من تكشير وزمجرة، لكنه لم يعرها اهتماماً واستدار متجهاً نحو الجدول فسار على ضفته حتى بلغ المغارة التي كانت تسكنها قطةٌ بريةٌ قاتَلَها وأمَّه "كيش" ذات يوم بعيد، فدخل المغارة الخالية ونام فيها يوماً كاملاً..

وحين جاء الصيف أخيراً، واقتربت فترة المجاعة من نهايتها، التقى "أبيض الناب" ذات يوم فجأة بالكلب "ليب-ليب" الذي كان قد فر بدوره من المخيم إلى الغابة حيث قضى شتاءً مضنياً.. كان الخصمان يعدوان في اتجاهين متعاكسين حين التقيا بغتة وجهاً لوجه، فتوقفا معاً وراحا يتبادلان النظر..

كان الذئب في حالة جيدة، فقد كان الحظ حليفه في الأيام الأخيرة وبطنُه مليئاً من فريسةٍ لم ينته من هضمها بعد؛ فما إن وقع بصره على عدُوِّه القديم حتى اقشعر جلده وانتفش شعر فروته من الذيل إلى أعلى العنق، فقد عاودته ذكرى ما سامه إياه الكلبُ من العناء الطويل.. وكعادته انقض على غريمه دون إنذار، فما يشعر الكلب المسكين إلا وهو منقلب على ظهره وأنياب الذئب مغروسة في عنقه، وما هي إلا لحظات حتى كان قد بدأ يحتضر وعدوه واقف يراقبه، فما ابتعد حتى لفظ الكلب أنفاسه...

بعد ذلك الحادث بأيام، وجد "أبيض الناب" نفسه بغتة ذات صباح على أطراف مخيم الآلهة.. كان قد جاء مرات عديدة إلى ذلك المكان خلال فصل الشتاء الطويل، فلم يكن يرى فيه من أحد. أما الآن، فقد كانت مجموعة من الخيام تحتله..

قبع الذئب في مكانه بين الأشجار يراقب ما يجري، فإذا به يجد للأصوات والروائح المنبعثة من المخيم ألفةً في نفسه، فزاد اقتراباً ليكتشف أن المضاربَ مضاربُ "القندس الرمادي" وذويه.. بيد أن روائح المخيم اليوم كانت تختلف عنها بالأمس يوم هجَرَه الذئب إبان المجاعة، ومثلها الأصوات. فأما الأصوات، فكانت قوية جذلة لا أثر

فيها لشكوى ولا لأنين (وقد نما إلى سمعه صوت هندية تصيح بابنها موبخة، فخمن أن بطن صاحبة الصوت لا شك مليئة..)، وأما الروائح، فإن الجو كان يعبق برائحة السمك الشهي..

كان بالمخيم طعام، ومعنى ذلك أن فترة المجاعة الرهيبة قد ولت...

خرج الذئب من مخبئه وسار مقترباً. ورأته "كلوكوش" زوجة "القندس الرمادي" مُقبِلاً فهتفت مرحبة بمقدمه، ورمت إليه بسمكة طرية التهمها "أبيض الناب" ثم اضطجع بانتظار عودة سيده...

الفصل الخامس عشر

عدُوٌّ بنات جنسه

لو كان لدى "أبيض الناب" بقيةٌ باقيةٌ من ودٍّ تجاه بنات خؤولته من الكلاب المدجنة ومن إمكانيةِ وئامٍ معها، لذهبت بها الأيام التي أصبح فيها الذئب قائداً لكلاب الجر. فقد أصبحت الكلاب تضمر له– إلى غلها القديم– كراهيةً ومقتاً خالصين، كانت تشعل جذوتَهما قطَعُ اللحم الإضافيةُ التي كان يختصه بها "ميتساه" جرياً على عادته الماكرة، ويذكيها منظرُ الذئب وهو يعدو أمامها ساحباً حبلَه وذيلُه يلعب حيال أنوفها باستفزاز..

أما هو فقد كان يضمر لرفاقه من الكراهية مثل ما يضمرون.. والحق أن مكانه أمام الزلاقة في مقدمة الكلاب لم يكن مما يُحسد عليه. فليس هناك من متعة في أن يجد نفسه طيلة النهار يعدو والكلاب وراءه كأنها تتسلى بمطاردته، مقتصَّةً من انتصاره عليها جميعها في معارك منفردة.. فيما كان "ميتساه" يعطي إشارة الانطلاق حتى كانت تنقض جميعاً على الذئب– كما كانت الجراء تفعل بـ"ليب–ليب" قبله– فلا يملك إلا أن يعدوَ هارباً، ساحباً القطيع والزلاقة من خلفه. ذلك أنه لم يكن يجد إلى الدفاع عن نفسه من سبيل.. ولكم تمنى لو يستطيع الاستدارة فجأة كعادته والبطش بأقرب أعدائه إليه؛ لكنه كان يعلم أن سوط الفتى بالمرصاد، فلا يجد سوى الانطلاق هارباً أمام الكلاب في مرحلة جديدة تمتد بطول النهار. وإنه لقادرٌ على احتمال المرحلة والمرحلتين دون توقف، لكنَّ ركضَه كالهارب على تلك الطريقة المخزية كان يورثه إحساساً أليماً بالمهانة لا يُحتَمل..

ليس من السهل على الكائن الحي أن يتصرف بما يتعارض وطبيعتَه دون أن يكون لذلك انعكاس عليه، كالشعرة تنبت من الجلد لحمايته وتدفئته، ولو نبتت إلى الداخل لسببت للجسم ألماً وكرباً.. فقد راحت الثورة تتجمع في نفس الذئب حمماً صاخبة هادرة، أرغمه سوط الآلهة على كظْمِها، فراحت تنخر حنايا نفسه، حتى أصبح على شراسة وضراوة يصعب وصفهما، ويفوقان بكثير ما عُهد منهما لدى بني جلدته. ولئن يكن من كائنٍ قد أصبح يوماً عدوًّا لدوداً لبني جنسه، فإن ذلك الكائن هو "أبيض النابِ".. لم يكن يرحم من يقع بين أنيابه منهم ولا هو يطلب رحمة.. فما كان النهار ينقضي وتتوقف القافلة، حتى يشرع في الانتقام لما سامَوه في يومه.. وإن كان من عادة الكلب الأمامي المكروه أن يحتمي بسيده ما أن يتوقف الركب، فإن "أبيض الناب" كان على العكس من ذلك يمضي متجولاً في أرجاء المخيم، باطشاً بكل من يعثر به من رفاق النهار.. غير أن الكلاب التي كانت قوة الذئب قد أرهبتها في الماضي وأبعدتها عن طريقه، أصبحت، تحت تأثير منظر الفرار اليومي– أو ما كانت تخاله فراراً– أقل رهبة له وأكثر جرأة على مواجهته، فكانت النتيجةُ سلسلةً طويلة من المعارك زادته شراسةً وعنفاً.. كان كل ما يحيطه ينضح بالكراهية، فانعكس ذلك عليه، فزاد مزاجَه سوءاً وطَبْعَه شراسةً ودموية..

كانت الكلاب، حين يُصدر "ميتساه" أمره بالتوقف فيمتثل "أبيض الناب" دون إبطاء، ترتمي على الذئب حاسبة إياه قد استسلم لها، رغم أن بضع ضربات من سوط الفتى جعلتها تفهم سريعاً أن الملاحقة تنتهي بانتهاء الجر وتوقُّفِ الزلاقة، وأنَّ عليها ساعتها أن تدع الذئب وشأنه. على أن "ميتساه" لم يكن يثني الكلاب إذا توقَّف "أبيض الناب" دون أن يأتيَه الأمر بذلك، بل كان يعينها عليه بسوطه. وما سرعان استوعب الذئب هذا القانون الجديد، فلم يعُد يتوقف أبداً إلا إذا صدر الأمر من قائده بذلك.. أما الكلاب التي لم تكن في مثل نباهته وذكائه،

فلم تستفد شيئاً من الدروس العديدة التي اضطر "أبيض النـاب" إلـى إعطائها إياها المرة تلو الأخرى، بل كان الذئب يجد نفسه مرغماً كل ليلة على العراك والبطش بخصومه الأغبياء، فكان في ذلـك وحـده دافع لهم إلى كراهيته. ثم إن تلك الكلاب جميعها لم تكن سوى ذئـاب جرى تدجينها منذ أجيال بعيدة، لكنها لا تزال تجد في أعماقها صدًى لنداء الحياة المتوحشة، وهي الحياة التي كان "أبيض النـاب" يمثلهـا أمامها مجسَّدةً. فكانت، حين تقاتله، تقاتل فيه القوى المدمرة العميـاء الجائمة في الغابة المظلمة ترقب ضحاياها بعيونها البراقة النهمة..

غير أن معارك الكلاب المتواصلة مع "أبيض الناب" لم تكن غير ذات جدوى لها، إذ علَّمَتها فضائلَ الاتحاد. أن الذئب كان أقوى منهـا كلها جسماً، وأغنى تجربةً في فن القتال، ولو قاتلهـا جميعهـا فـي معارك فردية لأفناها عن بكرة أبيها في ليلة واحدة. لذلك تعلمـت أن تقاتله مجتمعةً؛ فإذا أسقط الذئب أحدها أرضاً انقض عليه الباقون قبل أن يتمكن من إنشاب أنيابه في عنق ضحيته، وألْهَوْه عنهـا. فكانـت الكلاب تتعارك في ما بينها، حتى إذا ظهر الذئب توقفت عن العراك وواجهته جبهةً واحدة. غير أنها لم تفلح يوماً– رغم عديد المحاولات– في التغلب على "أبيض الناب" والقضاء عليه. فالذئب كان أسرع منها حركةً وأخف جسماً، إلى قوةٍ ورشاقة لا تضاهَيَان وقدرةٍ عجيبة على المناورة.. كان يعرف كيف يتفادى القتال في الأماكن الضيقة، وكيف يفك عن نفسه الحصار إذا أفلح خصومه في ضـربه حولـه.. أمـا إسقاطُه أرضاً، فذلك ما لم يستطيعه أحد منها قط. فالذئب كان يتمسك بتوازنه تَمَسُّكَه بالحياة، لأنه كان يدرك أكثر منها جميعاً أن الـسقوط أرضاً يعني في تلك الأصقاع المتوحشة الموتَ الزؤام..

هكذا أصبح "أبيض الناب" عدوًّا لدوداً لبنات جنسه من الكـلاب الذئبية التي ألانت العبوديةُ الطويلة شوكتَها وأخمدت حواسها.. أعلَنَها حرباً شعواءَ على الكلاب جميعاً، بوحشيةٍ جعلت "القندس الرمـادي"

نفسه– وهو الجلف الغليظ– يقول عنه مرتعباً إن عيَن بَشَرٍ لم تقع على حيوان في مثل شراسته وعنفه. وكان ذلك الرأي هو نفسه رأي الهنود من سكان المخيمات المجاورة، الذين كلفهم الذئب كلاباً عديدة...

حين قارب "أبيض الناب" الخامسة من عمره، أخذه "القندس الرمادي" معه في رحلة طويلة ثانية، فسار الذئب تسبقه سمعته السيئة، سواء على ساحل "ماكنزي" ثم سفوح جبال "روكي"، أم على ضفاف نهرَي "بوركوبين" و"يوكون".. كان ضحاياه جميعاً من الكلاب التي كانت تضيع وقتها في الهرير والزمجرة ونفش الشعر، في حين كان "أبيض الناب" يتمطى فجأة وكأنه زنبرك من الصلب، فيضرب ضربته ويبطش بخصمه قبل أن يعيَ الكلب المنذهل ما يقع له..

أصبح الذئب خبيراً في فن القتال، يعرف كيف يقتصد في تصريف طاقته وكيف يتفادى بخفته المذهلة الاصطدام بخصومه اصطداماً مباشراً.. كان يكره الاتصال الجسدي المباشر كما تكرهه كل الذئاب. لقد علمته حياته الأولى في الغابة أن سلامته هي في البقاء باستمرار بعيداً عن ملمس ما عداه من الأحياء، فكان يحرص على أن يبقى على الدوام حراً في حركاته، منتصباً في وقفته.. كان ذلك داخلاً في طبيعته، فأصبح– بحكم حياة المنبوذ التي عاشها حتى اليوم– وكأنه من الضروريات الحيوية لديه.. كان وجودُ جسد آخرَ على مقربة من جسده يعني لديه الخطرَ والفخ.. الفخ الذي ينزوي الخوف منه في حنايا نفسه، وكأن أعصابه قد نُسجت من أليافه.. ذلك وغيره جعل خصومه من الكلاب التي كان يصادفها في رحلته عاجزةً تماماً عن التغلب عليه، فقد كان يعرف كيف يخوض معركةً وهو على يقينٍ تام من الفوز بها، وكيف يتفادى أخرى لاح له فيها شبحُ الهزيمة، فلم يجرحْه منهم نابٌ قَط ولا مزق جلدَه مخلب.. كان

للقاعدة شواذها بالطبع، إذ ربما استطاع كلبٌ هنا أو هناك، بمفرده أو بمساعدة رفيق، أن يكيل له عضة أو عضتين. لكنها حالات نادرة لم تكن لتزيدَ القاعدةَ إلا رسوخاً.. فالذئب أصبح خبيراً في فن القتال...

وكان له على خصومه بالإضافة إلى ذلك درجةٌ، تتجلى في تقديره الزمنَ والمسافات تقديراً جيداً.. كان ذلك ميزةً طبيعية لديه. فعصبه البصري كان ينقل الصورة دقيقةً مُفَصَّلَةً إلى الدماغ الذي يتصرف عندئذ بسرعة ومهارة.. كان جسمه أحسن تنظيماً وذهنه أكثر توقداً مما هو معهود لدى بني جنسه، فكان يستفيد بخفة ومهارة عجيبتين من كل ما يراه، فيتفادى في جزء من الثانية عضةً من خصمه، ويهجم باطشاً به في جزء الثانية الذي يليه.. كان عقله وجسده يعملان في تناسق بديع خصته به الطبيعة دون الكثيرين من أبناء جلدته..

لم يصل "أبيض الناب" وسيده حصنَ "يوكون" إلا مع بدايةَ الصيف، فقد قضى "القندس الرمادي" الربيعَ في القنص عبر البراري الخضراء الممتدة غرب جبال "روكي" مما يلي الأنهار التي قطعها الهندي خلال الشتاء، مستفيداً من تجمد مياهها، صانعاً لنفسه قارباً عندما بدأت الثلوج في الذوبان، راح يمخر به عباب نهر "بوركوبين" حتى مصب النهر الصغير في نهر "يوكان"، جنوب الدائرة القطبية مباشرة.. هناك كان ينتصب الحصن الذي كان ملكاً لشركة "خليج هدسون". وكان به عددٌ كبير من الهنود والكثير من الطعام وحركة دائبة لم يشهد الذئب لها من قبل مثيلاً.. كان ذاك صيف عام 1898، وآلافُ المغامرين الباحثين عن الذهب يصعدون مجرى "يوكون" متجهين نحو "داوسون" أو "كلونديك". وكانوا لا يزالون على مئات الأميال من هدفهم، رغم أن كثيراً من بينهم قد بدؤوا رحلتهم لأكثر من سنة خلت قطعوا خلالها آلاف الأميال .. فبعض هؤلاء المغامرين كان قادماً من نصف الكرة الأرضية الجنوبي...

توقف "القندس الرمادي" بالحصن لأن خبر المغامرين الباحثين عن الذهب كان قد بلغه، فأتى بما استطاع حمله معه من فرو وجلود وأحذية وأخفاف وما شابه ذلك، طمعاً في ربح وفير يحققه من وراء أولئك الغرباء. لكنَّ ما وجده أمامه فاق كل تصوراته، فقد عُرض عليه ثمناً لسلعه سعرٌ يضاهي ربحُه فيه المائةَ بالمائة، وهو رقم ما كان الهندي يجرؤ على تصوره ولا حتى في الأحلام.. غير أنه لم ينبهر لذلك، بل نظم تجارته كما ينبغي لهندي عاقل أن يفعل، ووطَّد العزم على البقاء مكانه طالماً بقي مجالٌ للربح مفتوحٌ، حتى ولو قضى في ذلك صيفه كله، بل وشتاءه أيضا..

كان حصن "يوكون" أول مكان يرى الذئب فيه آدميين بيضَ البشرة. وبدوا له– مقارنة بالهنود الذين ألفهم حتى اليوم– كائنات من فصيلة أخرى، متفوقة على فصيلة آلهته.. تملَّكه انطباعٌ بأن لهذه الآلهة ذات البشرة الشاحبة والشعر الأصفر قُدُرات تفوق بكثير ما لإلهه ولأمثاله من الهنود.. كان ذلك إحساساً غامضاً، لكنه كان قوياً جارفاً، كالإحساس الذي اعتراه يوم نزلت إليه يد الإنسان لتؤدبه، عنوانَ هيمنتها الطاغية التي تقَبَّلها ودانٍ لها من غير أن يتساءل عن علتها ولا عن ماهيتها.. بدت له منازلُ القوم الضخمةُ المهيبة علامةَ قوةٍ لا تقاس بها في شيء قوةُ الآلهة التي عرفها حتى اليوم، بمن فيها "القندس الرمادي" الجبار، أقوى تلك الآلهة جميعاً وأعظمها سطوة.. وبدا له سيده الهندي أمام أولئك الآلهة العُتاة صغيراً، وكأنه إلهٌ طفل..

كان الذئب يشعر بكل ذلك دون أن يدركه بالفعل. بيد أن سلوك الحيوان هو نتيجةُ شعورٍ وإحساس أكثرَ منه نتيجةَ تفكير. لذلك أطاع "أبيض الناب" شعورَه الذي أوحى إليه بأن الآلهة شاحبةَ البشرة كانت أقوى بكثير من الهنود الحمر، فراح بادئ الأمر يرقبها مخافة أن يصدر عنها ما يُحذَر منه. فلما لم ير منها شراً ازداد اقتراباً. وكان منظره قد استثار فضول سكان الحصن، الذين راحوا يشيرون إليه

بالبنان متعجبين من هيئته وضخامته، فامتلأ الذئب حَذَرًا وطفق يكشر عن نواجذه متوعداً كلما حاول أحدهم الاقتراب منه..

لم يمض وقتٌ طويل حتى أدرك "أبـيض النـاب" أن القـاطنين الدائمين بالحصن لم يكن عددُهم يتجاوز اثني عشر نفراً. فقد لاحظ أن سفينةً بخارية– مظهرٌ آخرُ مـن مظـاهر قـوة الآلهـة البيـضاء وجبروتها– كانت تُلقي مرساتها كل يوم أو يـومين جنـب الحـصن فينزل من على متنها أناس كثيرون يبقون على البر ساعات يعودون بعدها إلى سفينتهم، فأتيح له على هذا المنوال أن يرى من البيض في يوم واحد أكثر مما رأى من الهنود طيلة سنيِّ حياته الخمس..

غير أن الآلهة البيضاء لم يكن لهـا كِـلاب فـي مثـل قوَّتهـا وجبروتها، فقد شاهد الذئب منها أصنافاً لا تُعَد ولا تحصى، واخـتلط بها لدى نزول أصحابها من السفن.. كـان فيهـا قـصيرُ الأرجـل والطويل، وذو الشعر الكثيف المسترسل، وآخرُ قد خَفَّ زَغَبُه حتـى لَيَحسبه الرائي لا شعر له.. بيد أنه لم يكن بينها جميعـاً مـن يجيـد القتال.. ولم يراع الذئبُ طبعَها المسالم، بل سار على سجيته مطلقـاً العنان لطبيعته العنيفة الشرسة ؛ فلما لم يجِد مُنازِلاً كفئاً أضحى يكنُّ ازدراءً عظيماً لهذه الكلاب هادئة السلوك غريبة الطبع مُتَبَلِّدَة الحواس التي كان الواحد منها يجابهه بكلِ صفاقة، حاسباً نفسه يقدر علـى أن يحسم بالقوة معركةً لا تحسمها إلا الدراية المتوفرة لـ"أبيض النـاب" وحده. فكان الكلب يتقدم إلى الأمام وهو يَهِرُّ مزمجراً مُرْغِياً مُزبِـداً، وفيما هو كذلك يختفي الذئب الصامت فجأة عن ناظريه، وبينما هـو يتساءل أين ذهب خصمه، ينقض عليه "أبيض الناب" بغتة من حيث لا يدري فيطرحه أرضاً ويضرب ضربته القاتلة..

كانت كلاب الهنود قد اعتادت انتظار تلك المعارك. فما إن يسقطَ خصمُ "أبيض الناب" متخبطاً في دمه، حتى تنقض عليه فتفترسه فـي الحال.. أما الذئب، فكان ينسحب بعيداً حيث يجلس مراقباً المجـزرة

الرهيبة. فقد كان أحصفَ من أن ينتظر جنب ضحيته وهو يعلم حــق العلم أن الآلهة– تستوي في ذلك البيضاء منها وغيرها– لا تغفر أبداً جريمة من يقتل حيواناتها.. ولم يكن على خطأ، إذ ما إن تبدأ الكلاب في تقطيع أوصال الضحية حتى تنهال عليها القذائف حجارةً وعصيًّا من كل حدب وصوب، بينما الذئب قابعٌ بعيداً يتلذذ بما ينــالُ بنــاتِ جنسه من عقاب..

أما خيرُ توقيت مناسب لمهاجمة الكلاب الزائرة فكان لحظةَ رُسُوِّ الباخرة، إذ يكون القّوم منشغلين بعملية النزول. ذاك ما لم تلبث كلاب الهنود– وعلى رأسها "أبيض الناب"– أن أدركته، فأضحت تهرع إلى الشاطئ ما إن تسمع صفارة سفينة قادمة، فتتمكن عادة من قتل كلــب أو كلبين قبل أن يستطيع أصحابها التدخل لحمايتها..

وذات يوم، قتلت الكلاب جرواً من فــصيلة نــادرة وشــرعت تتخاطف لحمه، فإذا بصاحبه الغاضب يخرج مسدسه فيطلق منه ست رصاصات بقيت بعدها ستة من الكــلاب أرضــاً، مــا بــين ميــت ومحتضر، فيما ولى الباقون الأدبار.. أما الذئب، فكان– جرياً علــى عادته– مقعياً يشهد من بعيد فصول المجزرة بتلذذ.. أوَليس الجميع– الضحية ومن تلاها من جلاديها– من تلك الفصيلة التي يكــنُّ لهــا الكراهية والبغضاء؟..

لئن كانت الطلقات الست التي خرجت من يد صاحب الكلب قــد كشفت للذئب– الذي لم يكن قد شاهد مسدساً من قبل– عن مظهر آخر من مظاهر قوة الرجل الأبيض التي لا تُحد، فإنها لم تكن لتثنيه عــن مواصلة قتل كلاب الزوار، متلذذاً باضطهاد بني جلدته الذين لم يتعلم طوال حياته أن يحمل لهم سوى الضغينة والحقد الأسود.. وساعده في ذلك انشغالُ "القندس الرمادي" بتجارته، فراح يجوب أرجاء الــضفة القريبة من الحصن، وقطيعٌ ضخم من كلاب الهنود في أثره، منتظراً رسو السفينة القادمة التي ما إن تلقي مرساتها حتى تجــده وقطيعَــه

متوثبين للانقضاض على ما يغادرها من كلاب. وفي العادة، كان كل شيء يتم بسرعة فائقة، فيجهز الذئب على كلب أو كلبين قبل أن ينتبه أصحاب السفينة إلى ما يقع، ثم يختفي قبل أن يراه أحد منهم، فلا يعاود الظهور حتى تلقي السفينة التالية مرساتها. ووجدت كلاب الهنود في تلك اللعبة متعةً لا تضاهى ولقمة إضافية، فأضحت تترقب جميعها بفارغ الصبر ظهور سفينة جديدة في الأفق..

لم يكن "أبيض الناب" يختلط بباقي الكلاب. أجل، كان يتعاون معها في استفزاز الكلاب الزائرة واستدراجها إلى المعركة، ثم في ضربها الضربة المميتة؛ غير أنه كان يختفي بعد ذلك مباشرة، تاركاً لبقية القطيع مهمة إنهاء آخر فصول المأساة، وكذا مسؤولية تحمُّل العواقب متى كان ثمة عواقب..

الحق أنه لم يكن يجد صعوبةً تُذْكَر في استفزاز الكلاب الغريبة. فقد كان يكفيها في غالب الأحيان أن تراه لكي تنقض على عدوِّها الأزلي الذي تتعرَّفه فيه. ولا غرابة، فهي جميعها سليلةُ عبوديةٍ دامت أجيالاً، منذ ذلك اليوم البعيد الذي قبِلَ فيه أحد أسلافها القدامى الخضوع لهيمنة الإنسان وسيادته، نظيرَ حماية الإنسان ورعايته ودفء ناره. أما "أبيض الناب"، فكان ينحدر مباشرة من عمها البعيد، ذاك الذي اختار منذ القديم أن يبقى مستقلاً عن الكائن البشري ضَنّاً بحريته.. ومهما تكن الغريزة لدى تلك الكلاب المدجنة قد فقدت قوّتها وتأثيرها، فإنها كانت لا تزال ترى في الذئب عدوًّا لا تستطيع التمالك عن مهاجمته. وذاك بالذات ما كان يعطي "أبيضَ الناب"– حسب قانونه المعروف– الحقَّ في البطش بها..

كانت حياة الذئب الماضية، من ولادته في الجحر المنعزل إلى معاركه الأولى مع "ابن عرس" وأنثى "الوشق" الشرسة وقبلهما الدجاجة القطبية، ثم ما سامه إياه "ليب–ليب" ورفاقه من عناء بعد ذلك، قد أسهمَت بنصيبٍ كبير في تشكيل طبعه وتكوين شخصيته. فلو

أن ظروفه كانت مختلفة لكان هو أيضاً مختلفاً عمَّا كان عليه. ولــو وَجد– وهو بعدُ جروٌ– مناخاً ملائماً، ولعب مــع أترابــهِ وشــاركهم مرحهم، ربما أزهَرَ ما كان يثوي في داخله من بذورِ الطّيبــة. لكــن محيطه ناصَبَه العداء بلا هوادة، فكال هو للمحيط الــصاعَ صــاعين مبادلاً إياه عداءً بعداء، وشبَّ على ما هو عليه، فَظًّا شرسًا منعــزلاً عدوًّا لدوداً لبنات جنسه...

الفصل السادس عشر

الإلـه المجنـون

كان الرجال البيض القاطنون بالحصن بصفة دائمــة يــسكنون المنطقة منذ عهد بعيد.. كانوا يسمون أنفسهم "آكلي الخبز الحامض"، ويضمرون لزوارهم من الغرباء كثيراً من الازدراء، مطلقين علـيهم لقب "التشيتشاكوس".. ولم يكن الزوار يحبون ذلك اللقب المستنبط من كونهم يستعملون الخميرة في صنع خبزهم، في حين كان أهل الحصن يخلطون عجينهم- نظراً لانعدام مادة الخميرة هناك- بعجــينٍ بائــت يعطي خبزَهم لدى التخمر طعماً ذا حموضة ملحوظة..

لم يكن قاطنو الحصن يحبون زوارهم من الغربــاء العــابرين؛ وكان عداؤهم ذاك يشمل كلَّ ما يدخل في ملكية أولئك الزوار. فكان في منظر "أبيض الناب" وهو يقتل كلابهم ما تبتهج له أفئــدةُ "آكلــي الخبز الحامض" الشامتة، فأصبحوا ينتظرون- ككلاب الهنود- تلــك الملهاة الجديدة التي أضحوا يهرعون جميعاً، كلما ســمعوا صــفارة سفينة قادمة، للاستمتاع بها، معجبين بشراسة الذئب وبراعتــه فــي القتال..

فيهم رجلٌ كان يجد في منظر "أبيض الناب" وهو يمزق أعناق خصومه لذةً لا توصف، فيسبق الجميع إلى الشاطئ وكله شوق إلــى مرأى الدماء والأشلاء. فإذا بطــش الــذئب بخــصمه وراح الكلــب المسكين يتخبط في دمائه محتضراً، كنتَ ترى الرجل يقفز في مكانه منتشياً كطفل عثر بلعبة، معبِّراً بوحشية لا مثيل لها عن تلذذه بالمشهد البشع، وهو يحدج الذئب الشاب بنظرات تنطق بالجشع..

لم يكن أحد في الحصن يعرف اسم ذلك الرجل، ولـــذلك لقَّبــوه "سميث الوسيم".. والحق أنه لم يكن له في اسمه من نصيب، اللهم إلا السخرية التي أرادها من سمَّاه به. فقد كان الرجل قميئاً قبيحَ المنظـــر صغيرَ تقاطيع الجسم ضامِرَهُ، برأس مدببة عند قمتها جعلت أترابـــه يدْعونه قديماً وهو بعدُ طفلٌ "رأس الإبرة".. كانت جمجمته من الخلف مُسَطحة كأنها والقفا قطعةٌ واحدة؛ أما من الأمـــام، فـــإن الطبيعـــة– وكأنها تعتذر عن بخلها– حَبَتْه بوجهٍ كلُّ شيء فيه ضخم، بدرجة لا تتناسب وبقيةَ تقاطيع جسمه الضئيلة.. جبهته واسعةٌ مفلطحة، وعيْناه متباعدتين، وفكه السفلى عظيمةٌ إلى حدٍّ جَعَلها تبدو– لعجـــز العنـــق الضعيف عن حملها– وكأنها قد وُضعت مباشرة على الصدر (الحق أن ما كانت توحي به تلك الفك العظيمة وذلك الوجه الضخم من قـــوة جبارة عنيفة عاتية، لم يكن سوى مظهرٍ خادع.. فالرجل كان معروفاً بين باقي سكان الحصن بجبنه الشديد ولُؤمه..) أضف إلى كل ذلـــك نابين حادتين تطلان من تحت شفته العليا، فتكـــسبانه ســـحنةً تُـــذكر بمنظر "ابن آوى".. أما عيناه، لونهما أصفر شاحباً كلون شعره؛ كأن الطبيعة حين شكَّلَتْه لم تجد ما يكفي من الأصباغ والملونات، فجاء كل شيء فيه باهتاً كأنه خليط من بقايا الألوان.. أما شعر لحيته، فنبت هنا وهناك نتفاً متفرقة زادت اللوحةَ فأتمَّتها شناعةً وبشاعة..

جملة القول أن "سميث الوسيم" كان وحشاً كالكثيرين من غيـــره الذين ظلمتهم الحياة فزادهم المجتمع ظلماً إلى ظلم.. يـــضطلع فـــي الحصن بمهام الطبخ والغسيل وما إلى ذلك من حقير الأعمال.. ولـــم يكن الآخرون يحتقرونه، أو قل إنهم لم يكونوا يبدون احتقـــاراً لـــه؛ يقبلونه بينهم بتسامُح كما يقبل الناس أمثاله.. حلماً وتـــسامحاً، لكـــن بخوف وحذر، إذ مَنْ كان يدري ما قد تدفع الرَجلَ إليه رغبتُـــه فـــي الانتقام من مسيء، من طعنة أو طلقة في الظهر، أو جرعة سم فـــي فنجان قهوة..

ثم إن "سميث" كان طباخاً ماهراً؛ وفي ذلك ما ضمن له عمـــلاً ثابتاً في الحصن.

ذلك هو الرجل الذي كان يتلذذ بمرأى إنجازات "أبيض النـــاب" الدموية، ويتحرق شوقاً إلى تَمَلُّك الذئب الشرس.. وقد بدأ منـــذ أول يوم يحاول التقرب منه. لكن الذئب تجاهله، ثم شرع– حـــين أصـــبح الرجل أشدَّ إلحاحاً– يكشر عن أنيابه متراجعاً كلما رآه يقترب..

لم يكن "أبيض الناب" يحب ذلك المخلوق.. كان شديد الحذر من يده الممدودة وكلماته المعسولة.. كـــان يـــشعر، وإنْ يكـــن شـــعوراً غامضاً، بما يَسكن الرجلَ من شرٍّ كامن..

كان يكرهه كراهيتَه الموتَ الزؤام...

للكائنات البدائية تصوراً بسيطاً ترى العالَمَ من خلاله مكوناً مـــن عنصرين لا ثالث لهما، هما الخير والشر. فالخير هو كل مـــا جلـــب اللذةَ وكان خالياً من الألم؛ لذا فالكائنات البدائية تحب الخير.. والـــشر هو كل ما صاحَبَه ألمٌ دون لذة؛ لذا فالكائنات البدائية تكره الشر. وقد خمن "أبيض الناب" كثيراً من الشر وراء ملامح "ســـميث" المخيفـــة، وشعر بما ينبعث من ذلك الكائن المشوه من إشعاعات شريرة كأنهـــا روائحُ تعفنٍ تنبعث من مستنقعٍ آسنٍ، فاتخذ منه حذره وأصـــبح، دون أن يدري، يَكنُّ له مقتاً وكراهيةً كبيرين..

كان "أبيض الناب" موجوداً بمخيم "القندس الرمادي" حـــين زاره "سميث" لأول مرة.. وتعَرَّفَ الذئب خطوات الرجل حتى قبل أن يراه، فانتفض واقفاً وابتعد إلى جانب المخيم بينما "الوسيم" يمضي نحو سيده الهندي، ووقف بعيداً يراقب الرجلين وهما يتحدثان.. لم يكن بـــالطبع يدري ما موضوع حديثهما، لكنه حين رأى "سميث" يشير إليه وهـــو يتكلم أصدر زمجرةً مخيفة، وكأن اليد الممتدة على بعد أمتـــار منـــه توشك أن تلمسه.. ورأى الرجلَ ينفجر ضاحكاً من ردة فعله، فانسحب مختفياً وهو يزمجر بغضب..

لم يقبل "القندس الرمادي" بادئ الأمر بيع "الوسيم" ذئبه، فالهندي كان قد حقق وفيرَ الأرباح وينتظر تحقيق المزيد، ولا دافع لديه للتخلص من حارسه القوي الأمين.. وراح يعدد مناقب الذئب الكثيرة، بدءًا بقوّته على الجر قوة "لا يضاهيه فيها حيوان في حوض "ماكنزي" ولا في البر الشمالي كله"، وانتهاءً بأمانته ويقظته في الحراسة، ناهيك عن شراسته في القتال.. فهو "يستطيع قتل كلب بري قوي بالسهولة ذاتها التي يقتل بها الإنسانُ بعوضة" (كان في ذلك وحده حجةٌ سال لها لعاب "سميث الوسيم") بيد أنه ليس في نيته بيعه أيًّا كان الثمن المقترَح..

كان الوسيم يعرف كيف يكسر شوكة الهندي، فتظاهر بالتخلي عن رغبته في شراء الذئب، لكنه حرص على ربط علاقة صداقة بصاحبه، فشرع يأتيه كل يوم بطبق أو طبقين من مطبخه و.. زجاجةً كحول...

الكحول كما هو معلوم يُولِّد الظمأ، فسرعان ما أصيب الهندي المسكين بجفاف الحلق، وراحت خلايا جسمه تصرخ جميعها مطالبة بنصيبٍ من السائل الملتهب.. ولم يطُلْ به الزمنُ أن انقلب ذلك على تجارته فكسدت، و راح مدَّخَره يذوب رويداً، ومعه ما فَضُلَ للرجل من إرادة، حتى انتهى به الأمرَ إلى أنْ لم يبق لديه إلا عطشُه..

عاد "الوسيم" يتقدم من جديد بعرضه المغري لشراء الذئب. لكن الثمن المعروض كان هذه المرة زجاجاتٍ من كحول.. وقال له الهندي وهو يفتح إحداها بيد مرتعشة:

– هو لك إن أنت استطعت الإمساك به..

تَمَّ دفْعُ الثمنِ مقدماً، ومضى يومان رجع "الوسيم" بعدهما حاملاً زجاجتين إضافيتين وهو يقول باستسلام:

–أمسكه لي أنت..

عاد "أبيض الناب" ذاك المساء إلى المخيم، وأقعى جنب النار– بعد أن تأكّدَ أنْ لا أثرَ هناك للإله الأشقر– ثم راح في إغفاءة..

كان الإله الأشقر قد طارده طيلة اليومين الماضيين، مستعملاً كل الوسائل، من ترغيب وتهديد وكلمات معسولة وصـــرخات غاضـــبة. غير أن الذئب، مدفوعاً بغريزته، ظل يحرص على البقاء بعيداً عـــن متناول هاتين اليدين اللتين كان يشعر بغموض أن في إمساكهما بـــه خطراً محققاً، فما استطاع له "الوسيم"- على مَكرِه ودهائـــه- طيلـــة اليومين طَوْلاً..

غير أن الذئب كان يجهل أنه قد أُتيَ من مَأْمَنِ وأنَّ صاحبَه مَـــنْ باعه. ولذلك، لم يحرك ساكناً حين رأى "القنـــدس الرمـــادي" يتجـــه صوبه متمايلاً، ولا أبدى تمَنُّعاً حين طوَّقَ الهندي عنقه بحـــزام مـــن الجلد أمسك طرفه بيد على حين راح- وهو مقرفص- يعبُ كحـــولاً من زجاجة في اليد الأخرى..

مضت ساعة على ذلك النحـــو، ثـــم ســـمع الـــذئب خطـــوات "الوسيم"..سمعها وتَعَرَّفَها حتى قبل أن يشعر بوقعها الهنـــدي الثمـــل، فحاول الانفلات، لكن يد الرجل المرتعشة شددت من قبـــضتها علـــى الحزام، فبقي الذئب مكانه واقفاً وقد اقشعر جلد رأسه وانتفش شـــعر فروته الرمادي..

اقترب "الوسيم" بخطوات واسعة حتى بلغ موقف الذئب وصاحبه، ومد يده نحو الحيوان يريد أن يربت على رأسه ملاطفاً. لكن الـــذئب كره أن تلمسه يد ذلك الرجل، فشرع ينبطح فراراً من اليد المقتربـــة منه وهو يطلق زمجرة تحذير، فما زادت اليد إلا اقتراباً منـــه حتـــى لامست أناملُها أطرافَ شعر رقبته، فلـــم يَعُـــدْ يـــستطيع احتمـــالاً، واستدارت رأسه في خفة الحية نحو اليد التي انسحبت بسرعة تاركةً فكه تنطبق على الهواء..

ندت عن "الوسيم" صرخة هلع، ولطم الهنديُّ الذئبَ بيده فـــانبطح الحيوان أرضاً طاعةً لسيده، لكنه بقي مصوباً نظره إلى الإله الأشقر في حذر.. واختفى الرجل لحظةً عاد بعدها يحمل هراوة ضخمة فـــي يده. حينذاك ناولَه "القندس الرمادي" طرفَ الحـــزام الجلـــدي الـــذي سرعان ما توتر بفعل رفضِ الذئب القيامَ.. وصفعه الهنـــدي بقـــسوة

على صفحتي وجهه لإرغامه على النهوض، فقام من مكانه، ولكن لينقض على "الوسيم"..

كان "سميث" بانتظار محاولة كتلك؛ فما أن رأى الذئب منقضًا حتى كال له بهراوته ضربةً أوقفته، بل وردّته إلى الوراء متضعضعاً، تحت ضحكات "القندس الرمادي" الرنانة.. وعاد "الوسيم" يسحب الحزام الجلدي، فتبعه الذئب صاغراً وقد أقلع عن كل نية في مهاجمته؛ فقد كانت ضربةٌ واحدة كافيةً كي يدرك- وكيف لا وهو الحيوان الذكي- أن العنف لن يجديه شيئاً، ما دام مربوطاً، في مواجهة إله يعرف كيف يستعمل الهراوة بذلك الإتقان المرعب.. تبعه مستسلماً وذَنَبُه بين قائمتيه وزئيرٌ غاضب يتردد في حلقه.. أما "الوسيم"، فقد سار وهو لا يفارق ببصره رفيقه الأسير، مستعداً لاستعمال هراوته عند اللزوم. ووصل الاثنان إلى باحة الحصن، فشد الرجلُ الذئبَ إلى وتد هناك ثم ذهب لينام..

انتظر "أبيض الناب" ساعةً ثم بَتَرَ الحزام الجلدي بقضمة من قواطعه المسنونة، وانطلق يجري عائداً نحو المخيم بعد أن ودَّعَ الحصن بنظرةٍ وزمجرة غاضبتين.. اتجه نحو المخيم حيث سيدُه "القندس الرمادي" الذي اصطفاه الذئب من بين الآلهة ووهب له نفسه عن طواعيةٍ واختيار...

غير أنّ ما حدث من قبل عاد ليحدث هذه المرة أيضاً، مع فارقِ أنَّ الهندي هو مَن جاء به بنفسه إلى الحصن مربوطاً بحزام جلدي جديد...

تَلَتْ ذلك علقةٌ ساخنة استعمل فيها "الوسيم" العصا والسوط تناوُباً، بدت أمامها العلقة التي نالها من يد "القندس" يوماً وكأنها كانت لمسات حانية. فقد بدأ الرجل بربْطه بحيث يأمن أنيابَه، ثم شرع يكيل له الضرب بمتعةٍ بادية نطقت بها عيناه اللامعتان ووجنتاه الملتهبتان حماساً.. كان يتلذّذ بمرأى ضحيته العاجزة وهي تتمطى في قيدها تحت وقع ضرباته الموجعة، هادرةً مزمجرة في عجز وغضب.. كان

"الوسيم" رجلاً جباناً يتلذذ- شأنَ الجبناء- باضطهاد مَن هُمْ دونَه قوةً، انتقاماً مما كان يسومه إياه أقرانه من الخسف.. أضف إلى ذلك ما لدى كل كائن حي- بالفطرة- من ميل إلى الهيمنة على ما عداه من الكائنات، وهو ما لم يكن يختلف فيه "الوسيمُ" عن غيره سوى بكونه- في عجزه عن الهيمنة على أيٍّ من بني جنسه- يجد في تعذيب الحيوانات مُتَنَفَّساً للمكبوت من غرائزه ورغباته.. ثم إنه لم يكن مسؤولاً عن طبعه الشرس اللئيم ولا عن خلقته المشوهة؛ كان كغيره من المخلوقات ابنَ بيئته..

كان "أبيض الناب" يدرك جيداً سبب ما كان يتعرض له من عقاب. فقد اقتنع- مذْ رأى إلهه الهنديَّ يُسلِّمُ قيادَه إلى الإله الأشقر- أنْ تلك كانت إرادةُ سيده. وأدرك كذلك أنَ إلهه الجديد يريد منه أن يلزم مكانه لا يبرحه، فقد رأى في حياته كلاباً عديدة تنتقل من يد إلى يد، وتتلقى أليمَ العذاب إن هي فرت عائدة إلى سيدها القديم.. كان يعرف كل ذلك، لكن قُوًى خفية كانت تهيب به إلى الفرار مجدداً والعودة إلى سيده الهندي الذي وهب له نفسَه بإرادته.. والحق أن "أبيض الناب" لم يكن يحب "القندس الرمادي"؛ فما كان يدفع به إلى العودة كلَّ مرة- على حنقه- نحو مخيم الهندي صاغراً لم يكن حباً.. كان وفاءً .. ذلك الوفاء الذي يميزه وبني جنسه عما عداهما من الكائنات، والذي جعل الذئبَ والكلبَ البري يَقبَلان ذات يوم بعيد أن يصبحا من مرافقِي الإنسان وخَدَمه..

انتهى "الوسيم" من علقته، فربط الذئب بعصاً- على طريقة الهنود الحمر- إلى جذع شجرة، ثم تركه وذهب للنوم مطمئناً إلى عجز الحيوان عن فكِّ قيده بأسنانه.. غير أنه لم يكن يعرف "أبيض الناب" جيداً.. فما انقضت ساعة على انصرافه حتى باشر الذئب قَرْضَ العصا بأنيابه.. كان الطَّوْقُ ضيقاً فلم يكن يَطالُ العصا إلا إذا ثنى رقبته ثَنْيًا موجعاً؛ لكنه واصل عمله لساعات بصبرٍ منقطع النظير، محققاً إنجازاً يُعَدُّ في العرف الشائع ضرباً من المستحيلات، فما أطل

أول خيط من الفجر من وراء الأفق البعيد حتى كـان يعـدو طليقـاً وطرفُ العصا التي كانت تشده إلى الشجرة معلقٌ برقبته وقد حُزَّ حَزًّا كأنما نُشِرَ بمنشار..

سارَ نحو مخيم الهندي، رغم خيانات الرجل المتكررة.. وعـاد "القندس الرمادي" يربطه بانتظار مجيء "الوسيم" الذي سارع يطـوق عنق الذئب بسلسلة من حديد قبل أن يعطيَه، في المكان نفسه، علقةً لم يشهد "أبيض الناب" في حياته لعنفها نظيراً.. أما الهندي، فبقي ينظـر للرجل دون اكتراث وهو يكيل للذئب ضربات من عـصاه ثـم مـن سوطه.. لم يحرك ذلك فيه ساكناً؛ فالكلب الذي كان السوط يأكل لحمه في قسوة لم يعُدْ ملكَه، ولم يعد يهمه أمره في شيء...

أدرك "الوسيمَ" التعبُ أخيراً، فوضع سوطه المَجْدُول جانباً وهـو يلهث.. أما "أبيض الناب"، فكان في حال يرثى لها.. ولو كان مكانـه أي كلب آخر لأسلم الروح منذ اللحظات الأولى.. ولئن كانت قدرتـه على الاحتمال تفوق بكثير قدرة غيره من بني جنسه، فإن حاله حـين انصرف عنه "سميث" لاهثاً كانت من السوء بحيث اضطر الرجل إلى الانتظار ساعةً كاملة قبل أن يستطيع الذئب القيام لمرافقتـه عائـدَيْن نحو الحصن..

حين بلغاه، ربطه إلى سلسلة أقوى من الأولى، تنتهي بحلقة مثبتة في عمود حاول الذئب دون جدوى اقتلاعه من مكانه..

بعد أيام قليلة، كان "القندس الرمادي" يغـادر المكـان ملتهـب الجوف خاوي الوفاض، صاعداً تيار "بوركوبين"، أولى مراحل سفره الطويل في طريق العودة إلى ضفاف نهر "ماكنزي"..

أما "أبيض الناب"، فقد بقي في حصن "يوكـون"، ملْـكَ رجـلٍ دمويِّ الطبع ونصف مجنون.. لكن ماذا يستطيع ذئبٌ أنَ يدرك عـنَ الجنون؟.. قد يكون لَديه شعورٌ مبهم باختلاف "الوسيم" عن غيره ممن عرف من الآلهة.. لكن ما كان يدركه جيداً هو أن ذلك الإله الأشـقر العنيف قد أضحى إلهَه الجديد.. إلهه الذي ينبغي له أن يطيعه– علـى مقته له– طاعةً عمياء ويتصرفَ وفق شهوته...

الفصل السابع عشر

عهـد الكـراهيـة

أصبح "أبيض الناب" في كفالة سيده الجديد شيطاناً دموياً.. فقد بدأ الرجل بأن ربطه إلى عمود يحيطه سياجٌ وكان يــأتي ليقــف وراءه ويشرع في استفزازه.. وقد انتبه إلى الحساسية المفرطة التــي كــان يبديها "أبيض الناب" حين يرى أحداً يضحك ساخراً منه، فراح يستغل نقطة الضعف تلك استغلالاً بشعاً، حيث كان يأتي فيبدأ بضربه بقسوة بعصا أو بحجر، ثم يقهقه وهو يشير نحوه بإصبع هازئ.. كان الذئب يفقد صوابه في تلك اللحظات الرهيبة، أما الرجل، فلم يكــن يزيــده هياج الحيوان المسكين إلا نشوةً وتلذذاً..

كان "أبيض الناب" حتى ذلك الوقت عدوَّ بني جنسه فقــط. أمــا الآن، فإن حقداً متفجراً بدأ يملأ نفسه، مغرقاً في كراهيةٍ عمياء كلَّ ما يحيط به دون تمييز بين حي وميت.. كان يكره السلسلةَ التــي تــشده إلى عموده، والفضوليينَ الذين كانوا يأتون للتفرج عليــه، وكلابَهــم الجبانة التي كانت تتحرش به آمنةً من سطوته.. بل كره حتى الخشب المصنوعَ منه السياجُ المضروب مِن حوله..

لكنه، فوق هذا وذاك، وأكثر من أي شيءٍ آخــر، كــان يكــره "سميث الوسيم"...

بيد أن الرجل كان يرمي من تربيته الذئب إلى هدف معين.. فقد جاء ذات صباح ودخل مربط الحيوان وهراوةٌ ضخمة في يده، فــك السلسلة التي كانت تطوق عنقه، ثم تراجع خارجــاً وأغلــق الــسياج خلفه.. وانطلق الذئب يجوب أرجاء سجنه، محاولاً الانقضاض علــى

الآدميين المحيطين به.. كان رائعاً ومخيفاً في آن، بطول يناهز المتر ونصف المتر، وعلوٍّ عند الكتف يجاوز الخمسة والسبعين سنتيمتراً، ووزنٍ يزيد بكثير وزنَ ذئب في سنه– إذْ ورث عن أمه "كيش" تقاطيعها الضخمة القوية– ليجاوز الأربعين كيلو غراماً، كلها عَضَلٌ وأعصاب، جعلت منه مقاتلاً مثالياً..

صَرَّ بابُ السياج منفتحاً، فتوقف "أبيض الناب" عن الدوران وراح يرقب ما يقع.. وحدث شيءٌ غريب ؛ فقد انفرج الباب عن كلب ضخم دفعته يدٌ آدمية إلى الأمام ثم أغلقت الباب وراءه..

كان الكلب من نوع "ماتين" الضخم؛ ولم يكن الذئب قد رأى له من قبل مثيلاً، غير أنه لم يَأْبَهْ لضخامة ضيفه ولا لمنظره المهيب، بل انقض عليه ومزق جنبه قبل أن ينتبه الكلب إلى ما يحدث، ثم تراجع إلى الخلف– على عادته– باحتراس.. لم ير في الضيف سوى أداة تنفيس عن حقده المكبوت، فطفق يكيل له العضات وهو يقفز يميناً ويساراً، وعدوُّه المذهول يحاول عبثاً ملاحقته...

كان المتفرجون يضجون بالهتاف، تتملكهم نشوةٌ مريضةٌ تجد في مرأى الدماء والأشلاء لذةً لا تُضاهى..

ظهر من أول وهلة أن الكلب سيكون الخاسر، فقد كان أثقل حركةً وأقل دراية من أن يصمد طويلاً أمام حنكة الذئب وشراسته، وسرعان ما انهار وسحَبَه الرجال خارج السياج، ثم جرى توزيع أرباح المراهنات، وامتلأت يد "سميث الوسيم" نقوداً..

أصبح الأمر عادةً، وأضحى "أبيض الناب" ينتظر بفارغ الصبر تلك التجمعات التي تعلن عن قرب موعد معركة جديدة من سلسلة معاركَ أصبحت بالنسبة إليه الفرصةَ الوحيدةَ لتصريف المكبوت من قُواه الداخلية الحبيسة؛ فهي اللحظاتُ النادرة الوحيدة التي يحرر فيها سيدُه رقبتَه من طوقها المعدني.. ولم يكن "الوسيم" مخطئاً في تقدير قوة "أبيض الناب" الخارقة، إذ كان الذئب يخرج من كل معاركه

منتصراً؛ فقد قتل يوماً ثلاثة كلاب متتالية، وجاءوه بعدها بذئب بـــالغ جرى اقتناصه لتوه من الغابة القريبة ليُدفَع به داخل سياجه؛ واضطر مرة إلى مقاتلة كلبين ضخمين في آن معاً، وقتَلهما، رغم أنه كاد في تلك المعركة أن يفقدَ حياته..

حين اقترب العام من نهايته وشرعت قطع الجليد تزحف عائمـــةً على صفحة "يوكون"، امتطى "الوسيم" وذئبه متن باخرة تمخر عباب النهر نحو "داوسون سيتي"..

كان "أبيض الناب" قد أصبح شهيراً في المنطقة، وذاع صـــيته بين سكان الوادي الذين لقبوه "الذئب المقاتل"، فأصبح قفـــصه علـــى ظهر السفينة مزاراً للفضوليين من ركابها الـــذين كـــانوا يحيطونـــه مندهشين لهيئته المخيفة. أما هو، فكان تارة يزمجر فـــي وجـــوههم غاضباً، وطوراً يجلس ساكناً يراقبهم في حقد صامت.. كان يكرههم جميعاً دون أن يتساءل لماذا.. كانت الكراهية هـــي كـــل مـــا تهتـــز جوانحه له من أحاسيس، فأسلم لها نفسه دون تحفظ.. أصبحت حياته جحيماً حقيقياً؛ فهو لم يُخلق لمثل حياة السجن، تلك الحياة التي تجـــد الحيواناتُ البريةُ نفسَها مرغمةً على عيشها كلما شاء لها سوءُ طالعها أن تقع بين يدي الكائن البشري..

كان الزوار يضربونه بوحشية بالعصي من خلف قضبان قفصه، ثم يضحكون ملء أفواههم من هياج الحيوان المـــسكين الـــذي كـــان لَمْسُهم إياه يزيده استعاراً.. ولو كان أيُّ حيٍّ آخرَ مكان "أبيض الناب" لما طال به الأمر أن يفقد صوابه أو يعلنَ هزيمته؛ لكن الذئب كان ذا عزيمة صلبة جعلَتْه يقاوم ويحاول التكيف مع وضعه الجديد، مواصلاً رغم كل شيء تحديَه إلهَه المجنونَ الذي لم يفلح أبداً في قهره.. وإذا كان من عفريت يتلبس "الوسيم"، فإن عفريتاً آخر كان يَسْكن الـــذئبَ، أقوى من عفريتِ الرجل وأشرس.. كانا يتبادلان مقتاً جعلهما يشتبكان لأتفه الأسباب.. ولئن كان بالذئب يوماً من خوف من هراوة عـــدوه،

فإن ذلك الخوف كان اليوم قد فارقه. فمرأى الرجل كان وحده كافياً لجعله يُجَنُّ هياجاً؛ وحين كانت الظروف تقتضي أن يقترب "الوسـيم" منه، وكان الرجل يهدده بعصاه ليبقيَه بعيداً، كـان لا يتوقـف عـن الزمجرة حتى يغرب عن عينيه. ولم ينجح "سميث"– رغم الـضرب الموجع– في حملِ الذئب على الإقلاع عن تحديه على ذلك المنوال.. فقد بقي يزمجر بلا انقطاع طالما بقي الرجل إلى جانبـه، حتـى إذا انصرف مبتعداً أتبَعَه صرخاتٍ تشي بما يعتمل في صدره من حقـد كظيم...

رست السفينة عند "داوسون"، وأُنزِل الذئب إلى البر وهـو فـي قفصه الحديدي الذي سرعان ما تحلق حوله الفضوليون مندهـشين.. ونظم "الوسيم" أموره سريعاً، فطفق يستخلص نصف دولار عن كـل فرد في مقابل رؤية الذئب في قفصه.. هكذا لم يعد الحيوان المسكين يعرف للراحة طعماً، إذ ما إن يغفو حتى يخِزُه رأس عصا ليعيده إلى هياجه؛ فالناس كانت تريد– مقابل سنتاتها الخمسين– رؤيتَه في حـال من الهياج ما كان "سميث" يجد من صعوبة في جعلها تستولي عليـه، وذلك بوخزه بعصاه، فإن أخفقت العصا– ونادراً مّا تخفـق– اكتفـى بإطلاق ضحكته اللئيمة الرنانة التي يشتعل لها الذئب البائس غضباً...

لم يتوقف الرجل خلال ذلك عن تنظيم معارك يخوضها الـذئب ضد خصومٍ لاحقُها أقوى من السابق وأشرس، وسط هياج المراهنين وجلبتهم.. وبما أن القانون كان يحرم تنظيم أمثـال تلـك المعـارك الوحشية، فإن القتال كان يجري بعيداً، عند مدخل الغابة. فكان "أبيض الناب" يُقتاد من مربطه ليلاً إلى الساحة، حيث يتجمع المراهنون عند الفجر، وتنطلق المعركة التي لم تكن تدوم في الغالب سوى دقائق يقتل بعدها الذئبُ خصمَه ويملأُ جيبَ صاحبه المجنـون نقـوداً.. كانـت المنطقة متوحشة وسكانها متوحشين. وكانت المعارك تنتهـي عـادة بموت المنهزم.. والمنهزم كان دائماً خصمَ الذئب الذي راح يواصـل

حياته الاحترافية بنجاح.. ولعل سرَّ قوّته كان يكمن في ما علمته إياه معاركه القديمة مع الجرو "ليب-ليب" وعصابته، من ألاّ يفقد توازنـــه مهما كانت الظروف.. ولطالما حاول خصومه عبثاً إسقاطَه أرضـــاً، حتى ذاع صيته بوصفه الذئب الذي لا يسقط أبداً..

ثم إنه كان لديه مكمن قوة آخر يتمثل في كونه تعلم منـــذ زمـــن بعيد أن يختصر الوقت الذي تضيعه الكلاب عـــادة فـــي المقـــدمات المعتادة من هرير وزمجرة وما شابه ذلك، فكان ينقض على خصمه ويبطش به ولمَّا ينه الخصم استعداداته الأولية، حتى انتهـــى الأمـــر بالمراهنين إلى أن أصبحوا يشترطون أن لا يُطلق الذئب إلا بعـــد أن يكونَ خصمه قد انتهى من التأهب للعراك، بل وحتى يبـــدأ الخـــصم بالهجوم..

لكن تفوُّق الذئب على مُنازليه كان كبيراً، فقد عركته التجـــارب حتى أضحى خبيراً بفن القتال لا يجهل من خفايـــاه شـــيئاً، فأصـــبح العثورُ على خصمٍ لائق به أمراً يزيد بمرور الوقت صعوبةً، حتى لم يعد "سميث" يجد ما يواجهه به عدا الذئاب التي كان الهنـــود الحمـــر يقتنصونها له من الغابة.. وكان مثل تلك المنازلات بين "أبيض الناب" وذئبٍ بالغ متوحش يجتذب الكثير من المتراهنين، ومعهم الكثير مـــن المال "للوسيم".. وذات مرة جاءوه بقطة برية لم يفلح الذئب في قهـــر مخالبها الحادة وأسنانها إلا بصعوبة بالغة، وبعد أن أثخنتـــه الأنثـــى سريعةُ الحركةِ جراحاً...

كان ذلك آخرَ نزال من سلسلة طويلة من المعارك توقفتْ لعـــدم وجود خصم لائق بالذئب الذي أصبح صاحبه يستعمله للفرجة فحسب، حتى كان يومٌ جاء فيه رجل يدعى "تيم كينان" كان يحتـــرف القمـــار ويمتلك كلباً لم ير سكان "كلونديك" من قبل له مثيلاً، فقد كان الكلـــب

أولَ "بولدوغ" يضع قدمه بأرض المنطقة.. كان ضخماً قصير الـــذنب والأطراف، قوياً بشكل لافت للنظر، فكان طبيعياً أن يفكر المراهنون في تنظيم قتال بينه وبين "أبيض الناب"..

وذاع نبأُ المعركة المرتقبة أسبوعاً قبل موعدها، فلم يعد لـــسكان الوادي من موضوعٍ للحديث سواها..

الفصل الثامن عشر
القبضـة القـاتلة

فك "الوسيم" الطوقَ عن عنق "أبيض الناب" ثم تراجع إلى الخلف مسرعاً.. وعلى غير عادته، وقف الذئب ينظر مشدوهاً إلى الخصم الغريب الذي أتوه به؛ راح يرقبه وقد انتصبت أذناه وارتفعت ذيله إلى أعلى، عنوانَ توتره الشديد.. ودفَعَ "تيم كينان" بكلبه إلى الأمام وهو يصرخ به مشجعاً، فتقدم الكلب نحو الذئب بجسمه الدحداح ومشيته المتمايلة، ثم توقف وطفق يرنو إلى الحضور، فصاح به القوم مشجعين:

-هيا يا "تشيروكي".. هاجم خصمك.. افترسْه حياً..

غير أن الكلب اكتفى بأن جال بنظره الخامل بين وجوههم، ثم حرك ذيله القصير جذلاً.. لم يكن ما به خوف ولا خمول، بل لامبالاةً.. فالحيوان الغريب الذي كان ينتصب أمامه لم يكن يشبه في شيء ما اعتاد قتالَه من كلاب، لذلك بقي مكانه منتظراً أن يؤتى إليه بعدوٍّ حقيقي.. وتقدم "كينان" نحوه فراح يفرك رقبته من أسفل إلى أعلى وهو يدفعه إلى الأمام مشجعاً.. وما لبث تشجيعه أن بدأ يؤتي أُكله، فطفق الكلب يُصدر زئيراً راحت حدته تتصاعد بمرور الوقت. ولم تكن تلك الزمجرة دون تأثير على "أبيض الناب" الذي ما إن تقدم خصمُه- بدفعة أخيرة من يد الرجل- خطوةً إلى الأمام حتى انقض عليه دون مقدمات، منتزعاً صيحة إعجاب من المتفرجين الذين ألهبت حماسَهم سرعتُه المذهلة في الانقضاض والارتداد، وتاركاً الدماء

تتفجر من جرحٍ خلف أذن الكلب الضخم الذي لم يُبْدِ اهتماماً بجرحه، بل واصل تقدمه نحو خصمه وكأن شيئاً لم يقع.. وزاد تصميمُه الباردُ المتفرجين حماساً، فزادوا جلبةً وصياحاً وتشجيعاً له، بينما تابع هو ملاحقتَه غريمَه الدائر حواليه بخفة وبراعة.. كان يدور في دائرةٍ أصغر من تلك التي كان يرسمها الذئب من حوله، في بطء وتصميمٍ جعلا الارتباك يستولي على "أبيض الناب" وهو يجد نفسه أمام هذا الخصم الغريب الخاليَ من أي فروة تقي لحمَه الأنيابَ المسنونة الحادة التي كانت تنغرز فيه بسهولةٍ مدهشة دون أن يبديَ الحيوان ما يوحي بقدرةٍ على دفاع، إذ كان يكتفي، كلما نالت منه أنياب خصمه، بزمجرةٍ مكتومة يواصل بعدها ملاحقته الدائبة.. على أن الكلب لم يكن يخلُو بدوره من دهشة من هذا المُبارِز المتواثب الخفيف الذي لا يستقر بمكان؛ فهو قد ألِف خصوماً كانوا كلهم يمسكون به ويمسك هو بهم. أما هذا الخصم الغريب، فقد كان يطير من مكان إلى آخر، كائلاً عضاته المؤلمة، متراجعاً في اللحظة ذاتها بسرعة البرق اللامع..

كان "أبيض الناب" يحاول عبثاً إمساك خصمه من عنقه. فالكلب كان قصير الأطراف غليظ الرقبة حتى لتكاد رأسه تلتحمُ بباقي جسده. فتابع الذئب العضَّ منقضًّا مرتدًّا حتى أضحت الدماء تغطي جسم "تشيروكي" العنيد الذي لم يتوقف عن ملاحقة عدوِّه سوى لحظة واحدة جال خلالها بين الحضور بنظرته البليدة الخاملة وهو يهز ذنبه القصير، ثم عاد إلى مطاردته الدائبة.. وانقض الذئب من جديد ثم تراجع سريعاً بينما تدلى طرف أذن "تشيروكي" الممزقة.. وزمجر الكلب متوجعاً، لكنه واصل ملاحقتَه غريمَه، منتظراً اللحظة الحاسمة التي يستطيع فيها انشاب أنيابه في عنقه. وكاد في إحدى المرات يفعلها لولا أن استطاع الذئب، بقفزةٍ بهلوانية إلى الخلف، إنقاذ حياته من الخطر، منتزعاً في الوقت ذاته تصفيق المتفرجين الهائجين..

مضى الوقت و"أبيض الناب" يواصل كرَّاته وارتداداته الصاعقة، وهو في كل مرة يترك أثراً في جسد خصمه العنيد الذي لم ينفك ملاحقاً إياه بتصميمِ الواثقِ من بلوغه هدفَه، المستعدِّ في سبيل ذلك لتحَمُّل هجمات لم يكن يدري بحال كيف يتقيها ولا كيف يرد عليها بمثلها.. وعاد الذئب يحاول إسقاطَ خصمه أرضاً، بيد أن قامة الكلب القصيرة حالت دون ذلك، إلا أنه لم يتوقف عن محاولاته.. وخال الفرصة سنحت مرةً، فدار بعنقه– وهو طائر فوق خصمه– نحو عنق الكلب. لكن قِصَر قامة "تشيروكي" جعل الذئبَ يفلته من جديد وينقلب على ظهره في الهواء.. وكاد يسقط منقلباً لولا أنه قبل أن يصل الأرض دار حول نفسه كما يفعل القط، فسقط على جنبه عوض ظهره..

هكذا سقط "أبيض الناب" أرضاً لأول مرة في حياته..

لكنه ما كاد يلمس الأرض حتى كانت أنياب الكلب مغروزة في عنقه..

كانت الأنياب قد أخطأت حبل الوريد، فنشبت بأسفل العنق مما يلي الصدر.. وراح الذئب يقفز في الهواء كالمجنون محاولاً التخلص من هذا الثقل الذي التصق به فجأةً بمخالبَ من نار فشَلَّ حركته وقيَّدَ حريته.. كان كل شيء في نفسه ينتفض ثائراً ضد ذلك الوضع الذي لم يألفه.. وظل لدقائقَ طويلةٍ يقفز في جنون، ثم توقَّف لاهثاً، لكن طبيعته الثائرة ما لبثت أن عاودته، فعاد ينط ويلف حول نفسه، وغريمه عالق به.. وبلغ به الهياج مبلغاً يصعب وصفه، فوقف معتمداً على قائمتيه الخلفيتين، وأصبح خصمه معلقاً في الهواء يتأرجح ذات اليمين وذات اليسار..

كان الاثنان يعملان وفق ما تمليه عليهما غريزتهما.. فالذئب كان يسعى جاهداً لاسترجاع حريته التي يشلها غريمه المعلق برقبته،

والكلب كان يعلم أنه يكفيه للانتصار أن يظل ممسكاً بعدوه حتى تخور قواه.. كان يعلم ذلك بيقين جعله يغمض عينيه كالنائم، تاركاً إياه يطوح به في كل اتجاه ساحباً إياه من مكان إلى آخر..

لم يتوقف "أبيض الناب" عن قفزه المجنون إلا حينما خارت قواه تماماً.. كان مرتبكاً لا يدري ما يحدث له، فلم يسبق له خلال احترافه الطويل أن وجد نفسه في وضعٍ كالذي يوجد فيه الآن.. فالكلب كان يتصرف بطريقة لم يعهدها الذئب لدى خصومه السابقين الذين كانوا مثله يقاتلون بطريقة الكر والفر؛ أما هذا الخصم الغريب، فإنه اكتفى بأن أمسك برقبته وتعلق بها، منشباً أنيابه في الجلد من خلال الفرو الكثيف.. كان ممسكاً بمكانٍ تحت منطقة الموت بسنتيمترات راحت فكاه القويتان تقطعانها في تؤدة بحركة مضغٍ أفقية بطيئة، لكن متواصلة، لا تنقطع إلا حين يبدأ الذئب في القفز بجنون. أما حين كان يتوقف، فإن الفكين القويتين كانتا تواصلان حركتهما القاتلة نحو الأعلى...

كانت قفا الكلب العريضة هي كل ما تمكن "أبيض الناب"– وهو في وضعه ذاك– من نيْله من جسم خصمه، فأنشب أنيابه في العضلات القوية بين الرأس والكتف. بيد أن أسنانَه الحادةَ مدببةَ الأطراف لم تكن مخلوقةً للمضغ البطيء، فما زاد على أن كال لتلك المنطقة عضاتٍ ذهبت بالباقي من قُواه دون أن يبدوَ على الكلب ما يدل على مجرد إحساسٍ بها.. وفجأةً، تمكن "تشيروكي" من إسقاط غريمه أرضاً وبركَ عليه بثقله، فجمع الذئب قائمتيه الخلفيتين وراح يكيل بهما الضربات لبطن خصمه يريد بقْرَه. وكاد يفعل لو لم ينتبه الكلب لذلك فيتنحى جانباً بسرعة وهو لا يزال ممسكاً بعنقه..

لم يكن بالإمكان الانفلات من قبضة الكلب القاتلة.. فالفكان الضخمتان كانتا تواصلان طريقهما كالقَدَر نحو الوريد.. ولولا فروُ الذئب الكثيف وجلده المرن المتين اللذان كوَّنا كرةً في فم الكلب، لكانت الكماشتان الرهيبتان قد أنهتا دون كبيرِ إبطاءٍ مهمَّتهما المميتة.. بيد أن "تشيروكي"، بطريقته الدائبة البطيئة، طفق يبلع تلك الكرة شيئاً فشيئاً، فاتحاً بذلك مساري الهواء نحو رئتيه، ومضيِّقاً من نَفَس الذئب الذي شرع يلهث بصوتٍ مسموع وشى باختناقٍ وشيك..

بدت المعركة على وشك الانتهاء، وراح المراهنون على الكلب يهتفون فرحين بنصره ويعرضون على المراهنين على "أبيض الناب"– وهم كُثْر– عروضاً في منتهى السخاء، من قيمة عشرة وعشرين وحتى خمسين مقابل واحد، فما وجدوا مُزايِداً.. ورأى "الوسيم" ذئبه على وشك الاستسلام، فتقدم نحوه فجأة وراح يقهقه ضاحكاً وهو يشير إليه بإصبعه.. وأحدثت حركته تلك ما كان ينتظر منها، إذ اعترى الذئبَ هياجٌ مباغت جعله يقوم واقفاً ويمضي في حركة دائرية هائجة وخصمه معلقٌ برقبته.. وانقلب هياجه جنوناً فطفق يقفز وينقلب ويسقط في كل صوبٍ محاولاً التخلص من غريمه، فلم يفلح إلا في إجهاد نفسه، وعاد ينطرح على الأرض لاهثاً و"تشيروكي" ممسك برقبته لا يفلتها.. واغتنمها الكلب فرصةً فزاد من تضييق الخناق على غريمه ما إن خمدت ثورتُه، مجيباً على تصفيق الحاضرين وهتافهم بتحريك ذيله القصير بابتهاج ظاهر.. ولا غرو، فالذئب كان على وشك أن يسلم الروح مختنقاً.. وبدا وكأن ذيل الكلب ورأسه ينتميان إلى جسدين مختلفين، إذ بينما كان الذنب يتراقص جذلاً، كانت الفكان المميتتان ممسكتين بضحيتهما المتخبطة في جنون..

وسُمِع فجأةً صوتُ كلاب وصليلٌ ينذر بقدوم عربةٍ على الطريق، فاستدار الحضور– خلا "الوسيم"– قلقين، أنْ يكونَ القادمون من رجال الشرطة التي تُلقي القبض على هواة مثل تلك الرياضات البشعة حيثما ثَقِفَتْهم..

غير أن العربة كانت متجهة إلى الحصن لا قادمة منه، وبدا راكباها وكأنهما موظفان حكوميان في طريق عودتهما من جولة عمل. واسترعى الحشدُ انتباهَهما فأوقفا زلاقتهما.. كان أحدهما بشاربين على عادة أهل المنطقة، أما الآخر فبدا حليق الوجه نظيف الثياب.. كان شاباً طويل القامة أشقر الشعر قد لوَّح ضوء الشمس المنعكس على الجليد صفحةَ وجهه الصافية..

كان الذئب قد توقف عن التخبط تحت ضغط الفكين المميتتين أو كاد، ولم يعد يند عنه سوى حركات لاإرادية تشي بدخوله مرحلة الاحتضار.. والحق أن وريده ما كان ليصمد كل ذلك الوقت– رغم الجلد والفروة– لو أن الكلب كان بادئ الأمر قد أمسك بوسط عنقه.. غير أن عملية المضغ الأفقية البطيئة التي كانت فكا غريمه تقومان بها أدت في النهاية إلى خنقه رويدا، حتى بدأ يدخل في غيبوبة الموت..

استولى غضبٌ أعمى على "سميث الوسيم" الذي كان– كعادته– قد قامر على ذئبه بكل ما كان يملك، فتقدم نحو الحيوان المحتضر، وشرع يكيل له الضربات برجله وهو يغمره سباباً، تحت هتاف الحضور وضحكهم..

فجأة، اضطرب صف الرجال ثم انفرج عن الشاب الذي اتجه صوب الخصمين المتماسكين والرجل الواقف بإزائهما.. وبينا كان "الوسيم" رافعاً رجله ليكيل بها ضربة أخرى للذئب، إذ بالشاب يمسك

به من خلف فيديره نحوه، ويسدد إليه لكمةً طوحت به بعيداً، قبــل أن يستدير صوب الحاضرين قائلاً بغضب:

– أيها الجبناء!.. أيتها الوحوش الضارية!..

كان الرجل فريسةَ غضبٍ ماحق جعل عينيه الرماديتين تلمعــان كقطعتين معدنيتين.. وقام "الوسيم" واقفاً، فخاله الــشاب راغبــاً فــي العراك، فكال له لكمة ثانية أشد عنفا من سابقتها؛ ووجد الرجل نفسه على الأرض من جديد، فبقي حيث هو، قانعاً من الغنيمة بالــسلامة؛ أما الشاب فقد استدار نحو مرافقه هاتفاً:

– هيا يا "ماط".. تعال ساعدني..

تقدم سائقه نحوه، وعبثاً حاول الرجلان حمل الكلب على إفــلات خصمه، فيما الشاب يردد عند كل جذبة بحنق:

– يا للجبناء!..

بدأ جمع الحضور يتذمرون، وغمغم بعضهم بعضهم أنْ لا حَقَّ لأحدٍ في قطْع متعتهم عليهم، فأجال الشاب عينيه الملتمعتين بيــنهم، فلزمــوا الصمت جميعاً وعاد هو يردد:

– الأوغاد السفلة!..

ثم عاد إلى محاولاته العقيمة..

تعب الرجلان من الشد والجذب، فتوقفا وراحا يتأملان الخصمين الملتحمين ببعضهما. وقال "ماط":

– لن يموت الذئب سريعاً، فهو لا ينزف كثيراً..

لكن "سكوت"– وهو اسم الشاب– لم يكن له الرأي نفسه، فقــال مقاطعاً:

– بل إنه سيموت بين لحظة وأخرى، خنقاً لا من نزيفه.. انظر.. هاهو الكلب يزيد من إحكام قبضته عليه!..

كان قلقُ الرجل الشاب على حياة الذئب يزيد مع مرور الوقت، فطفق يضرب الكلب بكل ما أوتي من قوة. لكن "تشيروكي" لم يفتح فكيه، بل اكتفى بتحريك ذنبه القصير دلالةً على أنه قد فهم ما يراد منه، وأنه رغم ذلك مصرٌّ على استخلاص ما يعلم أنه حقُه كاملاً.. وحقه يعني– بكل بساطة– أن يكف خصمُه عن الحياة...

استدار الشاب أخيراً نحو الحضور بعد أن أعيته المحاولة سائلاً:

– أما من معين؟..

لكن أحدا لم يحرك ساكناً، بل اكتفوا بالتصفيق، وراح بعضهم يلقي إلى الشاب بنصائح ساخرة. وقال "ماط" أخيراً:

– سنحتاج أداةً نستعملها رافعةً نفتح بها الفم عَنْوَةً..

أدخل الشاب يده في جيب جلدي عالق بحزامه، وأخرج مسدسا حاول إيلاج ماسورته بين فكي الكلب المطبقتين.. وألفى مقاومةً فدفع بالماسورة بعنف صَرَّت له وهي تمر من بين الأسنان بصوت مسموع. وبينما الرجلان يجتهدان في ذلك، تقدم نحوهما "تيم كينان" وقال بصوت فيه رنة تهديد:

– لا تكسرْ أسنانَ الكلب!..

استدار الشاب صوبه وقال وهو يحدجه بنظرة نارية:

– إذن سأكسر عنقه!..

عاد الرجل يكرر بصوت أعلى من سابقه:

– لقد قلتُ: لا تكسر أسنان الكلب!..

لكن ذلك لم يكن له أدنى أثر على "سكوت" الذي واصل ورفيقه عملهما. ومرت لحظة ثم عاد الشاب يرفع عينيه نحو الرجل سائلاً:

– هل هذا كلبك يا رجل؟

غمغم الآخر مجيباً أنْ نعم، فقال الشاب:

– إذن، فتعال لتعيننا في حَمْله على إفلات ضحيته من بين فكيه..

قال الرجل:

– لعمري أيها الغريب، لست أدري كيف أحمله على ذلك..

عاجله "سكوت" قائلاً:

– في هذه الحال، ابتعد ودعني أعمل بسلام!..

بقي "تيم" مكانه، بيد أن "سكوت" لم يعره انتباهاً.. كان قد أفلح في إيلاج ماسورة المسدس من إحدى جهات الفك، وراح يحاول جاهداً إنفاذها من الجهة المقابلة. وحين نجح في ذلك، شرع يتكئ على المسدس– شأن العامل مع الرافعة اليدوية– مبعداً الفكين القاتلتين عن بعضهما، فيما راح "ماط" يستخرج جلد الذئب وشعره المتكومين في حلقوم الكلب..

وأخيراً صاح الشاب بصاحب الكلب:

– تهيأ للإمساك بكلبك!..

انحنى "تيم" دون تردد وأمسك بالكلب.. وهتف "سكوت":

– حذار! ..

ثم ضغط ضغطة أخيرة على الماسورة، فانفصل الخصمان؛ وراح "تشيروكي" يتخبط في يد صاحبه محاولاً العودة للانقضاض على خصمه المحتضر، فصاح الشاب بالرجل:

– أبعِد كلبك من هنا!..

سحب الرجل كلبه وسار صامتاً حتى اختفى بين الحشد.. أما "أبيض الناب"، فقد حاول القيام وأفلح في ذلك لحظةً بقي خلالها يتمايل في مكانه، ثم هوى أرضاً فوق الثلج الناعم.. كانت عيناه نصف المغمضتين تبدوان جامدتين في محجريهما كعيني ميت، فيما تدلى لسانه من بين فكيه المنفرجتين منتفخاً متهدلاً..

كان على وشك الموت اختناقاً..

راح "ماط" يفحصه ثم قال:

– إنه في أسوأ حال، لكنه لا يزال يتنفس..

اقترب "سميث الوسيم" عند ذاك وطفــق ينظــر إليهمـــا؛ ورآه "سكوت" فاستدار نحو رفيقه سائلاً:

– كم يساوي كلبُ جرٍّ يا "ماط"؟

أجاب "ماط":

– ثلاثمائة دولار..

عاد الشاب يسأل:

– وكلبٌ كهذا يوشك أن يَنْفَق؟

– النصف..

استدار "سكوت" نحو "سميث" قائلاً:

– أهل سَمعتَ يا سيدي الوغد؟ سآخذ كلبك هذا وأنقُــدُك مائـــة وخمسين دولاراً..

قال ذلك وأخرج حافظة نقوده وعد المال ومد يده به إلى "الوسيم" الذي تراجع واضعاً يديه خلف ظهره وقال وهو يهز رأسه رافضاً:

– لا أقبلُ بيعَك إياه..

– بل ستبيع رغم أنفك!.. الكلب أصبح الآن ملكي، وهاك ثمنه..

لكن "الوسيم" عاد يهز رأسه رافضاً؛ فتقدم "سكوت" نحوه مهدداً، فصرخ الرجل بصوتٍ باك:

– إن لي حقوقاً..

قال "سكوت" :

– أجل، كانت لك حقوق، لكنك أضعتها ببشاعة فعلك!..

تراجع "الوسيم" وهو يكرر رفضه، فتقدم "سكوَت" نحوه رافعـــاً قبضته، وصاح به :

– حسبك؛ لقد قبلتُ الصفقة. لكنها صفقة ظالمة، وإني أعلـــن أن حقوقي قد هُضِمت!..

هتف به "سكوت" وهو يضع النقود في يده :

- اسكت!.. الحقوق من شأن الإنسان. أما أنت فلست إنساناً.. لستَ سوى وغد لئيم!..

صاح به "الوسيم" بصوته الباكي:

- حين نعود جميعاً إلى الحصن سأعرف كيف أنتزع حقي منك!..

- إن لم تحفظ لسانك سيَنالنَّك مني شرٌ كبير.. سأطردك من الحصن.. هل فَهمت؟..

لم يجب الرجل بشيء، فعاد الشاب يسأله بصوتٍ قاس:

- هل فَهمت؟..

قال الرجل بنبرةٍ وشت بالخوف:

- أجل..

- أجل مَن؟..

- أجل يا سيدي..

تعالى ضحك الحاضرين وصاح بعضهم مقهقهاً:

- حذار!.. إنه يعض!..

تعالت القهقهات فيما سار "الوسيم" مبتعداً.. أما "سكوت" فقد أدار ظهره للحاضرين وشرع يهتم بالذئب الجريح..

بدأ الحشد يتفرق، والتحق "تيم كينان" بإحدى المجموعات الصغيرة التي عادت صوب الحصن، فسأل أحد معارفه:

- من هذا الرجل المتعجرف؟

أجاب مخاطبه:

- إنه "ويدون سكوت"..

عاد "تيم" يسأل:

- ومن هو "ويدون سكوت" هذا؟..

– إنه مهندسٌ معادن وابن قاضٍ كبير، وله معارف من علية القوم أقلُّهم مدير مناجم الذهب نفسه؛ وخيرٌ لك أن تدعه وشأنه..

قال "تيم":

– لقد بدا لي من أول وهلة أنه شخص خطر. لذلك رأيتَني تفاديتُ – حين استفزني – مواجهتَه..

الفصل التاسع عشر

العنيـد

قال "ويدون سكوت" باستسلام:

– لا أمل..

كان جالساً عند باب الكوخ يتجاذب أطراف الحديث مع صـــاحبَه "ماط" الذي أمَّنَ على قوله بهزة من رأسه وشتْ بالإحبـــاط.. وبقـــي الاثنان يراقبان "أبيض الناب" الذي كان بـــدوره يحـــدجهم بنظراتـــه الشرسة وهو يهرُّ بوحشية، ساحباً السلسلة التي تشده حبيساً، محـــاولاً جهده الإمساك بأحد كلاب الجر التي كانت مقعية تنظر إليه بلامبالاة بعد أن أفهمها "ماط" بقوة العصا أن عليها أن تدع الـــذئب وشـــأنه.. وعاد "سكوت" يقول:

– إنه ذئب، ولا أمل في تدجينه..

قال "ماط" كالمعترض:

– لست أدري.. ربما كان فيه من الكلب شيء.. لكنَّ هناك أمراً لا يرقى إليه الشك..

قال ذلك ثم صَمَتَ ملقياً نظرة ساهمة إلى الجبل البعيد..

بقي "سكوت" صامتاً لحظةً ينتظر، فلما نفذ صبره هتف بصاحبه:

– لا تكن ضنيناً بمعلوماتك.. هيا، قل ما لديك..

قال سائق الكلاب وهو يشير إلى "أبيض الناب" بإبهامه:

– ليكن ذئباً أو كلباً أو ما شاء، فهذا الحيوان سبق تدجينه من قِبَل الإنسان..

هتف "سكوت" منكِراً:

– لا!..

– بلى.. انظر إلى صدره تَرى أَثَرَ الحزامِ الذي كان يشده إلـــى زلاقة صاحبه..

نظر "سكوت" إلى حيث أشار رفيقه، وما لبث أن قال مؤَمِّناً:

– أجل.. هاهي آثار الحزام على صدره واضـــحة.. لقـــد كـــان المسكين كلب جر قبل أن يقع بين براثن "الوسيم"..

قال "ماط" معقباً:

– لست أرى مانعاً يمنعه أن يعود كلبَ جرٍّ كما كان..

سأله "سكوت" بلهجة وشت برغبته في ذلك:

– هل تظن أن هذا ممكن؟..

غير أنه عاد يتابع قائلاً بإحباط:

– لكننا حاولنا معه طيلة الأسبوعين الماضيين دون أن ينال ذلك من عناده شيئاً..

قال "ماط":

– أعطه فرصة أخيرة.. ربما نفلح معه وهو طليق في ما لم نفلح فيه وهو مقيد..

حدجه "سكوت" بنظرة نطقت بدهشته وهو يقول:

– ماذا؟!..

عاد "ماط" يتابع قائلاً:

– أعرف أنه ليس من السهل الاقتراب منه، لكني على يقين من أنه لن يُقدم على مهاجمةِ مَن يدنو منه حاملاً هراوة في يده..

قال "سكوت":

– حاول إذن ولنرى..

أخذ "ماط" هراوة في يده وسار نحو الذئب الذي راح ينظر إلـــى اليد حاملة العصا كما ينظر أسدٌ إلى السوط في يد مروضه.. وقـــال الرجل ملاحظاً:

– أرأيت ؟ إنه أذكى من أن يهاجمني وأنا مسلح بهراوتي..

راقب "أبيض الناب" اليد التي راحت تقترب مـــن رأســـه، لكـــن اهتمامه ظل مشدوداً إلى اليد الأخرى المسلحة بالعصا.. وفك "مـــاط" أخيراً الطوق عن عنقه، ثم تراجع إلى الوراء مسرعاً..

لم يصدق الذئب أنه حر طليق لا يقيد حريته شيء.. لقد قضى الشهور الأخيرة المنصرمة كلها سجيناً، لا يطلقه إلهه المجنون من قيده إلا ليواجهه بخصم جديد يعود بمجرد الانتهاء من قتله إلى سلسلته وقفصه الحديديين.. فماذا كان يعني هذا السلوك غير المفهوم؟.. لا شك أن الآلهة الجدد كانوا يستعدون للإيقاع به بطريقة مَّا.. وراح يسير بحذر وتؤدة، متوقعاً في كل لحظة هجوماً مباغتاً.. وابتعد في سيره عن الإلهين باحتراس، متجهاً نحو أحد أركان الكوخ حيث وقف ينتظر حذراً.. ولم يقع شيء، فازداد الذئب ارتباكاً وحيرة، وعاد أدراجه، حتى إذا أصبح على خطوات من الرجلين وقف يحدق بهما..

تساءل "سكوت" هامساً:

– ألا يُخشى فراره؟

قال "ماط":

– تلك مجازفةٌ لا بد منها، وامتحانٌ يكشف لنا جيداً عن نواياه..

تمتم "سكوت" بوجوم:

– الحيوان المسكين.. لا شك أنه في أمسّ الحاجة إلى بعض الحب والحنو..

قال ذلك ثم اتجه نحو المطبخ ليعود منه بعد لحظة بقطعة لحم رمى بها إلى الذئب الذي قفز متراجعاً وشرع ينظر إلى قطعة اللحم بارتياب.. وقام في تلك اللحظة أحد كلاب الجر فانقض على القطعة المرمية على الأرض، فصاح به "ماط":

– إلى الخلف يا "مايور"!..

لكن التحذير جاء متأخراً.. ففي اللحظة ذاتها التي وضع فيها الكلب فمه على قطعة اللحم، انقض عليه "أبيض الناب" كالصاعقة وصدمه وأسقطه أرضاً.. وأسرع "ماط" إليهما، لكن الذئب كان أسرع منه، فما قطع الرجل الخطوتين اللتين كانتا تفصلانه عن الكلب حتى وجده يحاول جاهداً استعادة توازنه والدم ينزُّ من جرح في عنقه، مكوناً بقعة شرعت تتسع سريعاً فوق الثلج الأبيض..

قال "سكوت" معلقاً:

– لقد كان درساً قاسياً.. لكن "مايور" استحقه بالفعل..

كان "ماط" في اللحظة ذاتها رافعاً رجله يريد أن يسدد بها ركلةً إلى "أبيض الناب"؛ وفجأة قفز الذئب من مكانه، وأومضت نابٌ سُمعت على إثر ومضتها صرخةُ ألم، ثم ابتعد متراجعاً بينما أمسك "ماط" برجله الجريحة.. وقال الرجل وهو يشير إلى البقعة الحمراء التي ظهرت تحت مُزّقة البنطلون والسراويل الداخلية:

– الوحش لم يخطئني!..

قال "سكوت":

– قلتُ لك ذلك، لا أمل يُرجى من محاولة تدجين هذا الذئب.. ويعلم الله أني ما كنت أود أن أضطر إلى هذا، لكن لا مناص..

قال ذلك وهو يتفقد مخزن الرصاص في مسدسه. فقال "ماط":

– اسمع يا سيد "سكوت".. لقد عاش هذا الكلب في الجحيم زمناً لا يعلمه إلا الله، فكيف تريد منه أن ينقلب حَمَلاً وديعاً بين عشية وضحاها؟

قال "سكوت" وهو يشير بإبهامه نحو الكلب الذي كان يلفظ ساعتها آخر أنفاسه:

– انظر إلى "مايور" المسكين..

– وهل ظلَمَه الذئب أو اعتدى عليه؟ إنه لم يفعل سوى أنْ دافع عن قطعة لحم رُميت له وأراد انتزاعها منه.. ولَبِئسَ الحيوانُ حين لا يَدافع عن حقه إذا نازَعه فيه أحد!..

– قد تكون على صواب.. لكن انظر ما فعله بك.. إن هناك حدوداً لا ينبغي بحال تَجاوُزُها..

– لكن الخطأ كأن خطئي.. فما كان لي أن أعاقبه على انتزاعه حقاً اعترفنا له به صراحة..

عاد "سكوت" يكرر:

– أظن أن الحكمة تقتضي قتله.. فلا أمل في تدجينه..

– أرجوك أن تمنحه فرصة أخيرة يا سيد "سكوت".. وإن لم تبدُ بارقةُ أمل، فسأتولى قتله بنفسي..

قال "سكوت" مستسلماً وهو يضع المسدس جانباً:

– يعلم الله أني لا أريد قتله ولا أريد أن أرى أحداً يقتله.. لندعْه يمرح في حرية ولْنرى ما سيؤدي إليه معه الرفق واللين..

قال ذلك ثم اقترب من الذئب وبدأ يحدثه بصوتٍ هادئ رتيب، فقال "ماط" محذراً:

– من الأفضل أن تتسلح بهراوة..

لكن "سكوت" هز رأسه رافضاً ووالى اقترابه من الذئب الذي راح ينظر بحذر إلى الرجل المُقبل عليه، متسائلاً عما سيقع.. كان يعلم أنه قَتَلَ كلبَ الإله وجَرَح صديقه، وأنْ لا منجاة له من العقاب العسير.. غير أن ذلك ما كان يكفي لإخافته، فجعل يكشر عن أنيابه وقد اقشعر جسده وانتبهت حواسه، وراح ينتظر.. ولما كان الرجل لا يحمل هراوة، فقد تركه يقترب منه دون أن يبدي حراكاً..

اقتربت يد الإله من رأسه شيئاً فشيئاً، فتجمَّعَ وتوتَّرَ جسده.. كان الخطر يدنو، ولن تلبث نيات الآلهة أن تتكشف سريعاً عن نوع العقوبة التي بيتوها له.. كان يعرف أيدي الآلهة جيداً ويعرف بطشها وبراعتها في كيل اللطمات.. ثم إنه لم يتحمل يوماً أن يلمسه أحد.. وزمجر بصوت أقوى من ذي قبل، لكن اليد وَالَت اقترابها في تصميم.. ولم يشأ الذئب عضَّها، بل صبر حتى لم يعد يحتمل، إلى أن انتفضت غريزته فاكتسحت كل شيء في طريقها..

كان "سكوت" يخال نفسه على ما يكفي من الحيطة والحذر، لكنه لم يستطع شيئاً أمام سرعة "أبيض الناب" الخاطفة؛ فقد عضه الذئب بخفة الأفعى ودقتها.. وتراجع الرجل صارخاً وهو يمسك بيده الجريحة، وأفلتت شتيمة من فم "ماط" وجرى نحوه.. أما الذئب، فقد قفز إلى الخلف متراجعاً وقد وقف شعر جسده جميعاً، وانقلب هريره زئيراً محمَّلاً بالتهديد. فقد أضحى موقناً بأن ما أصبح ينتظره الآن من عقاب يفوق دون شك ما ناله على يد "الوسيم" والهندي قبله مجتمعين..

صاح "سكوت" فجأة برفيقه:

– ماذا تفعل يا "ماط"؟

كان "ماط" قد دخل الغرفة ثم عاد والبندقية في يده، فقال مجيباً بهدوء مصطنع:

– لا شيء.. أريد فقط أن أفيَ بوعدٍ قطعتُه لك على نفسي..

قال "سكوت":

– دَعْكَ من هذا وضَعْ هذه البندقية جانباً!..

لكن الآخر بدا ماضياً في تنفيذ ما اعتزمه، فقال "سكوت" الذي أضحى يدافع عن الذئب:

– لقد طلبت أنت نفسك يا "ماط" أن نعطيه فرصة.. فَلْنُعْطِها له.. لندع التجربة تستمر، فأنا الذي تهورت و.. انظر إليه!..

كان الذئب واقفاً في أحد أركان الكوخ ينظر إلى البندقية في يد الرجل مزمجراً.. وقال سائق الكلاب:

– إنه أمرٌ مدهش! ..

أجابه "سكوت":

– أما رأيتَ كم هو ذكي؟.. إنه يعرف مثلي ومثلك تماماً أنها بندقية.. فلْنتِحْ لهذا الذكاء فرصةً ليتفتح.. هيا.. اخفض بندقيتك وضَعْها إلى جانبك..

أطاع "ماط"، وإذا بالذئب يتوقف عن الزمجرة ويتخذ وضعاً أقل عداءً من ذي قبل..

تبادل الرجلان نظرة، ثم عاد "ماط" يمد يده صوب البندقية، فعاد الذئب يزأر مزمجراً؛ وأبعد الرجل يده فسكن الحيوان.. وأخيراً أخذ "ماط" البندقية فأسند عقبها إلى كتفه كأنه يريد رمي الذئب بالرصاص، فإذا به يقفز من مكانه ويولي هارباً..

بقي الرجلان واقفين ينظران إلى المكان الذي كان الذئب واقفاً فيه منذ لحظة، ثم قال "ماط" أخيراً وهو يضع بندقيته أرضاً:

– أجل.. ليس من العدل قتل حيوان أوتي من الذكاء ما أوتيه هذا الكلب...

الفصل العشرون
مُعلِّم الحب

زمجر "أبيض الناب" محذراً وهو يرى "سكوت" يقتـرب منــه.. كان يريد أن يُفهِم الرجلَ أنه لن يتقبل عقابه صــاغراً.. وكــان قــد مضى– مذ عض يد منقذه التي كانت الآن ملفوفة بقطعة من الـشاش الأبيض، ومربوطة إلى العنق بقطعة أخرى– أربعٌ وعشرون ساعة لم تبْدُ للذئب كافية كي يعتبر جريمته منسيةً ومغتفرة؛ فلطالما تلقى من يد الهندي، وبعده "سميث" المجنون، عقوبةً بعد مضي أيام على إتيانه ما يستوجبها. لذلك كان لا يزال ينتظر العقاب المتوقع..

ولا غرو، فهو غرز أنيابه في لحم إله، وأيِّ إله.. إله أبيض، أي من الطبقة العليا من الآلهة؛ فكيف يُعقل ألاَّ يَتوقع ما يتناسب وخطورةَ ذنبهِ من عقاب؟..

لكن الإله جلس على خطوات منه، وهو ما لم يجد فيه الذئب ما ينذر بشر. فالآلهة حين ترغب في عقابَ مــسيءٍ تكــون واقفــةً لا جالسة.. ثم إن الرجل لم يكن يحمل في يده هراوةً ولا سوطاً؛ أضف إلى كل ذلك أنه هو نفسه كان حراً طليقاً لا شيء يمنعه من الفرار إن هو ابتغى فراراً، ولو شاء الرجل أن ينهض لمعاقبته لألفاه قد أصــبح بعيداً قبل أن يعتدل واقفاً. فلينتظرْ وليَرى..

كان الإله جالساً مكانه لا يبدي حراكاً.. وشيئاً فــشيئاً، راحــت الزمجرة تخفت في حلق الذئب حتى خَبَتْ.. حينذاك بدأ الإله يتحدث.. وعادت الزمجرة تتردد حين سمع الذئب الصوت، لكن الرجل تــابع

كلامه بهدوء في حين لم يَشِ مظهره بما ينذر بنوايا سيئة.. ومضت لحظات صاحبت زمجرةُ الذئب خلالها كلامَ الرجل كما تصاحب آلةُ طرب آلةً أخرى.. لكن الإله كان يتكلم بهدوء لم يعهده "أبيض الناب"، وبلطف لم يخاطبه به أحدٌ من قبل.. وفجأة بدأ شيءٌ مَّا يتحرك في أعماق الحيوان المتوحش.. بدأ "الذئب المقاتل" يشعر أنه- رغم كل تجاربه المريرة- بدأ يثق في هذا الرجل ويستشعر الأمان في صحبته.

مضت لحظات ثم قام الإله واقفاً ودخل الكوخ ثم خرج بعد قليل، فأخذ الذئب يتفحصه قلقاً.. لم يكن يحمل هراوةً ولا كانت يده المعصوبة إلى صدره تخفي شيئاً.. وعاد إلى مجلسه ثم مد يده بقطعة لحمٍ صغيرة للذئب الذي قفز متراجعاً ثم بدأ يتشمم من مكانه قطعة اللحم وقد انتصبت أذناه، مراقباً سلوك الرجل، مستعداً للانطلاق هارباً عند أول علامةِ سوءِ نيةٍ تبدر منه..

غير أنْ لا أثرَ ظَهَرَ لغدرٍ ولا لسوءِ نية. لم يزدْ الرجل على أن راح يلوح له بقطعة اللحم في يده.. وبدا له لحظةً أنْ ليس ثمة ما يخشاه، وأنَّ ما عليه سوى التقدم لأخذ البضعة المعروضة عليه. لكن حذره ما لبث أن عاوده فلزم مكانه؛ ولم يفلح تشجيع الرجل إياه بإشارات من يده في جعله يتقدم خطوةً واحدة إلى الأمام، فالآلهة قد أوتيت قدرات لا حدود لها، ولا شك أن قطعة اللحم هذه تخفي فخاً مميتاً.. ولطالما علمته تجاربه مع نساء الهنود أن اللحم والعقاب كثيراً مَّا يجتمعان..

رمى الإله أخيراً بقطعة اللحم أرضاً أمام الذئب، فمد أنفه نحوها وبدأ يتشممها وعيناه لا تفارقان الرجل، متوقعاً أن ينزل العقاب في اللحظة ذاتها التي يلمسها فيها.. فلما لم يحدث شيء، ابتلعها ووقف ينتظر.. وعاد الإله يقدم له قطعةً أخرى، فرفض أخذها من يده كالسابق، واضطر الرجل إلى الرمي له بها كسابقتها.. وتكرر ذلك

مرات، ثم جاءت لحظةٌ رفضَ الرجل فيها أن يرمي بـــاللحم للـــذئب، مبقياً القطعة في يده، عارضا إياها على الحيوان بإغراء..

كان اللحم لذيذا والذئبُ جائعاً، فراح يقترب وهو آخـــذٌ حـــذرَه.. وبلغ اليد أخيراً فمد فمه واختطف قطعة اللحم وزمجرةٌ هادرة تصَّعَّدُ من حلقه.. لكن شيئاً لم يقع، بل على العكس من ذلك، مد الإله إليـــه يده بقطعة لحم جديدة لم يطل تردده كثيراً قبل أن يختطفها مـــن بـــين أصابعه.. وتوالى الأمر على ذلك المنوال حتى امتلأت بطن الـــذئب ولا أثر لعقاب..

لعق "أبيض الناب" مشفريه ثم وقف منتظراً، فعاد الرجل يتكلم.. كان صوته رخيماً، به الكثير من الطيبة. والطيبة شيء لم يُتَح للذئب حتى اليوم أن يتذوقه.. كان يجد إحساساً غريباً بالارتياح، كما لو أن رغبةً دفينة كامنة لديه قد وجدت أخيراً ما يشبعها.. غير أن ذكـــرى تجاربه الأليمة مع بني البشر سرعان ما عادت تتراءى له، فعـــاوَدَه حذرُه القديم سريعاً، وراح يرقب الإله منتظراً عقابه..

ها.. لم يَكذبْه ظنُه.. هاهي اليد تمتد نحوه الآن.. تلك اليد التـــي طالما عانى من قسوتها الأمرَّين، كانت تستعد للمس رأسه.. لكن الإله كان يتابع الكلام دون توقف، بصوته الهادئ الرخيم، فيما يده مواصلةٌ طريقَها..

كان الذئب فريسة نزعتين متناقضتين ارتجَّ لتجاذُبهمـــا كيانُـــه.. ووجد حلاً وسطاً فبدأ يزمجر وثَنَى أذنيه إلى الخلف. لكنه لـــم يـــزد على ذلك شيئاً، ولم يستسلم لرغبته في العض والفرار.. واقتربت اليد حتى لامست أناملها أطراف شعر فروته المقشعر لمسةً انكمش لهـــا كيانه جميعاً، لكنه أفلح في السيطرة على جسده المتوتر المـــرتعش.. كانت اليد التي تلمسه تسوم غريزَته شديد العناء؛ فهو لم يكن بمقدوره أن ينسى في بحر يوم واحد ما أذاقته يد الإنسان أعواماً طوالاً.. غير أنه راح يقاوم ويقاوم لإجبار نفسه على الانصياع لإرادة إلهه الجديد..

عادت اليد ترتفع مبتعدة، ثم تنخفض من جديد لـتلامس بلطـف رؤوس شعر فروته التي كانت تستقبلها مقشعرةً منتـصبة، فيـنكمشُ الجسد وتُصدِرُ الحنجرةُ زمجرةً تُنذر بأنه لن يبقى ساكناً فيما لو بـدا له ما يُخشى منه الغدر.. لم يكن يدري ما يمكن أن يناله من تلك اليد فجأة؛ فالصوت الرخيم قد ينقلب على حين غـرة صـياحاً غاضـباً متوعداً، واليد التي تربت على رأسه بحنان قد تهوي عليه بغتة بلطمة موجعة، أو تمسك بشعر عنقه فتغدو قيداً لا فكاك منه..

غير أن الإله كان يواصل كلامه بالصوت نفسه لا يشوب نبرتَه تغيير، واليد توالي صعودها ونزولها فوق رأسـه بـاللطف ذاتـه لا يداخله عنف.. ووجد الذئب نفسه- رغم الثورة العارمة التـي كانـت تعصف بدواخله- يلفي ارتياحاً غريباً لملمس هذه الأصابع التي تفرك الآن جذرَيْ أذنيه، مضيفةً إلى ارتياحه لذةً جديدة عليه لا توصـف.. غير أن حذره لم يفارقه، فبقي في موقفه يتنازعه الخوف والارتياح..

خرج "ماط" في تلك اللحظة من الكوخ حاملاً طستاً مليئاً بمـاء الغسيل، فلما أبصر ما يجري بين رئيسه والذئب لم يتمالك نفـسه أن أطلق صيحة تعجُّب هاتفاً:

- شيء لا يُصَدَّق!..

قفز الذئب جانباً لدى سماعه صوت "ماط"، وبدأ يزمجـر وهـو يحدج الرجل بنظرات شرسة..

نظر "ماط" إلى رئيسه بدهشة وهو يقول:

- إذا سمح لي سيدي بأن أبدي رأيي فيه بكل صراحة، فسأقول إنه أحمقٌ مجنون..

عَلَت محيا "سكوت" بسمةُ زهو، وقام من مكانه فاتجـه صـوب الذئب وبدأ يحدثه بهدوء قبل أن يضع يده على رأسه مربتاً. فلم يُبْـدِ

الذئب ممانعة، لكنه بقي يزمجر وعيناه مثبتتان، لا على الرجل الذي كانت يده تربت على رأسه، بل على ذاك الواقف بباب الكوخ.. وقال "ماط" أخيراً:

– قد تكون يا سيدي مهندساً بارعاً وعالماً حكيماً أو ما شئت أن تكون، لكنك قد أخطأت رغم ذلك كله اختيار مهنتك. فالظاهر أن الإنسانية قد فقدت فيك مروِّضَ وحوشٍ لا نظير له!..

عاد الذئب يزمجر بصوت مرتفع حالَما شرع "ماط" يتكلم، لكنه لم يقفز هذه المرة بعيداً عن تلك اليد التي كانت مثابرةً على مداعبتها شعرَه وأذنيه بلطف وحنان..

كانت تلك بداية نهاية بالنسبة إلى الذئب.. نهاية عصر الكراهية.. وفجرُ عصرٍ جديد يبزغ.. عصرِ سعادة غامرة لم يعرف لها من قبل نظيراً.. عصرٍ سيتطلب إرساء قواعده من "سكوت" صبراً لا حدود له ومثابرةً لا تعرف الكلل.. أما الذئب، فإن ما كان يحدث له بكل بساطة كان ثورةً قلبت كيانه رأساً على عقب، وأخلَّت موازينَه جميعاً.. فقد أصبح يتعين عليه التخلي عن عاداته القديمة وقَهْرُ النزعات الغريزية التي كانت تحكُمُه حتى الآن، وتغيير ما درج عليه في السابق من طبع وسلوك.. كان المجهودُ المطلوبُ منه اليوم بذْلُه ليلبس لباس حاله الجديدة أكبر من ذاك الذي تطلَّبه منه يوماً خروجُه من الغابة عائداً نحو خيمة "القندس الرمادي" كي يقدم له بيعته طائعاً مختاراً.. فهو لم يكن يومذاك سوى طينٍ مرنٍ قابلٍ للتشكيل، خلقَتْ منه ظروفُه بعدها "الذئبَ المقاتل" الذي يمثِّلُ العنفُ والشراسة الدموية عمادَ حياته والدماءُ والأشلاء خبزَه اليومي..

واليوم وقد أضحى حيواناً بالغاً، فقد أصبح مطلوباً منه نبذُ كل تجاربه الماضية ومحوُ ما تحجَّرَ في أعماقه من أحاسيس الكراهية والخوف والحذر..

وشيئاً فشيئاً، بدأ التغيير يحدث تحت أصابع "سكوت" المرنة.. بدأ عملٌ دؤوبٌ غايته هدْمُ كل ما بُنِيَ خطأً وإعادةُ بنائه.. وشيئاً فشيئاً، شرع الحب يحل محل الولاء الذي كان حتى تلك اللحظة أرقى ما عرفه الذئب من مشاعر تجاه الآلهة البشرية..

غير أن ذلك الحب لم يُفصِح عن نفسه بين عشية وضحاها. فـ"أبيض الناب" كان قد عقد ميثاقاً مع الإنسان من يوم أن عاد من الغابة ليضع مقاديره بين يدي "القندس الرمادي"؛ و"سكوت" لم يعْدُ في نظره بادئ الأمر كونَه إلهاً كالآخرين، وإنْ يكنْ أفضل بما لا يقاس من "سميث" المجنون.. وتعبيراً عن ولائه جعل من نفسه حارساً أميناً على أمتعة سيده؛ فكان يجوب أرجاء المخيم طيلة الليل متجولاً في حين كانت الكلاب الأخرى تغط في نومها.. وهكذا وجد أولُ زائر زار المخيم ليلاً نفسَه محاصراً من قِبَلِ الذئب الشرس، مُجبَراً على البقاء مكانه حتى قدوم "سكوت" لإنقاذه.. على أن "أبيض الناب" لم يلبث أن تعلَّم كيف يميز الزائرَ العادي من اللص المتسلل، فكان يدع الرجل الذي يمشي مستقيماً لا يتلفت ولا يتستر يمر بسلام، ويكتفي بمراقبته حتى يقرع باب الكوخ ويستقبله من بداخله. أما من يدخل متخفياً ويمشي مشيةً متعرجة متفحصاً المكان، فكان يجد الذئبَ له بالمرصاد، فلا ينجيه من أنيابه إلا أن يولي هارباً..

كان "سكوت" يهدف إلى رد الاعتبار لـ"أبيض الناب". أو لِنَقُلْ إنه كان يسعى جاهداً إلى التكفير عمَّا اجترمَتْه الإنسانية في حق الذئب.. كانت المسألةُ بنَظَرِه مسألةَ مبدأ وضمير، وكان ماضياً بتصميمٍ في تحقيقِ ما اعتزمه من أداء ما للذئب من دين في عنق البشرية، فلم يتوقف يوماً عن مداعبة شعره، ولا عن الحديث إليه بعذوبة وحنان.. وشيئاً فشيئاً، راح حذر الذئب يتلاشى وخوفه يذوب

منصهراً تحت حرارة تلك اللمسات والكلمات، وبدأ يحبهـا جميعـاً.. وكان يزمجر دونما انقطاع حين تلمسه اليد أو تقرع سمعه الكلمـات، فالزمجرة هي كل ما تعلَّم إصدارَه من أصوات طيلة حياتـه المليئـة هريراً وزئيراً وعواءً وصيحاتِ تحذيرٍ وصرخاتِ ألم، بـدءا بـأول زمجرة ندت عن حلقه وهو بعدُ رضيعٌ في جحره.. ولَـشَدَّما ودَّ لـو يستطيع تغيير صوت زمجرته ومنحها نبرةً تتناسب وشعورَه الجديد، لكنه لم يفلح في ذلك، اللهم إلا من نغمة جديدة شرعت تنـدس فـي الزئير.. نغمةٌ ما كان باستطاعة شخص غريب أن يميزها، لكن أذن "سكوت" المدربة لم تخطئها، وعرفَتْ فيها نبرةَ سعادةٍ ارتج لها صدر الرجل بهجة وحبوراً..

مضت الأيام وئيدة و"أبيض الناب" يزداد اعتياداً لصحبة الرجـل وألفة له.. ودون أن يعرف ما الحب شرع يستـشعر ذلك الإحـساس النبيل ويجد له لذةً يحققها حضورُ سيده وكونُه بقربه، ويصدِّقها الفراغ الرهيب الذي كان يجده كلما كان الرجل بعيداً عن ناظريه، إذ كـان القلق يعتريه ساعتها، مالكاً عليه نفسه، لا تعادله قوَّةٌ إلا رغبتُه في أن يرى إلهه من جديد إلى جانبه، يكلمه ويداعب شعر فروته..

كان لا يزال رغم السنين في طور النمو، فراح سـلوكه يتغيـر تحت تأثير بيئته الجديدة كما تشكَّلَ يوماً تحت تأثير البيئة القديمة.. فقد كان في ما مضى لا همَّ له سوى الحفاظ على حياته وتجنـب الألـم، وهي مشاغل كانت تملك عليه وقته ونفسه.. أما الآن، ولم يعُدْ ثمـة– بفضل سيده الجديد– من مكانٍ للألم، ولا من خوفٍ على الحياة، فقد خلا الجو للحب الذي بدأ يترعرع كبذرةٍ طال كُمونُها ثم سنحت لهـا فرصةٌ فأينعت وسرت فيها الحياة.. كان الذئب يشعر لغياب "سكوت" بما يشبه الجوع، فكنت تراه منذ الفجر قابعاً عند باب الكوخ، منتظراً بفارغ الصبر أن تهل عليه طلعته ليتلقى من يده لمسة أو يسمع مـن

فمه كلمة.. بل إن اللحم– أَجَلْ، اللحمُ ذاته– كان يأتي في مرتبة ثانية بعد "سكوت"، فلم يكن الذئب يتردد في التخلي عن حصته من اللحم ليرافق سيده في جولاته في الحصن.. كان الحب قد حل محل الولاء وسكن مسكنه.. حباً كان يتخلل حنايا نفسه كمسبار فيلمس منها جوانب ما كان يبلغها منها الولاء.. كان إلهه الجديد إلهاً رائعاً ومُعَلِّمَ حبٍّ حقيقياً أسبغ على تلميذه السعيد حناناً وعطفاً جعل الذئبُ في دفئهما يترعرع كما النبتة الخضراء تحت أشعة الشمس، وسَرَت دماء الحب الدافقة في مواضع الطيبة من روحه فروَتْها وأحيتها من مَوات..

لم يكن الذئب ميالاً إلى إظهار عواطفه، فقد كانت سنه أكبر من أن تسمح له بذلك. ثم إنه قد عاش حياته جميعها منعزلاً مستقلاً، فلم تُتَحْ له فرصةٌ ليعبِّر عما يشعر به.. لم ينبح مرة في حياته ولم يستطع النباح للإعراب عن فرحه بمقدم سيده، ولم يلاعب أترابه يوماً حتى يعرف اليوم كيف ينط في مرح هنا وهناك عربونَ ابتهاجه لمرآه. فكان ينتظر مكانه حين يراه قادماً، ويبقى منتظراً حتى يقرر الإله أن يتذكر وجوده.. كانت عبادته صامتة، لا يرافقها تعبيرٌ خارجي، اللهم إلا ما كان من نظرة حادة من عينيه اللتين كانتا تتابعان الإله المحبوب حيثما انتقل.. وقد يحدث– حين يكون السيد سائراً في مداعبته إياه– أن يتخذ وضعاً مرتبكاً يشي برغبته في التعبير عما يعتمل في نفسه وعجزِه عن ذلك..

تكيَّفَ "أبيض الناب" سريعاً مع وضعه الجديد.. فكان عليه مثلاً أن يدع كلاب سيده في سلام.. وقد حافظ الذئب على هذه القاعدة بعد أن توصَّلَ– بغير كثير من العضات– إلى الحصول على اعتراف الكلاب له بالسيادة عليها.. وتعلَّم كذلك أن يحتمل وجود "ماط" بصفته

من ممتلكات سيده، تماماً كما كانت زوج "القندس الرمادي" وابنه من بين ممتلكات الهندي. ورغم أن "ماط" هو من كان مكلفاً بتقديم الطعام إليه، إلا أنه كان يدرك أن الرجل لم يكن سوى واسطة بينه وبين سيده الذي كان طعامه يأتيه من قِبَله.. وحين حاول "ماط" إلباسه السيور والأحزمة التي ستشدُّه إلى الزلاقة، حاولَ ذلك عبثاً، فما رضي الذئب بأن تُشَد السيور إلى صدره حتى حضر "سكوت" وعَلِم "أبيضُ الناب" أنْ تلك كانت إرادةُ سيده..

تختلف زلاقات "كلونديك" عن تلك المستعملة في أرض الشمال البعيد. لزلاقات "كلونديك" مزالق تحملها، كما أن الكلاب تُربَط إليها بطريقة مختلفة، إذ ليس من مكان هنا للترتيب الهلالي بحبال مختلفة الأطوال. فالكلاب تجري على صفين متوازيين يَربِطُ كلا منهما إلى الزلاقة حزامٌ جلدي واحد. أما رئيس كلاب الجر فهو هنا رئيسٌ فعلي تخشاه الكلاب وترهبه، ومكانه يحتله عادة أقوى الكلاب شكيمةً وأحدُّها ذكاءً. فلم يلبث "أبيض الناب" أن أحرز ذلك المنصب، إذ لم يجد "ماط" مناصاً، بعد عدة محاولات فاشلة، من إسناده إلى الذئب الذي كان يتصرف من تلقاء نفسه كما يتصرف الزعيم، ولا يرضى عن ذلك بديلاً.. على أنه سرعان ما أكد للرجل كونه عند حسن ظنه به، وذلك بقيادته الكلاب بكل حزم وكفاءة.. والحق أن الذئب كان يجد في ذلك مرتعاً يصرف فيه فائض حيويته المتوهجة..

لم يتخلَّ "أبيض الناب"– رغم مسؤولياته الجديدة بصفته زعيماً لكلاب الجر– عن جولاته الليلية لحراسة متاع سيده، فكان يعمل بلا انقطاع طيلة اليوم تقريباً.. ورأى فيه "ماط" خير العامل المجِدٌ والحارس الأمين، فقال يوماً لرئيسه ملاحظاً:

– إذا سُمِح لي بإبداء ما يجول بذهني، فسأقول إنك يا سيد "سكوت" قد حققت صفقة رابحة لدى شرائك هذا الذئب بمائة وخمسين

دولاراً. فصاحبنا "الوسيم" قد غُبِنَ ولا شك حقَّه، دون احتساب ما ناله علاوة على ذلك من اللكمات..

التمعت عينا "سكوت" للذكرى، ولاح الحنق في نظرتـه وهـو يتمتم بصوت مكتوم:

– الوغد اللئيم!..

مع حلول الربيع كانت ثمة مفاجأة بانتظار "أبيض النـاب". فقـد اختفى "معلم الحب" بغتة دون أن يكون قد بدا في الأفـق مـا ينـذر بذلك.. والحق أن الحقائب والأحمال قد شُدَّت جميعهـا أمـام عينـي الذئب، إلا أن ذلك لم يكن حينها يعني له شيئاً. فجـاء الليـل وبقـي المسكين ينتظر دون جدوى، يغفو لحظة ثم لا يلبث أن يصحوَ حاسباً نفسه قد سمع صوت سيده أو شم رائحته.. لكن الصباح انبلج دون أن يظهر للسيد أثر.. وحين انفرج باب الكوخ ظهر منه "ماط" الذي وقف ينظر إلى الحيوان الماثل أمامه، عاجزاً عن الإتيان بجواب للـسؤال المرتسم في عينيه..

مضت الأيام ولا أثر للسيد.. وسقط الذئب، لأول مرة في حياته، فريسةً للمرض.. وزاد مرضه استفحالاً حتى اضـطر "مـاط" إلـى إدخاله الكوخ جنب الموقد حيث بقي ساكناً دون حراك..

وكتب "ماط" أخيراً إلى رئيسه رسالة جاء فيها:

"... أما هذا الذئب العنيد، فإنه يرفض العمل والأكل معـاً، ولا يدفع عن نفسه كلباً يهاجمه.. إنه يريد أن يعرف سـبب غيابـك، ولا وسيلة لدي لإفهامه ذلك.. إنه سيموت قريبا ولا شك.."

الحق أن كل ما جاء في الرسالة كان صحيحاً.. فـ"أبيض الناب" كان ممتنعاً عن الأكل، وبدا وكأنه قد فقد الرغبة في العيش، وكذا قوةَ

الشخصية التي كانت تجعل الكلاب تهابه.. أصبح يقضي سحابة نهاره مضطجعاً جنب الموقد غير مبال بما يجري حوله، لا يهمه أن كلَّمه "ماط" بلطف أم صاح به معنفاً.. كان يكتفي بنظرة حزينة يلقيها على الرجل، ثم يعود ليضع رأسه ما بين قائمتيه الأماميتين، في وضعٍ أصبح مألوفاً لديه..

وذات مساء، وفيما "ماط" جالس يتدرب على القراءة بصوت مرتفع، قاطعه أنينٌ حادٌ ند عن الذئب فجأة، فالتفت صوبه ليجده قد قام واقفاً وشرع يصيخ السمع بانتباه موجهاً نظره نحو الباب وقد انتصبت أذناه اهتماماً وتوتُراً.. ومضت لحظة ثم سُمِع وقع خطوات تقترب، وانفتح الباب عن "سكوت" الذي ما إن انتهى من مصافحة رفيقه حتى سأله بلهفة:

– أين الذئب؟..

لكنه سرعان ما رآه واقفا في المكان الذي كان ينطرح فيه منذ لحظات بضعف وإعياء.. ولم يتقدم الذئب نحو إلهه، بل وقف مكانه ينتظر.. وصاح "ماط" مندهشاً:

– اُنظر إلى ذيله!..

تقدم "سكوت" نحو "أبيض الناب"، فسار الذئب نحوه بتريث لا يتناسب وعواطفَه الجياشة التي جعلته يبدو كالمرتبك.. أما عيناه، فنطقتا بسعادة جعلتهما تلمعان كنجمتين.. وقال سائق الكلاب مضيفاً بما يشبه الحسرة:

– لم ينظر إليّ قَطُّ هكذا..

لكن "سكوت" لم يكن ينصت إليه.. كان جالساً القرفصاء جنب الذئب يربت بلطف على رأسه وأذنيه وظهره، بينما راح "أبيض الناب" يصدر زمجرته المعهودة وقد داخلتها من جديد تلك النبرة

السعيدة التي أضحت مسموعة بأقوى من ذي قبل.. غير أنه لم يكْتَفِ بذلك القدر، بل وجد وسيلةً أخرى يُظهر بها فرحه وسعادته الغامرةَ بلقيا سيده، فدفع برأسه حتى أخفاها جميعها تحت عضد الشاب، فلم يعد يبدو منها سوى أذناه. وبقي على ذلك الوضع ملتصقاً بإلهه وكأنه يخفي بذلك فرحةً تخجله..

تبادل الرجلان نظرة.. كانت عينا "سكوت" تلمعان.. وهتف "ماط":

– ألم أقل لك من قبل إن في هذا الذئب شيئاً من الكلب؟.. انظرْ إليه الآن!..

استرجع الذئب قُواه سريعاً بعد عودة إلهه المحبوب، فبقي يومين في الكوخ يستعيد عافيته، ثم خرج إلى الشمس.. وكانت الكلاب قد نسيت زعامته القديمة ولم تعد تذكر سوى مرضه الطارئ، فما أن رأته حتى انقضت عليه، فصاح به "سكوت" مشجعاً:

– هيا يا عزيزي.. أرِهم ما أنت قادر عليه!..

غير أن الذئب لم يكن بحاجة إلى تشجيع، فقد كانت عودة إلهه قد ردت إليه كل حيويته وعزمه، فما هي إلا لحظات حتى انسحبت الكلاب هاربة لتختفي طيلة ما بقي من النهار، ولا تعودَ إلا مع حلول الظلام وأذنابها بين قوائمها الخلفية، عربونَ اعترافها بسيادة الذئب عليها وقبولها بها..

لم ينس "أبيض الناب" عادته التي تعلمها حديثاً، فما إن يقترب منه سيده ويشرع في مداعبة أذنيه وشعره حتى يدفع برأسه تحت عضده.. كان بذلك يعبر عن ثقته بإلهه المحبوب.. أوَليست الرأسُ أهمَّ شيء ينبغي الحفاظ عليه ودفْعُ الأذى عنه؟.. وبالغاً مَّا بلغ حبُّه للرجل من عمق وقوة، فهو لا يزال يحتفظ بالكثير من الصفات

الملازمة لطبيعته، وأبرزُها الحذر.. فإخفاؤه رأسَه بتلك الطريقة تحت يد الرجل كان في الواقع عنوان ثقةٍ وحب لا حدود لهما.. وكأن لسان حاله يقول له:

– "ها أنذا أضع نفسي بين يديك، فافعل بي ما شئت..".

وذات ليلة، وبينما الرجلان ينتهيان من لعب الورق ويستعدان للنوم، طرقت سمعهما صرخةٌ تلاها هديرُ زمجرة، فتبادلا النظر وقال "ماط":

– لقد أمسك الذئب بشخصٍ مّا..

عادت صرخةٌ أخرى تعلوُ أقوى من سابقتها، فأسرع الرجلان إلى الخارج. وقال "سكوت" وهو يفتح باب الكوخ ويمرق منه، موجهاً كلامه إلى رفيقه:

– خذ مصباح الغاز معك..

كان هناك رجلٌ يتمدد فوق الثلج الأبيض، وقد ثنى ذراعيه فوق رأسه، محاولاً حماية عنقه من أنياب الذئب الذي كان يقفز من حوله، باحثاً عن طريق يصل عبرها إلى نقطةٍ حساسة من جسمه.. كان "أبيض الناب" ضحية هياجٍ مستعر، فبدت ذراعا الرجل– وقد انحسرَت عنهما سترته المقطعة إربا– داميتين ممزقتين..

كان رد فعل الرجلين سريعاً، فارتمى "سكوت" على الذئب وأمسك بعنقه ساحباً إياه إلى الخلف. وحاول "أبيض الناب" العودة للانقضاض على خصمه، لكن أمراً سريعاً من سيده جعله يقعي مكانه وهو يهدر مزمجراً. أما "ماط"، فراح يساعد الرجل في الوقوف؛ وسقط ضوء المصباح على وجهه فعرف فيه "سميث الوسيم"..

ارتد "ماط" إلى الخلف مبتعداً حالَما تعرَّفَ الرجلَ وكأنه رأى شيطاناً.. أما "سميث"، فبقي لحظة يحملق في المصباح، ثم جال حوله

ببصره. ورأى "أبيضَ الناب" فعاد الخوف يرتسم على صفحة وجهــه الدميم.. ولمح "ماط" في تلك اللحظة جسمين مرميين على الثلج أمامه، فقرَّب منهما المصباح ليجد سلسلة حديدية وهراوة ضـــخمة.. وهــز "سكوت" رأسه في صمت.. لم يكن أحد قد نطــق بكلمــة.. ووضـــع "ماط" يده على كتف "الوسيم" وأدار وجهه نحو الخارج، ثم دفَعَه إلـــى الأمام.. كانت الكلمات تبدو زائدة، غير ذات جدوى.. وابتعد "سميث" في صمت.. ومرت لحظة ثم انحنى "سكوت" يربت على رأس الذئب بحنان وهو يقول:

– هكذا إذاً.. كان الوغد ينوي سرقتك.. لكنك لم توافق.. كـــان المسكين يداعب أملاً مستحيل تحقيقُه..

ندت ضحكةٌ عن "ماط" وهو يقول:

– كأني به وقد خال أن شعباً من الشياطين قد هاجَمَه مجتمعاً!..

مضى الرجلان يقهقهان.. أما "أبــيض النـــاب"، فقــد واصـــل زمجرته، لكن شعر فروته المنتفش بدأ يستوي رويدا تحت يــد إلهــه الحانية، و تخفت الزمجرة، حتى استحالت نغمةَ حبٍّ شادية...

الفصل الواحد والعشرون

الرحيــل

كان كل شيء ينذر بذلك.. وحتى قبــل أن تبــدو أيــة علامــة ملموسة، أحس الذئب أن مأساة كانت على وشك الوقوع.. كان هناك تغييرٌ مَّا يوشك أن يحدث.. كان يحس ذلك في تفاصيل دقيقة ربما لا يكون أيٌّ منها ذا بال، إلا أنها مجتمعة تنبئ بــشرٌ قريــب.. وبينمــا الرجلان يتناولان طعامهما، قال "ماط" لرئيسه:

– أنصت..

راح الاثنان يصغيان إلى الأنين القادم مما وراء بــاب الكــوخ حزيناً كئيباً، تليه أصوات تشمُّم.. كان "أبيض الناب" يتأكد بذلك مــن وجودَ إلهه بالداخل.. وقال "ماط" معلقاً:

– لست أشك في أن هذا الذئب يود مرافقتك..

قال "سكوت" كالمتوسل وقد نطقت عيناه وكل أساريره بمخالفة ما يضمره في سره:

– وماذا تريدني بــالله عليــك أن أصــنع بــذئبٍ قطبــي فــي "كاليفورنيا"؟..

قال الآخر بخبث:

– ذلك ما كنت أفكر به أنا أيضاً.. مــاذا تــصنع بــذئب فــي كاليفورنيا؟..

كان كل من الرجلين على علم بما يجول بذهن صاحبه، لكنهمــا كانا يتجاهلان ذلك.. وتابع "سكوت" قائلاً:

– ما إن يضع قدمه هناك حتى يُعْمِلَ أنيابه في كــلاب البــيض تقتيلاً، فأُفنيَ أموالي في تعويض أصحابها، هذا إذا لم تنتزعْــه منــي الشرطة قبل ذلك لتقتله بصعقة كهربية..

عاد "ماط" يقول بالخبث نفسه مؤمّناً:

– أجل.. إنه قاتلٌ متوحش.. ما في ذلك من شك..

حدجه "سكوت" بنظرة مرتابة وهو يقول:

– نعم.. لن يفيد ذهابُه معي في شيء..

– أجل.. سوف يلزمك خادمٌ خاص به يمنعه من إلحــاق الأذى بالآخرين..

هز "سكوت" رأسه موافقاً وقد علت ملامحه ما يــشبه ارتيــاح اليائس.. وساد الصمت لحظةً عاد خلالها الأنين الحزين إلى التــردد في جو المكان، تعقبه أصوات التشمم المتلهفة، قال "ماط":

– إنه متمسك بك، ما في ذلك شك..

هتف به "سكوت" غاضباً:

– أسكت!.. أنا أدرَى بما يصلح لي..

– نعم.. لكن..

– لكن ماذا؟..

– لكن..

صمَتَ "ماط" برهةً ثم تابع وقد انتابه الغضب بدوره:

– مهلاً!.. من يَرَى سُلُوكَكَ يَخَالُكَ ضحيةَ صراعٍ مــع نفــسك، وكأنك على غير اقتناع بما تقول..

لزم "سكوت" الصمت لحظة متفكراً، ثم قال:

– معك حق يا "ماط".. فأنا والله لا أدري ماذا أفعل.. وذاك هــو المشكل..

غير أنه سرعان ما عاد يقول بعد برهة:

– لا.. لا يمكنني اصطحاب الكلب معي إلى هناك.. سيكون ذلك مدعاةً للسخرية..

قال "ماط":

– أنا أوافقك الرأي..

رمقه صاحبه بارتياب، فعاد يقول مستطرداً:
– على أني أتساءل كيف استطاع أن يخمن سفرك القريب..
هز الشاب رأسه قائلاً:
– وأنا كذلك أتساءل..
جاء يومٌ رأى فيه الذئب– من خلال فرجة الباب– الحقيبةَ مفتوحةً، والملابسَ مُكَوَّمةً بجوار سيده الذي كان يرتبها داخلها.. كان هناك غُدُوٌّ ورواحٌ غير معتادَين في الكوخ ومن حوله.. لم يعد هناك مجال للشك، وما كان بالأمس يخشى وقوعه أضحى اليوم يتجسد حياً أمامه.. كان الإله المحبوب يستعد للاختفاء عن عينيه فترة أخرى.. ولمّا لم يكن قد اصطحبه معه في اختفائه الأول، فليس ثمة ما يدعو لأن يأمل مرافقتَه اليوم..
في تلك الليلة، أطلق "أبيض الناب" عواء الذئب المعروف.. كان يتملكه الإحساس ذاته الذي اعتراه يوم فرّ من مخيم "القندس الرمادي" ثم عاد بعدها ليجد مكان المخيم خالياً، فراح– كيومها– يشكو للنجوم البعيدة الصامتة ألمه وجزعه..
قال "ماط" والرجلان يستعدان للنوم:
– لقد عاد للامتناع عن الأكل..
غمغم "سكوت" شيئاً غير مفهوم ثم صَمَت، فعاد الآخر يقول:
– إنْ فَعَلَ في هذه المرة ما فعلَه في التي سبقتها، فلا شك أنه سيموت قبل عودتك..
انتفض "سكوت" غاضباً وصاح به:
– أسكت!.. أسكت!.. إنك لا تتوقف عن طرقُ الموضوعَ ذاته وكأنك عجوزٌ خرقاء!..
قال "ماط":
– أجل.. أنت على صواب..
ثم لزم الصمت تاركاً الآخر يتساءل ما إذا كان صاحبه يسخر به..

عند الصباح بلغ الاضطراب بالذئب أوجَه، فكان متى خرج سيده من الكوخ تبعه لا يحيد عن موقع خُطاه، وإذا عاد يدخله بقي هو عند بابه منتظراً.. كان يرى الحقائب مُعَدَّةً وقد صُفت جوار الباب– كيسان ضخمان وصندوق كبير، أضيفت إلى الحقيبة التي كانت تحمل ملابس إلهه– فيما راح "ماط" يطوي الأغطية، فينقطع لذلك فـؤاده ويـذوب الكبدُ ألماً..

وبعد قليل، رأى هنديين يُقْبِلان ويحملان متاع سيده ويتجهان به صوب النهر، يقودهما "ماط" الذي حمل الأغطية والحقيبة..

غير أن الذئب لم يتبعهم، بل بقي حيث سيده..

اتجه "سكوت" صوبه وبدأ يحدثه قائلاً:

– يا عزيزي.. إنني مضطر إلى الذهاب بعيداً، في سفر طويـل لن تستطيع مرافقتي فيه، فتعال ودِّعني بإحدى زمجراتك المحبوبة..

لكن الذئب ظل صامتاً، واكتفى بتصويب نظـرة حزينـة إلـى الشاب، ثم أدخل رأسه تحت عضده وبقي هادئاً.. وعاد "ماط" فجـأة ينادي:

– إن السفينة تطلق صفارتها، هيا يا سيد "سكوت".. ودِّعْ ذئبـك بسرعة واخرج من الباب الخلفي، وسأهتم أنا بالذئب..

اصطفق البابان في الوقت ذاته، ولحق "سكوت" برفيقه وانطلقلا تتبعهما أنَّات جزعٍ تقطعها حشرجةُ بكاء تعقبه أصواتُ تشمُّم.. وقال "سكوت" بحزن بينما هو ورفيقه ينزلان المنحدر المؤدي إلى النهر:

– اهتمَّ به ، واكتب لي بأنبائه أولا بأول..

– أعدك بذلك.. لكن أنصتْ..

توقف الرجلان ينصتان.. كان "أبيض الناب" ينوح كمـا تنـوح الكلاب التي يموت عنها أصحابها.. كان العواء ينطلق من حنجرتـه قوياً صاخباً لينتهي إلى نبرة حزينة لا تلبث بدورها أن تنقلب عـواءً طويلاً، ناطقاً بيأس الذئب وقنوطه..

كانت "الأورورا" أولَ باخرة تغادر "كلونديك" تلك السنة، فغصّ سطحها بالمسافرين، وأغلبهم منَ المغامرين المنقبين عن الذهب، العائدين أدراجهم إلى بلادهم وقد امتلأت جيوب بعضهم ذهباً، وأفنى جُلّهم وقته وما كان يملك من مال سعياً وراء سراب الثروة الخادع.. غير أنهم كانوا يستوون جميعاً في تلهفهم على مغادرة تلك الديار تلهُّفَهم من قبل على المجيء إليها..

فيما "سكوت" يشد مودعاً على يد صديقه الذي كان يتأهب لمغادرة السفينة، إذ بالرجل يتوقف فجأة عن الكلام وهو ينظر مشدوهاً إلى نقطة وراءه، فاستدار الشاب ليجد خلفه "أبيض الناب" مقعياً ينتظر..

أفلت الرجلُ المنذهل بضعَ شتائمَ وَشَت بشديد عجبه.. أما "سكوت"، فعاد نحوه ببصره سائلاً:

– هل أحكمتَ إغلاقَ البابِ الذي كان من قِبَلِك ؟..

– دون أدنى شك..

– وأنا كذلك.. هذا شيء عجيب..

فقال "ماط" بتصميم:

– سأعيده إلى الأرض مهما بلغ به العناد..

قال ذلك وتقدم نحو "أبيض الناب" الذي قفز من مكانه واستدار هارباً واختفى بين أرجل المسافرين.. وجرى الرجل يلاحقه، لكن الذئب كان أخف منه وأسرع حركة، فلم يلبث أن عاد بعد لحظات لاهثاً.. ونادى "سكوت" الذئب فأتى نحوه ملبياً، فقال "ماط" بنبرة شاكية:

– من يراه هكذا لا يصدق أني أنا مَن يطعمه بيده.. أما أنت فما إن ناديته حتى أتاك صاغراً.. أتدري.. لقد كنت أشعر وأنا أطعمه أنه يعلم حق العلم أني وسيلة ليس غير، وأن الطعام يأتيه في واقع الأمر منك..

كان "سكوت" في تلك اللحظة يداعب شعر الذئب بيده، وإذا بـه ينحني فجأة ليتفحص أنف الحيوان. كان الأنف مغطى بخدوش حديثة بينما بدا جرح غائر بين العينين.. وتأمل الرجلان الجروح لحظة، ثم انتصب "ماط" واقفاً وهو يقول:

– لقد نسينا النافذة.. ولم يتردد في اختراق زجاجهـا بجـسمه.. أنظرْ إلى بطنه..

غير أن "ويدون سكوت" لم يكن يسمع.. كان يفكر بسرعة..

علت صفارة السفينة معلنةً عن إقلاعها الوشيك، وشرع مَن على ظهرها مِن غير المسافرين في مغادرتها، ومد "ماط" يده إلى منديلـه يحله من حول عنقه ليستخدمه مقوداً يجبر به الذئب علـى مرافقتـه، وإذا بالشاب يمسك بيده وهو يقول باسماً:

– وداعا يا "ماط".. أُكتب لي بأنبائك.. أما الذئب، فإني.. فإني..

– ماذا؟؟..

– أجل.. سأصطحبه معي، وليكن ما يكـون.. وسـأكتب لـك لأخبرك بما يؤول إليه أمرُه..

توقف "ماط" وهو في منتصف السلم الخشبي النازل من السفينة، واستدار نحو "سكوت" قائلاً:

– إنه لن يحتمل الجو هناك أبداً.. أما خلال فترات القيظ، فلـن يكون أمامك سوى أن تجز شعره الكثيف..

رُفِع السلم وتحركت السفينة، ولوح "سكوت" بيده مودعاً باتجـاه صديقه قبل أن ينحني على الذئب الذي التصق بـه وهـو يرتجـف سعادة، ويقول له مربتاً على رأسه بحنان:

– هيا أيها الماكر.. لك أن تفرح الآن بانتصارك، لقد كان لك ما أردت...

الفصل الثاني والعشرون
أرض الجنوب

شَعَرَ "أبيض الناب" بدفق من مشاعر الهلع والإعجاب يملأ عليه نفسه حين نزل "سان فرانسيسكو".. ولئن كانت القوة والمقدرة ترتبطان لديه لاشعورياً بالألوهية، فإن ألوهية البيض تجلت له ساطعة وهَّاجة وهو يجري في شوارع المدينة الفسيحة بأرضيتها المفروشة بالأسفلت.. أما الأكواخ التي كان قد اعتاد حتى اليوم رؤيتها ورهبتها، فقد أضحت تبدو له أقزاماً أمام الصروح المشيدة التي كانت تحيطه الآن من الجانبين.. وأما الأخطار فكانت الشوارع تعج بها، من شاحنات وسيارات وعربات ثقيلة تجرها جيادٌ لاهثة.. وتحت الخيوط الشيطانية، كان الترام يجري كالمجنون مالئاً الدنيا قرقعةً وزعيقاً يُذكِّرانه بصيحاتِ "وشقٍ" هائج في غابات الشمال..

كان كل ما يراه ينطق بالقوة والمقدرة التي لا تعرف حدوداً.. فخلف كل ذلك كان يثوي الإنسان سيداً متحكماً مسيطراً على المادة كعادته..

كان كل ما يحيطه ضخماً ومخيفاً بلا حدود..

تملك الخوف الذئب.. شعر – وهو ابن السنوات الخمس – بالخوف ذاته الذي ملك عليه نفسه يوم خرج من الغابة وهو بعدُ صبي يانع، ليجد نفسه أمام الهنود الحمر.. أما الآلهة، فما كان أكثرها في تلك المدينة العجيبة.. وأما الضجيج، فقد أصابه بالدوار.. وأحس بمدى

حاجته إلى إلهه أكثر مما أحس بذلك في أي وقت مـضى، فـصار ملازماً أقدامه، لا يدعهما يغيبان عن ناظره مهما حدث..

غير أنه لم يُكتب له أن يرى يومئذ من المدينة سوى ما أتاحتـه الساعات القليلة التي قضاها وسيدَه بها قبل أن يحتويهما القطار، مـن مناظر ستحتل أحلامه طويلاً. أما الآن فقد قبع في الركن الذي ربطه به السيد داخل عربة المتاع، حيث كان إلهٌ مفتول العضلات يـرص بعض الصناديق في العربة، ويرمي ببعضها الآخر بعنف إلى الخارج ليلتقطها أصحابها. وأصيب الذئب بالذعر بادئ الأمر، حيث حـسِبَ سيدَه قد تخلى عنه لذلك الإله الغريب. لكنه سرعان ما اشتم رائحـة متاع الشاب الموضوع إلى جواره، فأخذ يقوم كعادته على حراسته.. وحين توقف القطار أخيراً، اضطر "سكوت" إلـى الـصعود بنفـسه لإنزال أمتعته التي حال الذئب دون الرجل المكلف بالأمتعة ودونها..

نزل الذئب من العربة وأصيب بالذهول.. كانت المدينة قد اختفت بضوضائها وزحامها.. ولم يفهم شيئاً..فقد كانت عربة القطار بالنسبة إليه مجردَ كوخٍ خشبي ربطه سيده فيه جنب متاعه ثم ذهب لقـضاء حاجة وعاد.. وهاهي المدينة كلها قد تبخرت وكأنها كانـت وهمـاً، وامتدت مكانَها باديةٌ فسيحة خضراء مشمسة..

على أنه– كعادته– لم يتساءل كيف اختفت المدينـة ولا كيـف ظهرت البادية، بل تقبَّلَ كل ذلك على أنه علامةٌ أخرى من علامـات قوة الآلهة وقدرتها التي لا تُضاهى..

فالآلهة فعَّالةٌ لما تريد...

كانت هنالك عَربة تنتظر، نزل منها رجـلٌ وامـرأة، وتقـدمت المرأة فأحاطت عنق "سكوت" بذراعيها.. كان في ذلك ما يوحي بعداءٍ لا شبهة فيه... نَدَّت عن الذئب زمجرةُ تهديدٍ مخيفة، فخلَّص الـشاب

نفسه من بين ذراعي أمه، وحال بين الحيوان وبينها قائلاً وهو يمسك به:

– لا تخافي يا أماه، ظنَّكِ تريدين بي سوءاً، وهو ما لا يستطيع احتماله.. لكن لا عليك منه، فلن يلبث أن يدرك كل شيء. فهو كلبٌ حادُّ الذكاء..

قالت الأم وهي تطلق ضحكة رغم الامتقاع الذي علا سحنتها:

– وفي انتظار ذلك، عليَّ أن أتجنب تقبيل ابني في حضور كلبه!.

راح الجميع ينظرون إلى الذئب الذي كان يزمجر كاشفاً عن أنيابه وقد انتفش شعر جسده وتوترت قوائمه.. وقال "سكوت" في الأخير مكرراً:

– لا عليكم. لن يطول به الأمر حتى يتعلم ما أريده منه..

قال ذلك ثم انحنى على الذئب وشرع يحدثه بصوته الهادئ الرخيم والذئب يسترجع سكينته رويدا حتى هدأ تماماً. عندها قال "سكوت" بصوت آمر:

– والآن يا صديقي، أَقْعِ..!

كان ذاك أحد الأوامر التي علمه الشاب أن يستجيب لها. وبالفعل، أقعى الذئب؛ لكن عينيه لم تفارقا والدة "سكوت".. واستدار الشاب نحو أمه يعانقها وهو يكرر:

– أقعِ!.. أقعِ..!

مكرراً ذلك كلما رأى الذئب على وشك القيام..

– أقعِ!.. أقعِ..!

وبقي الذئب مقعياً، وإنْ لم يكفَّ عن مراقبة الحركة العدائية– حركة إحاطة الرأس بالذراعين– وهي تتكرر أمام عينيه حتى انتهت

منها المرأة، ففعل مثلَ فعلها الرجلُ الذي كان برفقتها، دون أن يَلحَقَ من أثر ذلك بسيده ضرر..

أخيرا امتطى الجميع العربة، وسارت و"أبيض النــاب" يجــري أمامها تارة وخلفها أخرى، متيقظاً ونافشاً شعره، كي تَفهَمَ الجيادُ التي كانت تجري بالعربة مسرعةً أنه لن يتساهل فيما لو أصــيب ســيده ومرافقاه بسوء جرَّاء سرعتها..

بعد عشرين دقيقة، دخلت العربة بوابةً تنفتح في ســور طويــل، وسارت عبر ممرٍّ تَحُفُّه من الجانبين أشجارٌ تتشابك قممُها الباسقة في الأعالي، مكونة ما يشبه دهليزاً عملاقاً ينتهي بــساحةٍ تلتقــي فيهــا خضرة الأرض بزرقة السماء، ويتوسطها منزل فخم ذو طابقين تمتلئ صفحة واجهته البيضاء بفتحات عديدة من النوافذ..

غير أن "أبيض الناب" لم يتح له أن ينظر إلى شيء من ذلك في هدوء. فما إن جاوزت العربة بوابة الحديقة حتى خــرج مــن بــين الأشجار كلبٌ من كلاب الرعاة ملتمع العينين مدبب الأنف، وانقــض على الذئب كالصاعقة..

وجرياً على عادته، لم يضع "أبيض الناب" وقته في المقدمات، إذ سرعان ما انقض بدوره ليضرب ضربته المميتة..

على أنه سرعان توقف في مكانه، في وضع مضحك بدت فيــه قائمتاه الأماميتان ممتدتين متــوترتين كأنــه يتوثــب للانقــضاض، والخلفيتان منثنيتين كأنه يستعد للاقعاء..

لم يكن بإمكانه دخول تلك المعركة.. فالكلب الذي كان يواجهــه كان أنثى، والقانون الساري لدى بنات جنسه يُحرّم عليــه مهاجمــة

الإناث منها، بل وحتى الرد على اعتداء من يعتدي عليه من بينها.. فقتال الإناث شيءٌ يتناقض وطبيعتَه..

أما الإناث، فإنها لا تعترف لذلك القانون بسلطة، فلم يكن للكلبة من وازع سوى غريزتها، والغريزة كانت تصرخ بها أن ذلك الذي تراه أمامها سليلُ اللصوص التي طالما قاتلها أسلافها دفاعاً عن قطعان أسيادهم.. ففي الوقت الذي تخلى فيه الذئب عن نيته في الهجوم، انقضت هي عليه وأنشبت أنيابها في كتفه، فزمجر الذئب متألماً وتراجع باحثاً عن وسيلة يتفادى بها مهاجمتَهْ الغاضبة كي يلحق بالعربة التي كانت على وشك الاختفاء عن عينيه، غير أن الكلبة سدت عليه المنافذ جميعاً، عاقدةً العزم على طرده خارجاً..

جاء من داخل العربة صوت الرجل الذي كان يرافق سيده صائحاً:

-"كولي"!.. تعالي هنا!..

غير أن ابنه قاطعه باسماً:

– دعه يا أبتاه.. ففي ذلك تدريب هو في حاجة إليه، يعلمه غيضاً من الفيض الذي ينبغي له تعلُّمه هنا.. دعه وسوف ترى أنه لن يجد أدنى صعوبة في التكيف..

بدأت العربة تبتعد، والكلبة لا تبارح الذئب، مغلقةً في وجهه المنافذ، مانعةً إياه من اللحاق بسيده.. وحاول الفرار منها ذات اليمين وذات اليسار، لكنها كانت، في كل مرة، تعترضه مكشرةً عن أسنانها اللامعة..

كادت العربة تختفي وراء ستار الأشجار الكثيف، وبدا الوضع عصيباً للغاية، فلم يجد الذئب مناصاً من اللجوء إلى حيلة قديمة،

فشرع يجري راسماً دائرة واسعة، تاركاً الكلبة تجري بحذائه، ثم استدار فجأة نحوها مغلقاً عليها الطريق بجسده.. ونجحت الحيلة، فارتطمت الكلبة به وراحت تتدحرج بعيداً وهي تصرخ بغيظ وألم كلما دارت حول نفسها دورةً فوق العشب الأخضر..

أما "أبيض الناب"، فقد انطلق يجري بلا إبطاء، مستغلا انفتاح الطريق – ولو مؤقتا – أمامه.. واستعادت الكلبة توازنها أخيرا فقامت تجري متعقبة خصمها.. غير أن الذئب كان يحظى في ذلك المجال بتفوق لا يجارَى، فسرعان ما خلَّفها بعيدا ولحق بالعربة يعدو كظلٍّ صامت..

وجد العربة متوقفة بباب المنزل وسيده ينزل منها، فاتجه صوبه. لكنه أحس فجأة– وهو يعدو بكل سرعة– أن خطراً يتهدده من ناحية اليمين.. كان ذاك سلوقياً انقض على "أبيض الناب" الذي لم يستطع الإمساك جيداً بخصمه، فتدحرجا معاً؛ ثم قام الذئب واقفاً يستعد لمعاودة الهجوم وقد انتفش شعره ولمعت أنيابه الحادة التي أخطأت ضربتُها الأولى عنقَ الكلب بأقل من قيد أنملة.. وعاد ينقض، فلم ينج السلوقي من الموت– فسيدُه ما كان ليدركه في الوقت المناسب– سوى الكلبة التي لحقت أخيراً بخصمها، وارتمت عليه منشبةً أنيابها في كتفه.. ومرة أخرى، عاد "أبيض الناب" يتدحرج أرضاً.. وفي اللحظة التالية كان "سكوت" يمسك بالذئب بينما أمسك أبوه بالكلاب.. وقال الشاب يعلق ضاحكاً:

– ياله من استقبال حار يحظى به هذا الذئب القطبي لدى أهل الجنوب!.. لقد عُرِف عنه أنه لم يُسقَط أرضاً خلال حياة القتال الطويلة التي عاشها سوى مرة واحدة، وهاهو الآن يسقط مرتين في اليوم نفسه..!.

قال ذلك وهو يربت على رأس "أبيض الناب" الذي هدأ من روعه قليلاً..

ابتعدت العربة وخرجت آلهة أخرى من المنزل الكبير، فبقي بعضها واقفاً على بُعدٍ باحترام في حين تقدمت إلهتان من سيده وأحاطت كل منهما عنقه بذراعيها.. وكان "أبيض الناب" قد بدأ يألف رؤية إلهه على تلك الشاكلة محاطاً بأذرع الآخرين، فبقي ساكناً ينصت إلى الأصوات المتبادلة التي لم يجد فيها بدورها ما ينذر بسوء.. وحاولت السيدتان مداعبته، لكنه تراجع مزمجراً، فكلمهما "سكوت" يوصيهما بعدم إزعاجه، فيما أسرع الذئب يختبئ بين ساقي سيده احتماءً به، فربت الشاب على رأسه مطَمْئناً..

أما "ديك"، السلوقي، الذي كان يقعي أعلى درج المدخل طاعة لأمر سيده "سكوت" الأب، فإنه راح يزمجر وهو يراقب الغريب من مكانه. وأما الكلبة "كولي"، فقد أمسكتها إحدى السيدات وراحت تحاول تهدئتها والكلبة تزداد هياجا.. كانت على يقين من أن أصحاب المنزل يرتكبون خطأً فظيعاً بقبولهم ذلك اللص في بيتهم، وكانت عاقدةً العزمَ على حملهم على إدراك خطئهم..

صعد الجميع الدرج و"أبيض الناب" على أثر سيده. وبادره "ديك" بزمجرة غاضبة حين مر من أمامه، أجابه عليها الذئب بزئير أعلى منها تصحبه تكشيرة مفزعة؛ وقال "سكوت" الأب مقترحاً:

– ماذا لو أدخلنا الكلبة إلى الداخل وتركنا الكلبين يصفيان حساباتهما في ما بينهما؟.. لا شك أنهما لن يلبثا أن يصبحا صديقين..

قال الشاب:

– أجل.. ربما.. وعندها لن يجد "أبيض الناب" سوى ثياب الحداد يلبسها تعبيراً عن صداقته..

قال الأب:

- أتعني أن..؟..

ولم يتم جملته، بل استدار ينظر إلى الذئب غير مصدق، فقال ابنه:

- أجل.. لن يحتاج لقتل الكلب المسكين إلى أكثر من دقيقة واحدة..!

قال ذلك واستدار نحو الذئب قائلاً:

- هيا أيها الذئب العجوز.. أنت من سيدخل إلى الداخل..!

دخل الذئب خلف سيده، متوتر الجسد منتصب الذيل.. كان يحاذر هجوماً مباغتاً من قِبَل الكلب كما كان محترساً مما قد ينتظره داخل المنزل من مفاجآت.. على أن شيئاً لم يحدث، فعاد الذئب- بعد جولة في أرجاء الصالون الفسيح الذي اقتعدت الأُسرةُ مطارفَه وحشاياه- فأقعى عند قدمي سيده وهو لا يزال حذراً من ذلك البيت الضخم- الذي بدا له فخاً مترامي الأطراف مليئاً بالأخطار المتربصة- مستعداً للقفز واقفاً على قوائمه عند أول بادرة سوء يراها...

الفصل الثالث والعشرون

مملكـة الإلــه

كان استعداد "أبيض الناب" الفطري للتكيف، إضافة إلى ما اجتمع لديه من تجربة، خيرَ معين له على اعتياد محيطه الجديد، فسرعان ما أضحى يشعر أنه في "سييرا فيستا"- ضيعة القاضي "سكوت" الواسعة- في منزله، وانتهى إحساسه بالغربة..

أما علاقته بكلبي المنزل، فإنها سرعان ما أصبحت علاقةَ تعايش سلمي.. فالكلاب، بما هي معتادةٌ على طباع البشر وعلى الانصياع لرغباتهم مهما بدت غير معقولة، لم تلبث أن تركت الذئب وشأنه، فأخلى "ديك" سبيله بعد بضع محاولات غير مجدية لاكتساب صداقته، وأصبح يتصرف وكأن الذئب المنعزل المتعالي غيرُ موجود البتة.. وتركه الذئب بدوره في سلام.. فهو كان يعرف منذ حياته بأرض الشمال أنه ينبغي له ترك كلاب السيد وشأنها ما لم تضطره الكلاب إلى الدفاع عن نفسه أو عن زعامته..

غير أن "كولي" كان لها رأيٌ مخالف تماماً؛ ولئن كانت رغبةُ الآلهة تفرض عليها قبول الذئب بالمنزل، فإنها ما كانت لتستطيع إرغامها على التساهل في معاملته.. كانت تتصرف كما لو أن بنات جنسها جميعاً، ذكورها والإناث، قد أوكلن إليها أمر الانتقام لفصيلتهن من مكر الذئاب ودهائها في شخص "أبيض الناب" المسكين، الذي لم تكن الكلبة تدع فرصةً تمر إلا واغتنمتها لتُنَكِّلَ به وتسومَه من الخسف ألواناً.. وكانت تستغل ما تُخَولها إياه أنوثتها من أمانٍ من الرد

استغلالاً مفرطاً، على حين لم يكن الذئب يـستطيع رد العـدوان ولا تجاهُلَه.. كان- حين يحلو لها أن تهاجمه- يدير لها كتفـه المغطـاة بطبقة من الشعر الواقي، ثم يبتعد في كبرياء.. فإذا ألحت جعل يجري راسماً دائرة واسعة، مولياً إياها كتفه، وقد ارتسم الملل على سحنته.. وكانت أحياناً تفلح في إيلامه بعضة في قائمة أو كفل، فيعـدو ناسـياً كبرياءه.. على أنه كان في الغالب يحتفظ ببروده ، متجاهلاً الكلبة ما استطاع، مبتعداً دون تردد متى رآها مقبلة..

كان عليه أن يتعلم الشيء الكثير في حياته الجديدة.. فكل شـيء في "سييرا فيستا" كان أكثر تعقيداً بما لا يقاس، من نظيره بالـشمال، ذلك إن كان له بالشمال من نظير، بمن في ذلـك أسـرة "سـكوت" نفسها.. فهو كان يدرك جيداً أن العصبة المحيطين بسيده كانوا له ما كان "ميتساه" وأمه "كلوكوش" لصاحبه القديم "القندس الرمادي"؛ غيـر أن الأمر كان مختلفاً هنا، فعدد البشر كان كبيراً جداً، بدءا بالقاضـي "سكوت" وزوجته، وأختي "سكوت" الابن وزوجته الـشابة، وانتهـاءً بابنيه الصبيين..

لم يكن الذئب بالطبع يدري ما حقيقة العلاقة التي تربط كُلاً مـن هؤلاء بسيده، لكنه أدرك أن جميعهم قريبـون منـه، وإنْ بـدرجات متفاوتة جعل يحاول تحديدها بمراقبة تصرفات سيده حيال كلٍّ منهم، محدداً سلوكه تجاهها.. فما يكتسي أهمية في عين "سـكوت" يكتـسي الأهمية ذاتَها في عين حارسه القوي الأمين..

هكذا اضطر الذئب مثلاً إلى تغيير سلوكه تجاه الأطفـال الـذين كان يكرههم تلقاء ما ذاقه على أيديهم الصغيرة القاسية في مخيمـات الهنود.. فقد بدأ أول الأمر بالزمجرة حين حـاول طفـلا "سـكوت"

الاقتراب منه لمداعبته، لكن ضربة من يد سيده جعلته يذعن للمساتهما رغم أنفه، وإن واصل الزمجرة خلال ذلك.. على أنه حين لاحظ بعد فترة مدى ما يحظى به الطفلان من أهمية لدى أبيهما، بـدأ- علـى عادته مع كل ما هو محبوب لدى سيده- يحْمِلُ نفسَه علـى حبهمـا حتى اعتاد لمساتهما ومداعباتهما.. ولما كانت طبيعته تتنافى وذلـك، فإنه كان يحتمل الصبيين مرغماً، حتى إذا لم يعد يطيق صبراً، كنـت تراه ينهض فجأة ويعدو مبتعداً.. والحق أنه بدأ يألف صحبتهما، بـل وبدأ يحبهما.. إلا أنه- جرياً على عادته- لم يكن يعدو للقائهما كلمـا رآهما قادمين، بل كان ينتظر مكانه حتى يأتيا إليه.. ومـا لبـث أن أصبح يجد في رفقة الطفلين سعادة تلتمع بريقاً في عينيه حين يكونان قربه، وتختفي مفسحة المجال لنظرة حزينة تطل من حدقتيـه حـين يغادرانه لألعابهما..

بعد الصبيين جاء دور القاضي "سكوت" الذي كان الذئب يوليـه احتراماً خاصاً، وذلك لسببين، أولهما ما كان يحظى به الشيخ من حب وتقدير من قِبَل إلهه المحبوب، والثاني كون القاضي العجوز رجـلاً هادئاً بطبعه، وهو ما كان يروق كثيراً لـ"أبيض الناب" الـذي كـان يحلو له الاضطجاع عند قدمي الرجل حين يجلس على كرسيه الهزاز يقرأ جريدته عند المدخل، ملقياً من حين لآخر إلى الـذئب بكلمـة أو نظرة، تكفي لإشعار الحيوان بأنه يذكر وجوده، وكان في ذلـك مـا يرتاح له الذئب الذي كان لا يتخلى عن مجلسه ذاك إلا إذا حضر إلهه المحبوب الذي تنكسف لحضوره كل الوجوه فلا تبقى ثمة من أهميـة لأحد..

أدرك الذئب سريعاً الفوارق بين أهل المنزل من أفراد الأسـرة وبين الخدم.. كان الخدم يخشونه، أما هو، فكان يدعهم- كحيوانـات

سيده– بسلام، مدركاً أنهم ينزلون منه منزلة "ماط" سائق الكلاب. غير أن ساكني المنزل لم يكونوا هم وحدهم مَن كان ينبغي للذئب معرفته؛ فمزرعة القاضي "سكوت" كانت مترامية الأطراف، يحدها– من الناحية الواقعة في مواجهة السور الضخم– سياج يمر من ورائه الطريق الرئيس الذي كانت تتفرع عنه إلى الجهة المقابلة طُرُقٌ جانبية تتخلل ضياعاً أخرى تعج آلهةً وحيوانات وكلاباً..

كان كل ذلك بالنسبة إلى الذئب جديداً، يمثّل كمًّا هائلاً من المعلومات كان ينبغي له اختزانه وتنظيمه، لا يساعده في ذلك– وهو الغريب عن البلد وأهله وعاداته– سوى غريزته التي كان يستسلم لها حتى تدعوه إلى ما ينافي قاعدةً تعلَّمَها فرتدع، أو إلى ما يتولد عنه العقاب فيتخذ من ذلك من يومها قاعدةً جديدة تُضاف إلى القواعد المختزَنة في ذاكرته..

كانت صفعةٌ من يد سيده، تصحبها بضع كلمات تأنيب، كافية لتُحدثَ في نفسه أثراً أعمق مما يمكن أن يُحْدثه أقسى عقاب.. ولئن كانت ضربات "القندس الرمادي" وبعده "سميث الوسيم" تخيفه وتؤلمه، فإنها ما كانت لتنال سوى جسده؛ أما أن يرى إلهه المحبوب غاضباً منه، فذاك ما كان يزعزع منه الكيانَ ويؤلم الروحَ...

الحق أن الصفعات كانت نادرة، إذ كان السيد غالباً مّا يكتفي بكلمات قليلة تعيد الذئب إلى الطريق القويم.. كانت نبرة صوت سيده كافية كي يعلم إن كان قد أحسن التصرف أم أساء، فكان يأتمُّ بها في محيطه الجديد المجهول كما التائهُ في الصحراء بإبرة بوصلة...

هناك في أرض الشمال البعيد، لا يُدَجِّن الإنسان من الحيوانات في الغالب سوى الكلاب، أما باقي المخلوقات، فإنها تعيش حرة

طليقة، ضعيفُها طريدةٌ لقويها، والقوي لأقوى منه.. وقد تغذى "أبيض الناب"- شأن غيره من كلاب الشمال- مرات عديدة على لحم ضحايا كان يقتنصها من بين الأشياء الحية التي تعجِ بها الغابة، فلم يخطر له ببال أن الأمر في "سييرا فيستا" مختلف تماماً..

ذاك ما جعله، إذْ كان يتجول ذات صباح متنزهاً، فوقع بفروج تاه عن حظيرته، ينقض على الطائر دون تردد ويلتهمه، ثم يلحس مشفريه متلذذاً..

عثر في المساء بفروج آخر قرب الإسطبل، فانقض عليه يريد إلحاقه بسابقه، وإذا بأحد الساسة يتدخل.. كان الرجل يحمل في يده سوطَ فروسيةٍ قصير، فانهال به على الذئب ضرباً..

تراجع الذّئب متخلياً للرجل عن الطائر، لكن السائس عاجله بضربة أخرى، فإذا به ينقض عليه فجأة باحثاً عن منفذ ينفذ منه إلى عنقه، فتراجع الرجل صارخاً، وسقط السوط من يده فيما هو يحاول حماية رقبته بذراعيه..

تعالى الصراخ في الإسطبل، لكن أحداً لم يستطع الاقتراب من الذئب الذي راح ينهش ذراعي الرجل محاولاً الوصول إلى رقبته، وهو واقف أمامه على قائمتيه الخلفيتين.. وفقد الرجل توازنه بغتة فسقط على ظهره؛ وبدت نهايته محققة لولا أن الكلبة "كولي"- التي أيقظتها الضوضاء من غفوة داخل الإسطبل- انقضت على الذئب في تلك اللحظة هادرة مزمجرة، فكالت له عضة في كتفه تراجع الذئب على إثرها مفلتاً ضحيته وهو يزأر متوجعاً، قبل أن يبتعد وهو يزأر كأسد..

قُدِّمت الإسعافات الأولية إلى الرجل المرتعب، ثم جيء به إلى حيث جلست الأسرة أعلى درجِ المدخل، فحكى للقاضي وابنه ما وقع.. وراح الجميع ينظرون إلى الذئب الذي أقعى عند قدمي سيده

محتمياً بهما.. وقال القاضي "سكوت" أخيراً:

– هذا حيوان متوحش؛ وأعتقد أن الحكمة تقتضي أن نتخلص منه يا "ويدون"..

فأجابه ابنه متجهماً:

– لا.. إن الخطأ خطئي.. فمن أين كان له أن يعلم– وهو ابن تلك الأصقاع المتوحشة– أن أكل الفراخ ممنوع؟ لكن دعني أعلمه ذلك وسترى..

قال ذلك ثم قام متجها صوب الحظيرة وعاد يحمل فروجاً مرتعباً ملأ المكان زعيقاً، وضَعَه أمام الذئب الذي مد أنفه يتشممه، فضربه "سكوت" على رأسه ضربة خفيفة وهو يقول:

– لا..!

انكمش الذئب على نفسه متراجعاً، فعاد سيده يقرب منه الفرخ الذي كاد يموت فزعاً، ثم ضربه ثانية على رأسه بلطف وهو يكرر:

– لا..!

ثم التفت إلى أبيه قائلاً:

– لقد فهم الآن..

قال القاضي غير مصدق:

– لا أعتقد يا بني.. وأعيد ما قلته لك من أنه من الخير لنا أن نتخلص منه..

لكن "ويدون" لم يكن موافقاً على ذلك الرأي، فقد فكر لحظة ثم قال:

– لدي فكرة.. سنحبس الذئب عشية كاملة في حظيرة الدجاج..

هتف القاضي :

– إذن، فَقُلْ على دجاجنا السلام!..

قال ابنه:

– سوف أعطيك دولاراً كاملاً عن كل فرخ يقتله الذئب، هذا إن قَتَل..

تدخلت أخته قائلة:

– لكن العدل يقتضي أن يتعهد أبي بشيء في مقابل ذلك، فيما لو ترك الذئب الفراخ وشأنها..

وافقها الجميع على رأيها، ففكر الشاب لحظة ثم قال:

– إذا لم يقتل الذئب أياً من الفراخ، سوف تقول له يا أبي ست عشرة مرةً، وبصوتك الجاد الذي تستعمله لدى النطق بالأحكام:

– "أنت يا "أبيض الناب" أذكى بكثير مما كنتُ أظن"..

وافق القاضي، فانبثَّ أفراد الأسرة في أمكنة يراقبون منها ما يقع، ثم أُدخِل الذئب إلى الحظيرة وأُغلِق بابه عليه..

سرعان ما تبيَّنَ صدقُ تقدير "سكوت" الابن، إذ انتبذ الذئب من الحظيرة ركناً بعيداً، ثم راح في غفوة لامبالية لم ينتبه منها إلا بُعيد العصر، فقام متجاهلاً الفراخ وكأنها لا توجد قربه، وقفز فوق سطح الحظيرة ومنه إلى الخارج، ثم سار متجهاً بهدوء نحو المنزل..

لم يجد القاضي مناصاً من الوفاء بتعهده، فجلس أمام الذئب وكرر له ست عشرة مرة متوالية وبالصوت الحازم ذاته الذي كان يُصدِر به أحكامه:

– أنت يا "أبيض الناب" أذكى بكثير مما كنت أظن"..!

غير أن كثرة القواعد وتشابكها كثيراً مَّا أربكت "أبيض الناب" ووضعته في مواضع محرجة.. عدا الفراريج التي في ملك أسرة سيده، كان ينبغي له أيضاً أن يدع بسلام تلك التي في ملك الآلهة الآخرين، وكذا الأرانب والقطط والديكة الهندية..

بلغ الأمر به حدا جعله يحسب الأشياء الحية محرمة جميعها عليه، فكنت ترى طائر سلوى يلعب بأمان على قيد أنملة من فمه، والذئب كاظمٌ شهوته طاعةً لأمر سيده، حتى كان يومٌ رأى فيه "ديك" السلوقي يُفزِع أرنباً برياً من مكمنه، ثم يلاحقه مطارداً، دون أن يبدي السيد- الذي كان حاضراً- أدنى اعتراض، فأدرك ساعتها أن الأحياء تنقسم قسمين، أولها تلك التي تعيش مع سيده، وهذه- ببشرها وفراخها وطيورها وأرانبها الداجنة وقططها وكل أجناسها الأخرى- محرمة عليه ينبغي أن تُترك في سلام. وأما ثانيها، فتشمل طيور السلوى والأرانب البرية والسناجب وكل ما يسكن الأشجار، ولا ضير عليه في التهام ما تطاله أنيابه منها.. فالآلهة لم تكن تبسط حمايتها إلا على حيواناتها الداجنة التي تحتفظ لنفسها بحق الموت عليها لا تقبل التخلي عنه لأحد...

بدت الحياة في "سانتا كلارا" معقدة بالغة التعقيد، مقارنة بالحياة البسيطة التي كان قد ألفها الذئب في أرض الشمال..

لعل أكبر صعوبة كانت تعترضه هي تلك المتمثلة في مغالبة غرائزه؛ فكان- حين يرافق سيده إلى مدينة "سان خوسي" القريبة- يجد نفسه فريسة صراع دائم ضد تلك الغرائز.. ففي محلات الجزارة مثلاً، كان يتعين عليه أن يبقى ساكناً فيما شرائح اللحم الشهي تتدلى على بعد شبر من رأسه.. وكان لدى الأصدقاء الذين يزورهم سيده قططٌ يجب عليه أن يدعها وشأنها، وفي الطريق كلاب تتحرش به، فلا يملك إلا الإعراض والتجاهل.. أما حين كان يمشي خلف سيده على الرصيف وسط الزحام، وكانت أيادي عديدة تمتد إليه لتلمسه، فإنه كان يتعين عليه أن يقبل لمساتها دون تذمر.. على أن شيئاً فيه

كان يجعل الآخرين يهابونه، فلا يكاد يلمسه أحد إلا تراجع سريعاً، قانعاً من المغامرة بتلك اللمسة..

غير أن بعض اللحظات كانت تمر به عصيبةً تكاد لا تُحتمَل.. فعلى الطريق إلى "سان خوسي" كان بضعةٌ من الغلمان يقفون بانتظار العربة والذئب خلفها ليتبعوه رامين إياه بالحجارة.. وكان "أبيض الناب" يعلم أنه من المُحرم عليه مهاجمتهم، فكان يفلح في تمالك نفسه عن ذلك وإن وجد فيه مساً صارخاً بغرائزه.. كان يفلح في كظم الغيظ لأن تربية "سكوت" قد بدأت تؤتي أُكلها، والذئب قد أضحى شيئاً فشيئاً حيواناً "مُتَمَدْيِناً".. غير أنه كان يستشعر في قرارة نفسه ظلماً.. فهو وإن لم تكن عنده فكرة عن العدل بمفهومه البشري، إلا أنه كان يشعر بغموض بأن في الأمر خللاً.. فالصبية كانوا يرتكبون في حقه ما لا يستحق، ولذلك، فمن العدل أن تحل بهم العقوبة، لأنه لو وقع العكس وكان هو المعتدي لما أفلت من العقاب ولا وجد فيه إلى ذلك من غضاضة..

على أنه واصل ضبط نفسَه وتجاهلَه إياهم حتى كان يوم فإذا بسيده يوقف العربة فجأة وينزل منها ليلاحق الصبيان جرياً فيلهبَ بسوطه ظهر بعضهم ويوليَ الباقون فراراً.. من يومها تركه الصِّبية وشأنه، فارتاح الذئب لذلك ارتياحه لإنزال سيدِه العقوبةَ بهم، ووجد فيه دافعاً جديداً لتقديس إلهه وعبادته..

وقع حادث مشابه بعد ذلك بأيام. فقد كان هناك ثلاثة من الكلاب تلهو أمام مقهى يوجد على قارعة الطريق، فما إن يمر بها "أبيض الناب" وهو يعدو خلف عربة سيده حتى تتبعه نابحة.. وقد حرص "سكوت"– الذي كان يعرف جيداً أنياب ذئبه– على مراقبة الذئب كلما مرّا بالكلاب، مانعاً إياه من الرد عليها..

أضحى الأمر بمرور الوقت عادةً لدى الكلاب وامتحاناً عسيراً للذئب وصاحبه.. فالكلاب كانت- في جبنها وعجزها عن مهاجمة "أبيض الناب"- تتبعه نابحة، كأنها تشتمه بطريقتها، والذئب كان يجد صعوبة متزايدة في كبح غريزته التي كانت تهيب به أن يستدير فيبطش بها جزاء ما كان يعتبره اعتداءً صارخاً على كبريائه وكرامته، وخلفه كان الشاب يراقبه، مقدراً مدى الصعوبة التي كان يجدها الذئب في تمالك نفسه.. وزاد الطينَ بلةً أنْ أخَذَ أصحابُ الكلاب من رواد المقهى يجدون متعةً في تلك المطاردة، فأضحوا يشجعون كلابهم على التحرش بالذئب الغريب..

فعلوا ذلك مرة بإلحاح وعلى مرأى ومسمع من "سكوت"، فما كان من الشاب إلا أن أوقف عربته، ثم استدار نحو الذئب قائلاً:

- هيا..!

نظر الذئب إليه غير مصدق ما يسمعه، فأعاد "سكوت" عليه أمره قائلاً:

- هيا يا عزيزي.. انتقم لنفسك وكلُّ هذه الكلابَ حية..!

لم يكن الذئب في حاجة لأكثر من ذلك، فاستدار كالثعبان وانقض على أعدائه.. وبدأت معركة حامية الوطيس، وعلا الصراخ والعواء، وسرعان ما أخفى المتعاركين غبار انقشع بعد لحظات..

كان اثنان من الكلاب الثلاثة يختلجان محتضرَيْن، بينما عدا الثالثُ هارباً، فقفز سياجاً ودخل أحد الحقول..وانطلق الذئب صامتاً كالسهم، فأدرك خصمه في منتصف الحقل وذبحه وقفل راجعاً..

سرعان ما انتشر الخبر في الوادي انتشار النار في الهشيم، فأصبح المزارعون من يومها يحرصون على ألاَّ تتحرش كلابهم "بأبيض الناب" مطلقاً...

الفصل الرابع والعشرون

نـداء الغريـزة

مضت الشهور تباعاً، و"أبيض الناب" ينمو ويسمن تحت شـمس الجنوب الدافئة كما النبتة القوية تينع في الأرض الخصبة الطيبة..

غير أن الذئب بقي على طبيعته الأولى، منعزلاً عن بني جنسه من الحيوان.. كان يطبق قاعدة التجاهل بحذافيرها، ويطالب الآخرين بالحياد نفسه.. ولم يجد– بفضل منظره وأنيابه الحادة البارزة وما كان يتجلى في مشيته ونظرته من شرٍّ كامنٍ– كبيرَ صعوبة فـي إقنـاع حيوانات الضيعة جميعاً أن الخير لها كل الخير في أن تبادله بتجاهله تجاهلاً.. وأفلحت سياسته في إبعاد الجميع عنه فتركوه لشأنه.. الجميع عدا الكلبة "كولي" التي لم تنجح محاولات سيدها القاضي في جعلهـا تقلع عن مضايقتها الذئب المسكين.. كانت حادثة الفراخ قد أكـدت– في ظنها– ما حَدَسَتْه منذ أول يوم لدى الغريب من لصوصية كامنة، فآلت على نفسها– أمام تجاهل الآلهة وتسامحها– أن تتولى شخـصياً عقابه.. ومضى المسكين يتحمل من غلوائها ما يتحمل، حتى إذا طفح كيله التجأ إلى حيلة اكتشفها حديثاً، فكان يضطجع ويضع أنفـه بـين قائمتيه الأماميتين المبسوطتين أمامه، ثم يصطنع النوم. وهو وضـعٌ كان يُربِك الكلبة التي لا تلبث بعد لحظات من النبـاح الغاضـب أن تنصرف عنه لسبيلها مُفْحَمَة..

باستثناء "كولي"، يمكن القول إن "أبيض الناب" قــد عــاش فــي الضيعة في رغد؛ فقد كان حراً طليقاً- في حدود المزرعة الفسيحة- لا يعوقه عائق ولا يهدد حياته مهدد، ففارقه خوفه الغريزي أو كاد.. ومضت الأيام في رخاء ونعيم لا تنغصهما سوى "كولي"..

كان يشتاق إلى جليد الشمال.. لم يكن بالطبع يدري ما الــشوق، لكن إحساساً غريباً كان يعتريه من حين لآخر بأن فصل الحر قد طال أكثر مما ينبغي.. كان يستشعر لأرض الشمال حنيناً غامضاً يورثــه إحساساً بالغربة وضيقاً عابراً لا يلبث أن يغادره..

لم يكن من عادته التعبير عن عواطفه.. فكل ما كان يــستطيعه من تعبير لم يكن يعدو تلك النبرة المرحة التي تتخلل زئيره الخافــت حين يداعبه سيده، وتلك الطريقة التي كان يخفي بها رأسه تحت ذراع الشاب.. بيد أن "سكوت" لم يلبث أن علمه كيف يضحك..

"أبيض الناب"- وذاك شيء اكتشفه "سكوت" سريعاً- كان يكــره ضحك الآدميين حين كان يشعر أنه المقصود به، ويركبه جرّاءه هياج مستعر.. إلا أنه بقي مرتبكاً حين راح سيده المحبوب يلاعبــه مــرة وهو يطلق قهقهات مجلجلة.. كان يعرف عن يقين أن إلهه المعبود لا يمكن أن يستهزئ به.. وذات يوم، توصل "سكوت" أخيراً إلى جعلــه يتخلى عن صرامته وجديته، فانفرج مشفرا الذئب- بعد لأي- عــن أسنانه، فيما راحت عيناه تلمعان.. كان "أبيض الناب" قد تعلم أخيــراً كيف يضحك..

وتعلم كذلك أن يلعب كالمجنون مع ســيده، فيتــدحرجان معــا كطفلين مشاكسين، ويتعاركان في شراسة مفتعلة. وحين يتعبان، كانا يجلسان وجهاً لوجه ويضحكان معاً..

غير أن "أبيض الناب" لم يكن يسمح لأحد بأن يلاعبه بالطريقة التي يلاعبه بها سيده المحبوب. فإذا حاول ذلك غيرُه، وجد من الذئب من الزمجرة والتكشير ما يقنعه بالإقلاع سريعاً.. فهو لم يكن مستعداً لأن يجود على غير سيده ولو بفُتاتٍ من القلب الذي كرسه له جميعَه خالصاً وحده..

كان "سكوت" كثيراً ما يركب حصانه، ويعدو به ما بين الحقول متجولاً، يتبعه الذئب.. كان "أبيض الناب" يعُدُّ مرافقةَ سيده في مثل تلك النزهات واجباً لا يحيد عنه، وطريقةً يعرب بها عن ولائه لإلهه في مكانٍ لا زلاقةَ به تُجَرُّ ولا متاعَ يُحرس.. فكان يعدو حول الحصان طيلة النزهة ويعود في آخرها مرِحاً ليس لسعادته حدود.. وسارت الأمور على ذلك المنوال إلى أن كان يومٌ أُتيح فيه للذئب أن يستثمر ذكاءه لأجل إنقاذ سيده. بل إنه حقق في ذلك اليوم مرتين اثنتين أمراً لم يفعله مطلقاً من قبل ولا من بعد..

كان "سكوت" يحاول تعليم مهرٍ كيف يفتح بفمه بوابة سياج المزرعة دون أن يضطره هو إلى النزول لفتحها بنفسه. ووجد الرجل صعوبة في إقناع المهر بذلك، وبدأ الحيوان تحت إلحاح الرجل ينفر واقفاً على قائمتيه الخلفيتين، فانقض الذئب- الذي كان يرقب الأحداث – على الحصان وهو ينبح بقوة (وقد حاول "سكوت" بعد ذلك عبثاً حمْلَه على النباح)، فأجفل المهر وانطلق جامحاً بين الحقول.. وعند أول أخدود صادفه، انتفض فجأة فوقع الرجل أرضاً وانكسرت ساقه..

انقض الذئب هائجاً على عنق الحيوان المسكين، لكن سيده ناداه صائحاً:

– إلى المنزل!.. اِذهب إلى المنزل..!

لم يكن مع الشاب قلم ولا ورقة ليكتب لأهل بيته مستنجداً، ولم يجد سوى أن يكرر أمره للذئب مرا :

– إلى المنزل..! إلى المنزل..! إلى المنزل..!

رمقه الذئب بحيرة ثم انطلق يجري.. لكنه سرعان ما عاد نحوه وهو يئن بجزع، فهتف به "سكوت" مكرراً:

– إلى المنزل يا صديقي.. اذهب إلى المنزل..!

فهم الذئب هذه المرة ما أراده سيده، فانطلق لا يلوي على شيء..

كانت الأسرة مجتمعة أعلى درج المدخل حين وصل "أبيض الناب" إلى المنزل. ورأته زوج القاضي فقالت:

– هاهو "ويدون" قد عاد..

ولمح الطفلان الذئب فاتجها نحوه يداعبانه، فراوغهما، لكن الصغيرين حاصراه، فزمجر الذئب غاضباً وقفز من فوقهما، فسقط الصبيان أرضاً. وقالت أمهما التي كانت تتابع المشهد بقلق:

– أعترف أني لا أحب رؤية الولدين يلاعبان هذا الذئب..

قالت ذلك ونادت إليها طفليها الباكيين.. وقال القاضي معقباً:

– لا يغلب الطبعَ التطبع؛ ومن يحتضنْ ذئباً فيربِّه بين غنمه معتقداً إياه سينسى طبيعته، مخطئ ما في ذلك من شك..

قالت "بيث" مدافعةً عن أخيها الغائب:

– لكن "ويدون" يؤكد أنه ليس ذئباً مائة بالمائة..

قال القاضي:

– ذلك رأي "ويدون" وحده.. يقول إنه يحسب في دم هذا الحيوان شيئاً من الكلب، لكنه لا يملك دليلاً على ذلك. فهو يقول...

لكنه لم يتم جملته. فقد استرعى انتباهَه الذئبُ الذي وقف أمامـــه وهو يزمجر، فصاح به:

– أقعِ يا صاح!.. أقعِ!..

استدار "أبيض الناب" نحو زوج سيده وجر طرف ثوبها بأنيابه، فتمزق الثوب وندت عن المرأة صرخة فزع. وراح الجميع ينظرون باستغراب إلى الذئب الذي توقف عن الزمجرة وطفق يجيـــل عينيـــه بينهم وهو يكاد لفرط انفعاله يتكلم.. وقالت زوج القاضي معلقة:

– عسى ألا يكون المناخ قد أورثه داءً.. فلطالما قلت لـــ"ويدون" إن المناخ هنا لن يناسب حيواناً آتياً من أرض الشمال الباردة..

قالت "بيث" فجأة:

– كأني به يريد أن يقول لنا شيئاً..

في تلك اللحظة بالذات، تكلم "أبيض الناب".. تكلم فجاء كلامه في صورة نباحٍ قوي هادر.. وصرخت زوجة المهندس الشاب:

– لقد حدث شيءٌ مًّا لـــ"ويدون"..!

هب الجميع واقفين، فأسرع الذئب يهبط درج المدخل، ثم ألقـــى بنظرة إلى وراءه يتأكد بها أنهم يتبعونه...

بعد تلك الحادثة احتل "أبيض الناب" مكانة خاصة في الأســـرة.. وحتى السائس الذي كاد الذئب يقتله يوما اعترف بأنه حيوان ذكـــي، كلباً كان أم ذئباً. وتلك مسألة أخرى حسمها القاضي– أو خال نفـــسه فَعَل– مستنداً إلى صورٍ ووثائقَ استقاها من موسوعة الحيوان، بـــيَّن بها أن الأمر يتعلق بذئبٍ لا بكلب..

كانت الشمس لا تزال تغمر بدفئها وادي "سانتا كلارا"، غير أن النهار شرع يتقلص، معلناً عن اقتراب ثاني شتاءٍ يقضيه "أبيض الناب" في أرض الجنوب..

في تلك الفترة، اكتشف الذئب شيئاً غريباً.. فأسنان "كولي" لم تعد تنشب في لحم كتفه بالقسوة التي كانت لها من ذي قبل، بل بدا وكأن الكلبة صارت تفعل ذلك كي تداعبه وحَسْب.. وسرعان ما نسي الذئبُ قبيحَ فعلِها معه وما سامته إياه من خسف وعناء طيلة الشهور الماضية، وبدأ يجد في نفسه رغبة في الاستجابة لدعاباتها.. غير أنه لم يكن قد تعلَّم ذلك من قبل قَط، فبدا- وهو يحاول تقليدها في عدْوِها وقفزها المرح- أشبه ما يكون بشيخٍ مُتَصابٍ..

وذات يوم، ذهبَتْ به في نزهة طويلة عبر الحقول والأحراش..كان سيده في فترة النقاهة سيخرج عند العصر للنزهة على صهوة جواده، والذئب يعلم ذلك جيداً، فوقف لحظةً متردداً حين رأى الحصان مُسرجاً بباب المنزل، لكن رغبةً غريبة وجديدة ملكت عليه نفسه، وجعلته يقبل التخلي عن إلهه المحبوب نفسه.. فحين استبطأته "كولي" وعادت إليه تعض كتفه مداعبةً، لم يلبث أن نسي كل شيء وتبعها..

تنزه "سكوت" عصر ذلك اليوم وحيداً، فيما "أبيض الناب" وعروسه الجديدة يجريان معاً عبر الغابة، تماماً كما جرى "وحيد العين" صحبة أمه "كيش" ذات يوم بعيداً فوق ثلوج الشمال...

الفصل الأخير
غفوة الذئب

لم يكن للصحف من حديث منذ بضعة أيام خلت سوى عن موضوع هربِ مجرمٍ عاتٍ من سجن "سان كونتان"..

كان "جيم هال" قد خُلِقَ شريراً، ولم يزده المجتمع إلى سوئه إلا سوءاً، حتى أصبح الرجل وحشاً حقيقياً، له صفة الآدميين وهيئتهم، وقسوة الوحوش وضراوتها..

كان سلوكه- حتى وهو في داخل السجن- من العنف والعناد بحيث كان يقضي أغلب سني سجنه داخل زنزانة الحبس الانفرادي الحديدية.. غير أن ذلك لم يكن يزيده إلا شراسة وعناداً.. وابتُلي بحارسٍ أسوأ منه خُلقاً وأحطَّ نفساً، كان لا يفتأ يكيد له عند مدير السجن، مستعملاً الأكاذيب وشهود الزور ليتسبب في إنزال أقسى العقوبات بالسجين البائس.. والحق أن الفرق بين الرجلين كان لا يعدو كون أحدهما نزيل السجن والآخر موظفاً به، إذ كان الاثنان من الخسة والنذالة بالمنزلة ذاتها..

وذات يوم، طفح الكيل، ولم يطق "جيم" صبراً على إهانات الحارس، فارتمى عليه مستعملاً أسنانه التي كاد- لفرط غيظه- يذبحه بها. ولولا أنْ تدخَّلَ الحاضرون من حراس ومساجين لاستنقاذه من يده والحيلولة بينهما لفعل..

وعاد "جيم" إلى الزنزانة الحديدية وقضى بها ثلاث سنوات أُخَرَ لم يرى خلالها لونَ السماء ولا نورَ الشمس، نهاره عتمةٌ وليله مظلمة

مطبقة كظلمة القبر.. لم يكلم أحداً ولا كلمه أحد طيلة تلك المدة.. كان كلما ألقي إليه بالطعام من خلال طاقة أسفل الباب، تناولَه وهو يصدر زمجرةً كزئير أسد حبيس.. وقد يمضي عليه الشهر والشهران لا يُسمَع له فيهما صوت، ثم تثور ثائرته فجأة، فيرفع عقيرته بالصراخ.. صراخٍ دائم متصل كالعواء يدوم أياماً ثم يصمت بغتة كما بدأ.. صراخٍ يشي بما يحمله الرجلُ للعالَم من حقد مميت، يليه صمتٌ تأكل خلاله روحُه من نفسها كما النار إذ لا تجدُ ما تأكله...

وذات ليلة، تمكَّن الرجل فجأة من الفرار..كان الأمر يبدو في حكم المستحيل، أو قُل إنه كان مستحيلاً، كما لم يكُفَّ عن ترديد ذلك رئيسُ الحرس.. غير أن الزنزانة الخالية وجثة الحارس الملقاة أرضاً ببابها كانتا شاهدين على أن المستحيل قد تبلورَ واقعاً رهيباً، تنطق برهبته الجثتان الأخريان اللتان اكتُشفت إحداهُما عند بوابة السجن والأخرى أعلى سوره، علامتين على السبيل التي سلكها المجرم الهارب في هربه..

كان- بالإضافة إلى ذلك- قد سلب ضحاياه من الحراس أسلحتَهم جميعاً، فسار مدججاً بالسلاح تطارده قُوى الشرطة والجيش.. وانخرط في المطاردة مزارعون طمعاً في المكافأة السخية التي جُعلَت لمن يأتي به حياً أو ميتاً، فرأى فيها بعضهم فرصةً لفك رهنٍ أو تزويج بنتٍ أو إرسال ابنٍ إلى الجامعة، كما انضم إليهم مواطنون ذوو نيات حسنة بهدف مساعدة قوى المجتمع المنظمة في القبض على مجرمٍ هارب.. واستمرت المطاردة أياماً كان انتباه الجميع فيها مشدوداً إلى فصولها المتوالية.. وكان يحدث أن يلحق بالهارب بعضُ مطارديه، فتدور بينهم معركةٌ حاميةٌ تنشر صحفُ الصباح التالي وقائعَها وأسماء ضحاياها الذين كانوا دوما من بين المطاردين؛ أما "جيم" فظل حراً طليقاً، يواصل فراره من مكان إلى آخر..

وذات يوم، اختفى الرجل فجأة.. فقدت الكلاب أثره وفشل رجال الشرطة في العثور على ما يرشدهم إلى المكان الذي قد يكون الهارب مختفياً فيه، فوَجَدَت الشائعات في ذلك بغيتها وعُثِرَ على رفات "جيم" في عشرة أماكن مختلفة، كما سادت الفوضى الوادي، فلم يعد نـادراً أن يجد مزارعٌ آمنٌ نفسَه مرغماً، تحت تهديد مجموعةٍ مسلحة، على الإدلاء بما يثبت هويته.. ووجد سكان الوادي الخـالون فـي أخبـار المطاردة مادةً دسمة تملأ فراغهم وتروي فضولهم..

غير أن ساكني "سييرا فيستا" كانوا يقرءون الجرائد باهتمامٍ نابع لا من فضول، بل من قلق.. كانت النساء مرتعبات. أمـا القاضـي "سكوت"، فكان يهزأ من خوفهن. والحق أنه كان مخطئاً في استخفافه بالأمر. فقد كان هو نفسه القاضي الذي أنزل آخر عقوبة بـ"جـيم".. وإنه لَيَذْكُرُ جيداً أن الرجل– لدى سماعه الحكم القاسي– قـد توعـده شراً..

وللإنصاف، فإن "جيم" كان مظلوماً في تلك المرة، فقد كان بريئاً مما رموه به.. كانت حالته من تلك الحالات التي يُقـال عنهـا فـي أوساط الشرطة والمجرمين إنها حالات "قابلـة للمناقـشة" أو "غيـر محسوم فيها".. غير أن ما بدا للقاضي ساعتها أنه دليلان قاطعان على الجريمة، إضافة إلى ماضي "جيم" الثقيل، جعله يصدر على الرجـل حكماً بالغ القسوة بخمسين سنة سَجْناً.. كان القاضي يجهل أن الدليلين كانا ملفقين من قِبَل الشرطة التي وجدت فيها فرصة لإغـلاق ملـف قضيةٍ والإيقاع بعدوٍّ قديم في آن.. وحين سمع "جيم" الحكـم انفجـر صائحاً، صابًّا جامَّ غضبه على القاضي، مهدداً بالانتقام منه، حاسـباً إياه طرفاً في المؤامرة..

والآن، هاهو "جيم هال" يعدو حراً طليقاً...

لم يكن "أبيض الناب" يدري بطبيعة الحال عن كل ذلك شيئاً. غير أن "أليس" زوجة "سكوت" جعلت- مذ شاع خبر فرار المجرم- تُدخِل الذئب كل ليلة، بعد أن ينام الجميع، إلى الفناء الداخلي من البيت، وتتركه هناك إلى ما قبيل الفجر، فتنزل وتخرجه خارجاً..

وذات ليلة، وبينما المنزل يغط في النوم، استيقظ "أبيض الناب" فجأة وبقي ساكناً في مكانه يتشمم الهواء الذي حَمَلَ إليه رسالةً خَفِيَّة.. كان هنالك إلهٌ غريب بالدار...

تناهت إلى سمع الذئب أصواتٌ مكتومة، فلم يصدر عنه هو أدنى صوت.. لم يكن من عادته أن يصدر أصواتاً..

كان الإله الغريب يمشي بخطوات متلصصة، لكن أذن الذئب المدربة لم تخطيء الحفيف الذي كان يحدثه ثوبُ الرجل ولا صوت تنفسه المتلاحق.. أما الحيوان، فكان يتحرك في صمت تام.. فقد تعلم منذ القدم- يوم كان يتجول باحثاً عن رزقه في أرجاء الغابة- قيمةَ المفاجأة وأهميتها..

توقف الإله الغريب أسفل السلم المؤدي إلى الطابق حيث غرف النوم، وشرع يصيخ السمع بينما الذئب يراقبه.. فأعلى السلم كان يرقد إلهه المحبوب ومعه كل الآلهة الذين لهم في عينيه قيمة..

انتظر "أبيض الناب" وجسده يتوتر كقوسٍ في يد نَشَّاب، وحين وضع الرجل قدمه على أولى درجات السلم، انقض عليه..

لم يزمجر الذئب ولا زأر، بل انقض- كعادته- صامتاً، وأنشب أنيابه في قفا الغريب، بينما قائمتاه منغرزتان في كتفيه.. وسقط الاثنان أرضاً، فارتد "أبيض الناب" إلى الخلف، وحين بدأ الرجل يحاول استعادة توازنه، كان الذئب فوقه يمزق لحمه بأنيابه..

استيقظ أهل البيت مذعورين على صخب ضجة عارمة وزمجرة وصراخ وأصوات طلقات رصاص.. وسُمِع صوتُ رجلٍ يصرخ مرتعباً.. ووقعت بعض قطع الأثاث أرضاًفانكسرت، وعلت فرقعة انكسار زجاج، ثم عم الصمت، لا يقطعه سوى صوت يشبه الغرغرة كأنه ينبعث عن فقاعاتٍ تنفثئ على صفحةِ سائلٍ، أعقبه صوت لهاث متقطع ما لبث أن خفَتَ بدوره حتى خبا، ولم يعد يُسمَع سوى صوت حشرجة ضعيفة، كأنَّ كائناً على وشك الموت يحاول جاهداً استرداد ما انقطع من أنفاسه..

أخيراً أشعل "ويدون سكوت" النور ونزل يليه أبوه وهما يحملان مسدسيهما.. غير أنه لم يكن من لزوم إلى سلاح، فـ"أبيض الناب" كان قد أنهى عمله، وبين الأرائك المنقلبة وشظايا الزجاج والفخار المتناثرة، كان يرقد رجلٌ تغطي وجهَه ذراعُه الممزقة.. وانحنى "سكوت" يزيح اليد عن الوجه، ثم أدار الجثة ناحية النور.

فإذا بأبيه يهتف قائلاً:

- "جيم هال"...

تبادل الرجلان نظرةً كان فيها الغناء عن كل خطاب، واستدارا ناحية "أبيض الناب"..

كانت عينا الذئب مغلقتين، لكنه حاول فتحهما حين انحنى الرجلان فوقه، وحاول دون جدوى تحريك ذيله، ثم عادت الجفنان تنسدلان وارتخى الجسد تماماً..

قال "سكوت" الابن بحزن:

- المسكين.. إنه يحتضر!..

قال أبوه:
– لا عليك..
ثم سار متجهاً نحو جهاز الهاتف..

قضى الطبيب ساعةً ونصف الساعة في الاعتناء بالذئب. وكان الفجر يشقشق حين سمعته الأسرة الساهرة يُصدر أخيراً حكمه قائلاً:
– بكل صراحة، إن حظه في النجاة واحداً من ألف.. فقد انكسرت إحدى قائمتيه الخلفيتين، وثلاثٌ من ضلوعه– اخترقت إحداها على الأقل جسمَ الرئة– كما أنه قد فقد أكثر دمه.. أما الرصاصات الثلاث التي نفذت في جسمه من طرف لآخر، فإنها ولا شك قد أحدثت جروحاً داخلية.. والحق أن نسبة واحد من ألف تُعتَبَر مفرطة في التفاؤل، فالواقع أن حظه لا يتجاوز الواحد من عشرة آلاف..
قال القاضي بحرارة:
– مَهْما يكن هذا الأمل ضعيفاً يا سيدي، فلا تفرط به..افعل أي شيء لإنقاذه دون التفكير بالمصاريف..
قال ذلك والتفت صوب ابنه قائلاً:
– أما أنت يا "ويدون"، فاتصل بالأستاذ "نيكولاس" واطلب إليه الحضور بسرعة..
ثم موجهاً كلامه إلى الطبيب بلهجة الاعتذار:
– لا تؤاخذني يا سيدي، لكني لا أريد أن أدع إمكانيةً لإنقاذ هذا الحيوان دون أن استغلها..
قال الطبيب وهو يبتسم متفهماً:
– إني أقدّر شعورك ودوافعك يا سيدي القاضي. والحق أن هذا

الكلب يستحق أن يعاملَ بما يعاملُ به الإنسان.. لا تنس ما أوصيتك به من مراقبة حرارته، وسوف أعود غدا بعون الله لرؤيته..

اقترح القاضي أن توظَّف ممرضةٌ مختصة لأجل العناية بالذئب، لكن ابنتيه وزوجة ابنه أبَيْنَ بشدة ورحن يتناوبن الحراسة جنب فراش الحيوان المريض الذي كانت تَشُلُّ حركتَه قوالبُ من جبسٍ أُدرِجَ فيها جسده..

وفي الأخير، كسب الذئب الرهان الصعب الذي تنبأ له فيه الطبيب بحظٍّ واحد من عشرة آلاف.. والحق أن الطبيب لم يكن قد عالج حتى ساعتها سوى كائنات متمَدْيِنة بنات كائنات متمدينة، فلم تكن لديه أدنى فكرة عن الحيوية التي كان ينضح بها جسد "أبيض الناب" سليل غابات الشمال المتوحشة..

غير أن ذلك لم يمض دون معاناة.. فقد مضت أسابيع عصيبة بقي الذئب خلالها مشلولاً في سجنه الجبسي، ينام ساعات طوالاً تزوره خلالها صور عديدة تبرز فجأة من الماضي فتُضْحي حية أمام عينيه.. كان يرى نفسه تارة مع "كيش" في جحرهما، وتارة أخرى مقتفياً أثر "القندس الرمادي" عبر غابات الشمال، أو هارباً من "ليب-ليب" وعصابة الجراء الصاخبة..

رأى نفسه خلال أيام المجاعة زاحفاً بصمت خلف طريدةٍ أو كامناً إلى جوار صخرة، ثم وهو رفقة "كيش" أو الهندي، ثم ساحباً الزلاقة وصوت "ميتساه" يلاحقه وسوطه له بالمرصاد.. أما حين كانت كوابيسه تريه نفسه خائضاً إحدى معاركه المميتة أيام "سميث المجنون"، فكانت تعتوره حال من الاضطراب والهيجان يختلج بقوة..

غير أن أشد كوابيسه أثراً على نفسه كان ذاك الذي يــرى فيــه الترام زاحفاً على قضبانه الحديدية، مُصدراً صفيره الذي يُذَكِّر بفحيح "وشقٍ" هائج.. كان يرى نفسه مرة كامنا لـــ"سنجاب"، وحين كان يلفي فرصةً سانحة فينقض على ضحيته ذات الذيل المفلطح، كان يجــدها وقد انقلبت فجأة قطارَ ترام يهاجمه صارخاً.. ومرة أخرى، كان يعدو مختبئاً من صقرٍ حائم، فإذا بالصقر يتحول بغتة قطاراً هائلاً بحجــم الجبل يهاجمه نافثاً نيرانه يبغي سحقه.. وقد يرى نفسه فــي ســجن "الوسيم" والمراهنون يحيطون به، ثم يُفتح باب السياج ليــدخل منــه خصمه، فإذا بالباب ينفرج عن ترام يهاجم الذئب المرتعب.. وعاوده الكابوس مرات ومرات، وهو يعيشه في كل مرة بالرعب نفسه..

ثم جاء يومٌ أزاحوا فيه عن "أبيض الناب" غلافه الجبسي، وكــذا آخر الضمادات.. كان اليومُ يومَ عيد بالمنزل، فاجتمع ساكنوه جميعــاً حول الذئب فيما راح سيده يربت بلطف وحنان على رأسه، جــاعلاً إياه يُصدر زمجرته ذات النبرة السعيدة، وإنْ كــان بــصوت خافــت ضعيف.. واقترحت له زوجة سيده اسم "الــذئب المبــارك"، فــصفق الجميع للاسم الجديد..

حاول "أبيض الناب" القيام فلم يستطع وسقط أرضاً بعد محاولات عدة عقيمة.. كان طولُ الرقاد قد أضعف عــضلاته وذهــب بلــين مفاصله.. غير أنه ما لبث أن عاد يحاول- وكأنه أحس أنْ من غيــر اللائق البقاء على حاله مستلقياً في حضرة الآلهة- ونجح هذه المــرة وبقي واقفاً مكانه يرتجف..

صاحت النساء:

- فليحيا "الذئب المبارك"!..

قال القاضي:

– أخيرا اقتنعتنَّ بقولي.. لقد كنت أقول دائماً إنــه ذئــبٌ وابــن ذئب.. وقد صدَّقَت الأحداث حدسي؛ فما كان لكلبٍ أن يفعل ما فعَلَه..

قالت زوجته باسمة:

– لكنه ذئب مبارك..

قال:

– أجل.. وسأدعوه منذ الآن كذلك..

قال الطبيب:

– يجب مساعدته على ترويض نفسه.. ولنبدأ من الآن.. هيا بنا خارجاً..

وصل الذئب إلى المدخل المشمس وهو مسنودٌ من كــل جهــة، محاطٌ بالعناية كمَلكٍ مبجّل.. وتعب فأقعى يرتاح قلــيلاً، ثــم عــاود الموكب سيره الوئيد.. وبدأت عضلات الحيوان المــريض تتمطـــى مستيقظة من سباتها، وعاد الدم يجري فيها كما كان..

بلغ الموكب باب الإسطبل حيث اضطجعت الكلبة "كولي" وحولها ستة من الجراء راحت تتعارك في صخب تحت الشمس...

طفق الذئب ينظر إلى الجراء باندهاش بالغ.. أما الكلبة، فأطلقت زمجرة تحذير باتجاهه جعلته يتوقف مكانه. ومــد "ســكوت" ســاقه وساعد أحد الجراء على الوصول إلى "أبيض الناب" الذي اقشعر بدنه حذراً، فمد سيده يده يربت بها على رأسه مُطَمئِناً، في حين أمسك أحد الساسة بالكلبة التي كادت تجن خوفاً على وليدها..

اضطجع الجرو أمام "أبيض الناب" ثم مد أنفه يشم أنـف الـذئب العجوز، وما لبث أن أخرج لسانه الصغير الأحمر وشـرع يلعقـه.. ودون أن يدري "أبيض الناب" لماذا، أخرج لسانه وبدأ بدوره يلعـق الجسد الصغير..

انطلقت تصفيقات الفرح من الحضور، فأورثت الذئب حرجاً لـم يدْرِ سببَه.. على أن التعب ما لبث أن عاوده، فاضطجع مكانه موليّـا وجهه صوب الجرو وقد انتصبت أذناه اهتمامـاً.. وفجـأة انطلقـت الجراء جميعاً، مولية أمَّها ظهرها، وجاءت تلعب حول "أبيض الناب" الذي تركها تتسلق ظهره وتتخذ من جسده ملعباً.. وعـاد الحـضور يصفقون، فعاد إليه بعض خجله وحرجه، غير أنه لم يلبث أن فارقه.. أما الجراء، فإنها راحت تتقافز فوقه ومن حوله في مرح.. وأبرقـت لمعةُ حنان في عيني الذئب قبل أن يغمضهما مستسلماً لإغفاءة تحـت أشعة الشمس الدافئة...

-تمت-

المؤلف:

- الرواية من تأليف الكاتب والمغامر الأمريكي "جاك لندن".
- ولد "جاك لندن" سنة 1876 بسان فرانسيسكو (الولايات المتحدة الأمريكية).
- عاش طفولةً بائسة أورثَتْه مرارةً مقيمة دائمة. وقد روى قصة حياته وكفاحه في سيرته الذاتية "مارتين إيدن" التي رفعته إلى مصاف كبار الروائيين في عصره.
- ثار على مجتمعه وانتسب إلى المذهب الاشتراكي.
- آمن بمبدأ القوة ودعا إليه في العديد من أعماله: "نداء الغابة" 1903، "ذئب البحار" 1904، و"جون بارليكورن" 1913.
- تعتبر "أبيض الناب" 1905 من أشهر مؤلفاته المتميزة بالواقعية والوصف الدقيق الحي، وهي تتميز بكونها، إن صح التعبير، مكتوبة من وجهة نظر الذئب، إذ تصف العالم والأحداث من خلال عيني الحيوان بطل الرواية.
- مات "جاك لندن" منتحراً عام 1916.

